

أَمْرٌ مِنَ الْمُنْتَبِهِينَ  
السَّنْبِيلِيُّ وَالْحَكِيمِيُّ  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

تأليف

حَسْبُكَ مِنْ الْمَلَطَاوِيِّ  
وَكُنِينَ وَزَارَةَ الْمَنَازِلَاتِ بِنِ

الطبعة الثانية

١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م

## بسم الله الرحمن الرحيم

(( ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً )) . َّ  
 [ قرآن كريم ]

( جاء جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى ، وبشرها ببیت فی الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب ) .  
 ( فقال صلى الله عليه وسلم : يا خديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك ، فأجابت : الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام ) .

[ رواه البخارى ]

## بسم الله الرحمن الرحيم

### المقدمة

الحمد لله ، اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، فكان منهم للناس  
 الأسوة الحسنة في النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .  
 والصلاة والسلام على صفوة آل إبراهيم ، سيدنا ومولانا محمد الذي أرسله الله رحمة للعالمين  
 وبشرى للمؤمنين ، فهدى الناس من الضلال ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ،  
 ورضى الله عن آله وأصحابه وأزواجه وذريته الطيبين الطاهرين ، وعمن والاهم بإحسان ،  
 ونظر في سيرتهم بامعان للعبرة والاعتبار ، فكان من أولى الأبصار .

وبعد :

فقد طلب إلى الصديق الصالح الوفي ، السيد " أحمد أبو شقرة " أن أكتب كتاباً في سيرة أم  
 المؤمنين " السيدة خديجة الكبرى " رضى الله عنها ، وألح في طلبه ، وكان ذلك على أثر  
 اطلاعه على كتابي : " خامس الخلفاء الراشدين الإمام الحسن بن علي " الذي تفضل المجلس  
 الأعلى للشئون الإسلامية بطبعه ونشره في سنة ١٣٨٦ هـ .

وكننت قد التقيت بالصديق العزيز لأول مرة فى المسجد النبوى المبارك منذ عشر سنوات أو يزيد ، وتعارفنا ، وكانت صلتنا تزداد على مر الأيام وثوقاً فى العرى ، وتشبيداً فى الدعائم كلما اجتمعنا بعد ذلك فى الأعوام التالية فى الرحاب النبوى الطاهر ، ولا أنكر أننا التقينا فى القاهرة قليلاً أو كثيراً إلا أخيراً .

والصداقة التى تنشأ فى مكة المكرمة أو المدينة المنورة تقوم على محبة الله فى صفاء وود ، فلا تكدرها شوائب الدنيا الفانية أو أهواء النفوس المغرضة ، وما قام على محبة الله دام على الوفاء بالله ، فلا غش ولا غل ، ولا خداع ولا تغرير ، وسل فؤادك عن صداقة حميمة ومودة صميمة .

لذلك قدرت رغبة الصديق قدرها ، ولكنى قلت له : إن كثيرين كتبوا فى سيرة تلك الطاهرة الزكية وأجادوا ، فقال فى حسن ظن بى : أريد كتاباً فى سيرتها بقلمك ، فإن دموى سالت على خدى وأنا أقرأ كتابك عن الحسن السبط رضى الله عنه ، وإن وقائع السيرة تتفق ولكن أرواح الكتاب تختلف ، ولكل روح مذاق فيما تنطق به ، أو تعبر عنه أو تدل عليه ، ثم أضاف فى أريحية أعهدا فيه : وسأطبع الكتاب على نفقتى الخاصة ، ليوزع على القراء هدية دون ثمن كسائر مؤلفاتك .

ولست أنكر أنى أحب بحب الله ورسوله سادتى آل البيت الكرام ، أحبهم بروحى وبكل ذرة من ذراتى ، وإن لم أبلغ من العمل الصالح ما بلغوا ، أو أجاهد فى الله مثلما جاهدوا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم

لمن قال له : كيف تقول فى رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم ، فقال له : (( المرء مع من أحب )) .

وما أحسن ما يقول صديقى الأستاذ محمد جاد الرب :

إذا لم يكن لى عزمهم وجهادهم

فإنى بهم صب وفيهم متيم

وإن ضاق خطوى عن لحاقى بركبهم

فإنى على آثارهم أترسم

ولاعتقادى الجازم أن الله تعالى يعامل عباده بنياتهم ، ويعاونهم بصدق طوياتهم ، ولوثوقى فى حسن اتجاه الصديق فى طبع الكتاب على نفقته ، محبة فى الله ورسوله لينتفع به المسلمين والمسلمات ، عزمت على تحقيق الرغبة التى أباها ، لكنى رجوته ألا يقيدنى بإخفاء أمره ، بل يسمح لى أن أنشر أن طبع الكتاب على نفقته ، لأنى أعلم علم اليقين أنه كثيراً ما يفعل الخير ويخفيه عن الناس .

وقد سألتنى عن وجهة نظرى فى ذلك النشر ، فقلت : إن فيه تربية عملية فهو يحض الناس على الخير ، ويبث فيهم حب البذل فى المنفعة العامة ابتغاء مرضاة الله تعالى ، والمثل الطيب يحتذى ، ويجب أن تعلن فى زماننا عن الطاعات والخيرات ، علاجاً لشح الأنفس ، ودرءاً للأنانية ، ولمثل هذا البذل فليعمل العاملون .

\* \* \*

وأَمَ المؤمنين السيدة (( خديجة الكبرى )) قد ضربت المثل الأعلى للبذل ، فأنفقت أموالها من الذهب والفضة فى سبيل الله عندما احتضنت رضى الله عنها دعوة الإسلام فى مهدها ، وزكاهها رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عملت حين عدد مآثرها وأعلن عنها ، وقال :

( آمنت بى حين كفر الناس ،

وصدقتنى إذ كذبنى الناس ،

وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ،

ورزقتنى الله منها الولد دون غيرها من النساء ) .

وقد دعا صلى الله عليه وسلم علانية لعثمان بن عفان رضى الله عنه عندما بذل ماله فى الجهاد ومول جيش العسرة ، ثم جاء بألف دينار أخرى وصيها فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخذ صلى الله عليه وسلم يقلبها بين يديه ويقول : ( ما ضر عثمان ما عمل بعدها ) ، وفى رواية أخرى : ( اللهم اغفر لعثمان ) .

وليس المقصود بالكتابة فى سير عظماء الإسلام وأعلامه أننا نسرد وقائع التاريخ المتصلة بهم فحسب ، بل المقصود أن نأخذ العبرة من سيرهم لنستضى بها فى حياتنا ، وننتفع بتجاربهم فى أمورنا الدنيوية والأخروية ، فقد هلك خزان الأموال وهم أحياء ، والعظماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة .

وقد بين الله سبحانه حكمة القصص فقال لأصفى أصفياه صلى الله عليه

وسلم : (( لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب )) ، كما قال تعالى (( وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك )) ، وقال أيضاً : (( فاقصص القصص لعلهم يتفكرون)). وإن أم المؤمنين (( السيدة خديجة الكبرى )) عظيمة من عظيمات آدم وحواء ، خلدت بمجدها منذ عرفت بمكة المكرمة (( بالظاهرة )) أو (( بسيدة نساء قريش )) ، وازدادت فخاراً ومجداً منذ كانت أولى زوجات الرسول الأعظم مولانا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وقد وصلت هى مجدها الذى كان لها قبل زواجه بمجدها الذى جاءها بعد زواجه ، حين خطبته لنفسها بعد أن كانت رفضت الزواج قبله من أكفائها من سادات قريش وأغنيائهم ، حين فقدت زوجها الأولين واحداً بعد الآخر ، وعكفت . رضى الله عنها . على التجارة بأموالها ، وتربية أطفالها اليتامى منهما .

كانت أم المؤمنين عظيمة حقاً فى أن خطبت لنفسها ذلك الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، قبل أن تجيئه الرسالة ، فقد تفرست فيه النبوة ، ونظرت إلى زواجها منه بعين الدين الذى يربطها برب الأرض والسماء ، ولم تنظر إليه بعين الدنيا التى يلحقها الفناء ، فأثرت نعيم الآخرة المقيم ، على نعيم الدنيا الزائل ، ورجت مما سمعت قبل الزواج أن يكون هو النبى المنتظر الذى يحمل آخر الرسالات السماوية وأخلدها على الزمن ، فقد كانت تسمع من ابن عمها (( ورقة بن نوفل )) ذلك المتحنث الذى قرأ التوراة والإنجيل ، تلك البشرى التى أيدها غلامها (( ميسرة )) بمشاهداته

الخارقة فى رحلته إلى الشام وعودته منها فى أمر أمينها الذى استأجرته وائتمنته على تجارتها حين سمعت بصدقه وأمانته ، فأرسلت تستأجره وقالت له :

(( دعانى إلى البعثة إليك ما بلغنى من صدق حديثك ، وعظم أمانتك وكرم أخلاقك ، وسأعطيك ضعف ما أعطى رجلا آخر من قومك )) .

ولقد أخبر الأمين صلى الله عليه وسلم عمه أبا طالب بما قالت ، فقال له عمه : يا محمد ! هَذَا رِزْقُ سَاقِهِ اللهُ إِلَيْكَ .

ولو كشف لأبى طالب ما هيأته الأقدار للسيدة خديجة بهذه الإجارة من سعادة الدنيا والدين ، لقال لابن أخيه : هذا رِزْقُ سَاقِهِ اللهُ لَخَدِيجَةَ ! ! .

وكانت أم المؤمنين عظيمة حقاً ، حين أعانت زوجها . صلى الله عليه وسلم . على عبادته فى خلوته الليلية نوات العدد بغار " حراء " بعيداً عن المجتمع الفاسد الذى سفهت نفوس أهله حين نحتوا الأصنام وعبدوها من دون الله ، وهى أحجار لا تضر ولا تنفع .

وكانت أم المؤمنين عظيمة حقاً فى ثباتها وتشببها حين جاءها زوجها مرعوب الفؤاد وقال لها :

(( اقرأ باسم ربك الذى خلق \* خلق الإنسان من علق \* اقرأ وربك الأكرم \* الذى علم بالقلم \* علم الإنسان ما لم يعلم ) .

فقال في ثبات وتثبيت :

(( الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا بن عم وأثبت ، فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة )) .

يا للعقل الكبير ، والقلب المنير ، ويا للنور الذى ينبعث قوياً من وراء الستور ، فيظهر المحجوب أمراً واقعاً بنور الله الذى أودعه القلوب ونور به البصائر (( نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء )) .

وكانت أم المؤمنين عظيمة حقاً حين انحازت مع زوجها إلى شعب أبى طالب ، فصبرت على الحصار الذى فرضته قريش وهى ظالمة على صاحب الرسالة العظمى ، وكان يشرفهم الانتماء إليها ، وبهذا الصبر الجميل استلانت أم المؤمنين ما استوعره المترفون وأنست بما استوحش منه الغافلون ، ومن صبر فى الله فقد بقى بالله .

وكانت أم المؤمنين عظيمة حقاً حين قالت : (( الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام )) وذلك حين جاء جبريل . فيما روى البخارى بسنده . فقال : يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتت معها إناء

فيه إدام<sup>١</sup> فإذا هي أنتك فاقراً عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببيت في الجنة من قصب<sup>٢</sup> لا صخب فيه ولا نصب ، فقال صلى الله عليه وسلم : (( يا خديجة ؛ هذا جبريل يقرئك السلام من ربك )) فأجابت بما تقدم .

قالوا : وإنما بشرها ببيت من قصب لأنها حازت قصب السبق في الإيمان ، و (( لا صخب فيه ولا نصب )) لأنها لم ترفع صوتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تتعبه يوماً من الدهر ، فلم تصخب عليه يوماً ، ولا آذته أبداً .

وإلى كل مؤمن ومؤمنة أقدم الكتاب ليروا في سيدتنا الأولى أم المؤمنين (( خديجة الكبرى )) ، وفي ذريتها الأولين منها والآخرين ، المثل الأعلى في شئون الدنيا والدين . فقد صبروا على الطاعات فلم يتهاونوا فيها ، وصبروا على السيئات فلم يجترحوها ، وصبروا عند البلاء ومر القضاء فلم يجزعوا ، وشكروا في الرخاء فلم يكفروا النعمة ، بل أنفقوا الأموال في سبيل الله طيبة بها نفوسهم ، وأرادوا بذلك كله مرضاة الله ، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون .

والشكر للمصديق " أحمد أبو شقرة " الذي حملنى على تأليف الكتاب ، ثم تحمل نفقات طبعه ابتغاء وجه الله ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

<sup>١</sup> - طعام أو شراب .  
<sup>٢</sup> - القصب : اللؤلؤ .

فليقرأ المؤمنون والمؤمنات ذلك الكتاب ، ويشموا فيه قطرات عطرة من سيرة آبائهم وأمهاتهم ، أولئك الآباء الذين أعلى قدرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قمتهم ، وتلك الأمهات اللائى شرفتهن أم المؤمنين خديجة الكبرى بزعامتها وولادتها ورضاعتها ، فسينقلهم الكتاب إلى أزمنة خلت ، جاهد فيها أولئك الآباء والأمهات الجهاد الأغر فى الحفاظ على دعوة الإسلام بالنفس والنفيس ، وبذلوا الأرواح رخيصة فى ذلك الحفاظ .

فإن نحن قدرنا لهم جهادهم ، ووقفنا على مدى تضحياتهم الكبرى ، وجب أن نعتز بهذا الدين ولا نفرط فيه ، فقد وصلنا مذللاً بعد عنف قاساه أسلافنا الصالحون فى الاحتفاظ به والدعوة إليه ، فكم حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكم حارب ، وكم استشهد صناديد من أهل بيته فى صدر الإسلام وفيما بعده ، وكم أسروا . وكم قتلوا وصلبوا ، وكم شردوا فى المشارق والمغرب وهم مستمسكون بالحق يحيون به ، ويعيشون له حتى جاءهم نصر الله وهم غالبون .

وإسلام بالمسلمين ، لأنهم أعضاؤه ، وعليهم نشر فضائله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى تتوحد كلمتهم ويكونوا يداً واحدة على أعدائهم ، فالاتحاد قوة ، والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب ، ويد الله مع الجماعة .

ويرحم الله فيلسوف الإسلام الباكستانى الكبير " السيد محمد إقبال "

طيب الله ثراه ، إذ ينصح الشاب المسلم أن يكون حركة دائبة فى خدمة دينه وقومه ، فيقول  
فيما ترجمه عنه إلى العربية صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان :

أعد من مشرق التوحيد نوراً يتم به اتحاد العالمينا  
وأنت العطر فى روض المعالى فكيف تعيش محتسباً دينا  
وأنت نسيمه فاحمل شذاه ولا تحمل غبار الخاملينا  
وأرسل شعلة الإيمان شمساً وصغ من ذرة جبال حصينا  
وكن فى قمة الطوفان موجاً ومزناً<sup>١</sup> يمطر الغيث الهتوناً<sup>٢</sup>

ولا يظن القارىء أو القارئة ، أننا أطلنا الكلام غير سيرة أم المؤمنين " خديجة الكبرى " ، فإنما  
تاريخ اهل الكساء<sup>٣</sup> متصل بها اتصالاً وثيقاً ، فهى الأم الكبرى لهم جميعاً ، وقد شاء الله  
أن يصون ذرية الرسول صلى الله عليه وسلم منها ، وكانت الصيانة الباقية فى عقب أبنيتها  
فاطمة الزهراء ، تلك التى لم تنجب أنثى غيرها أمثال ذريتها من الشهداء ، فهى أم الشهداء ،  
وهى بنت خديجة الكبرى ، والفرع مرجعه إلى الأصل الأشم .

ولا يستطيع القارىء أو القارئة أن يتبين لماذا انتسب آل البيت من العلويين للسيدة الزهراء  
وسموا أنفسهم فاطميين ، وعدلوا عن الانتساب

<sup>١</sup> المزن : السحاب .

<sup>٢</sup> الغزير .

<sup>٣</sup> فاطمة وعلى والحسن والحسين رضى الله عنهم .

لأبيهم الإمام على دون الوقوف فى اختصار على حلقات التاريخ الآخذ بعضها برقاب بعض ، ولو أنى تخطيت إحدى الحلقات ، ما ضمنت أن يكون القارىء أو القارئ ممن ألموا بتاريخ تلك الأحقاب قبل ذلك ، فيشق عليه أن يربط المسائل بعضها ببعض .

كذلك لو لم نبين تلك الحلقات ما تكشف أسباب اضطهاد العباسيين للعلويين ، وليعجب القارىء من أن يلقى العلويين الاضطهد من الأمويين أولاً ، ثم العباسيين ثانياً ، وهم من آل البيت وأبناء عمومتهم ، وهم الذين ثأروا بقوة للإمام الحسين من الأمويين قاتليه . ولعل القارىء يسأل نفسه لماذا خرج من خرج من العلويين على أبناء عمومتهم الخلفاء العباسيين إذا لم يعلم أن العلويين كانوا يتمسكون بحقهم فى الخلافة ، لا باعتبارهم أبناء الإمام على فحسب ، بل باعتبار أنهم أبناء فاطمة الزهراء ، وهى أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يوازىهم فى شرف الانتساب إليها العباسيون ، وإن كانوا أبناء العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم .

كما أنه كان لا بد لى أن أتعرض لموقف العباس من بيعة الإمام على ، ومن موقف ابن عباس أيام حياة السبطين الحسن والحسين ، مما يسقط حجة العباسيين فى أنهم كانوا أحق بالخلافة من العلويين ، فليعذرنى القارىء الكريم إذا اقتضى كل ذلك منا الدخول فى هذه التفاصيل .

فإن كان ممن قرءوها ففي إعادتها تذكرة ، وإن لم يكن ممن قرءوها فقد ألم بجديد فى تاريخ الإسلام والمسلمين .

وأسترعى النظر إلى ما بينه الإمام على وأبناؤه من بعده . رضى الله عنهم أجمعين . فقد قال كرم الله وجهه : إن طلبهم للخلافة لم يكن منهم منافسة فى سلطان ، ولا التماس شىء من فضول الحطام ، ولكن ليردوا المعالم من دين الله ، ويظهروا الإصلاح فى بلاد الله فىأمن المظلومون من عباد الله ، وتقام المعطلة من حدود الله .

وآمل أن ينفع الله بالكتاب من يطلع عليه ، وأن يعتز كل مسلم ومسلمة بدينه ويرضى ربه فيه ، ويقول مع أسلافه الصالحين (( ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف المعاد )) .

المؤلف

١٢ ربيع الأول ١٣٨٩ هـ .

حسن كامل المطاوى

الأربعاء :

٢٨ مايو ١٩٦٩ م .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ورضى الله عن آله المطهرين من أزواجه المحسنات ، وعن أصحابه المتقين ، وعن التابعين وتابعي التابعين المباركين ، وعن والاهم بإحسان إلى يوم الدين ، وعن شيوخنا الأجلاء أجمعين .

وبعد :

فقد اصطفى سبحانه وتعالى مولانا محمد لأعظم الرسالات ، وأعمها دعوة وأبقاها على الزمن ، وهياً لحمل عبئها الكبير ، ورعاه جل وعلا برعايته في أطوار حياته كلها ، فأواه في يتمه ، ويسر له رزقه من حلال ، وهداه إلى الصراط المستقيم ، ورضى له ولأمة الإسلام ديناً ، وعلمه من لدنه تعالى ما لم يكن يعلم ، وأغناه بعلمه القدسي عن تعليم البشر ، وهو الأمل الذي لم يخط بالقلم أي مكتوب ، وجعله مصدراً لعلم العلماء الكاتبين والقارئين ، حتى قيس تفاضلهم بين الناس بمدى ما علموه من علمه

الذى زكى العقول وأنار القلوب وهذب الأرواح وأرشد البصائر ، صلوات الله وسلامه عليه أبدي الأبد .

ومن رعاية الله العلية أنه صلى الله عليه وسلم تزوج فى شبابه الباكر بأولى المؤمنات من السيدات ، وكان زواجه بها سابقاً على تكليفه بالرسالة ، وكانت ثيباً تزوجت قبله مرتين ، وكانت فى سن الأربعين وهو فى الخامسة والعشرين ، وهى أم المؤمنين سيدتنا خديجة الكبرى التى يتحدث عنها ذلك الكتاب ، الذى ألقته بفضل الأخ المؤمن الصالح السيد أحمد أبو شقرة حيث طلب إلى تأليفه ، وقام بطبعه على نفقته وتولى توزيعه هدية دون ثمن ، وقد قال لى عندما طلب إلى تأليفه : إن كل مؤمن ومؤمنة منذ قام الإسلام وإلى يوم القيامة مدين للسيدة خديجة بفضلها ، حيث آزرت ، رضى الله عنها ، مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بكل ما ملكها الله تعالى من طهر وعفاف ورشد ومال ويقين بالله .

والأخ الفاضل السيد / أحمد أبو شقرة على حق فيما قال ، وكيف لا وقد شهد لها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : إنها آمنت بى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس . وقد كانت رضى الله عنها أولى زوجاته الطاهرات وأطولهن عشرة له صلوات الله وسلامه عليه ، والناظر فى كتاب الله الكريم يرى أن الله تعالى خصه

صلى الله عليه وسلم بأعف الزوجات وأتقاهن ، فقد خاطبهن سبحانه خطاباً مباشراً دلنا به على فضلهن وكرامتهن وطهارتهن وإحسانهن عند الله الذى يعلم السر وأخفى

فلنتأمل مثلاً فى قوله تعالى فى سورة الأحزاب (( يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً . ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً . يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن أتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً . وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً . واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً )) ويرى القارىء العزيز فى هذه الآيات الكريمة مدى فضلهن ، لأن الذنب منهن أقبح لزيادة فضلهن ، وكذلك زيادة الأجر تدل على زيادة الفضل . وما أشرفنا نحن المؤمنين بقوله تعالى فى سورة الأحزاب ذلك : ( النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ) صلوات الله وسلامه عليه ورضى الله عنهن أجمعين

هذا وقد تهافت المؤمنون على قراءة هذا الكتاب ، ونفدت الطبعة الأولى وكانت سبعة آلاف نسخة ، فاستأذنى الأخ الصالح التقى المهندس

سيد خليفة فى طبعه طبعة ثانية وعلى نفقته ، ليقدمه هدية كذلك للراغبين فى قراءته ، فأذنت له إذناً مقروناً بالشكر والدعاء الخالص له ولأخ الفاضل السيد / أحمد أبو شقرة ، ولكل مؤمن أخلص فى دينه وفى محبته لآل البيت الأطهار ، وما أرق ما يقول سيدى الإمام محيى الدين بن عربى رضى الله عنه :

أرى حب أهل البيت فريضة

على رغم أهل البعد يورثنى القربا

فما اختار خير الخلق منا جزاءه

على هديه إلا المودة فى القربى

وهو يشير إلى قوله تعالى فى سورة الشورى : ( قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور ) كما يشير إلى هذا القول الكريم إمامنا الشافعى عنه فى قوله :

يا آل بيت رسول الله حبكمو

فرض من الله فى القرآن أنزله

يكفيكمو من عظيم القدر أنكمو

من لم يصل عليكم لا صلاة له

وصدق الفرزدق رحمه الله إذ يقول :

إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم

أو قيل من خير أهل الأرض قيل همو

وختاماً أدعو للسلف الصالح بما علمنا الله تعالى في سورة الحشر ( ربنا اغفر لنا ولإخواننا  
الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤف رحيم ) آمين .

المؤلف

حسن كامل المطاوى

١١ صفر ١٣٩٩ هـ

وكيل وزارة الخزانة السابق

١٠ يناير ١٩٧٩ م

### بسم الله الرحمن الرحيم

كانت أم المؤمنين السيدة خديجة الكبرى أولى زوجاته الطاهرات اللاتي اختارهن الله له ، وميزهن بأعلى الصفات من الأخلاق والتقوى ، وخاطبهن خطابه الخالد الذي أثبت لهن ذلك الشرف بقوله الكريم : ( ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً ) .

ولما كانت هي أولى الزوجات ، فقد عاشرتة خمسة عشر عاماً قبل نبوته ، وكان صلى الله عليه وسلم في سن الخامسة والعشرين عند زواجه منها ، وكانت هي في سن الأربعين . وقد عاشت كل حياتها في مكة المكرمة ، ثوى جثمانها الطاهر في أرضها الطيبة ، ولم يكن لها في حياتها الزوجية ضرائر تعكر عليها صفوة الحياة .

وحيث كانت هي أولى زوجاته ، لم يكن هو أول زوج لها ، بل كانت قد تزوجت قبله صلى الله عليه وسلم من رجلين ماتا واحداً بعد الآخر ، كما سيأتى في تفصيل أمرها .  
وشاء الله أن يكون له منها كل أولاده من البنين الطاهرين والبنات الطاهرات ، إلا إبراهيم فإنه كان من السيدة مارية .

وحيث فقدت زوجها الأولين واحداً بعد واحد تقدم لزوجها أغنياء القوم وأشرافهم من قريش ، حيث كانت ذات شرف ومال ، فأبت أن تتزوج ، ولعلها كانت عازفة عن الزواج متسلية عنه بأطفالها اليتامى

الصغار ، فقد أعقبت من أولهما . وهو أبو هالة بن زرارة التميمي . هندا الصحابي ، الفصيح البليغ الوصاف ، الذي كان يتحدث بنعمة ربه عليه ، فيقول : أنا أكرم الناس أباً وأماً وأخاً وأختاً ، أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ( أبوه من الحجر ) ، وأمي خديجة ، وأخي القاسم ، وأختي فاطمة ( أختة من الأم ) . وقيل أنه قتل في واقعة الجمل حيث كان يقاتل في صف الإمام علي ، وقيل : مات بالطاعون في البصرة . وأعقبت له السيدة خديجة كذلك هالة بن أبي هالة ، الصحابي .

ولما مات زوجها الأول ذاك تزوجها عتيق بن عابد المخزومي ، فولدت له بنتاً تسما هنداً ، وقد أسلمت ولها صحبة برسول الله صلى الله عليه وسلم .

لم تكن السيدة خديجة إذن تعلم ما خبأته لها المقادير من سعادة أبدية في دينها ودنياها ، وأنها ستكون زوجاً لأعظم رسول عرفه أهل السموات والأرض ، وسيكون لها منه بنون وبنات ، وأنها ستكون أما لهم ولذريتهم ، بل ولبلالين آخرين من المؤمنين والمؤمنات ، ولكن هكذا قدر الله وما شاء فعل ، والإسعاد إعطاء ، كما يقول الحكماء .

وقد وصفت أسعد الزوجات ، زوجها العظيم ، حين جاءه الوحي أول مرة ، فجاءها مرعوب الفؤاد ، وقال لها زميني ، زميني ، فقالت قولتها التي دلت على رشدتها وأمانتها ونور بصيرتها : (( الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت ، فو الذي نفس خديجة بيده إنني لأرجو أن تكون

نبي هذه الأمة ، والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقري الضعيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث ، وتؤدي الأمانة )) .  
كان هذا وصفها لزوجها قبل أن تأتيه الرسالة ، التي هياها الله لها وغير بها مجرى التاريخ.  
أما كيف وصف مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمنا الكبرى خديجة بعد أن كان عاشرها ربع قرن من الزمان ، فإنه توجهها بتاج العز والكرامة حين قال :  
(( والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي حين كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها<sup>١</sup> من النساء )) .  
فيا روعة الصورة التي رسمها كل من الزوجين لزوجهم بعد نضوج السن والتجربة الطويلة المدى ، ويا لصدق التصوير الذي أكدته الأيام وسجله التاريخ تسجيلًا غير مكتوب .  
أما كيف ربط الله بالزواج بين الطرفين ، مع تفاوت بين الزوج الشاب والأرملة الشبيخة ، فأليك ما كانت طوته الأقدار في غيبها ، ثم كشفت عنه مفصلاً في حينه :

<sup>١</sup> رزقه الله إبراهيم من السيدة مارية ولكنه مات صغيراً ، فكانت نريته الطاهرة من السيدة خديجة .

على مثنوى الندى والنور أقبل      وقبل تربيه وانشق أريجه  
 حوى من أنجبت زهر البرايا      ولى من حبهم قربي وشيجه  
 ومن كانت لخير الخلق رداءً      يرى بجوارها الدنيا بهيجه  
 تحيات الولاء مباركات      أقدمها لمولاتى خديجة<sup>١</sup>

شرف الناس عامة وقريش خاصة :

ذهب عبد المطلب على رأس وفد من قريش إلى صنعاء لتهنئة ملك اليمن سيف بن ذى يزن بنصره على الحبشة ، فاحتفى سيف بن ذى يزن بعبد المطلب فأدنى مجلسه واختلى به وقال له :

يا عبد المطلب إنى مفض إليك من سر علمى ما لو يكون غيرك لم أبح به ، ولكنى رأيتك معدنه فأطلعتك عليه ، فليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه ، فإن الله بالغ أمره .  
 إنى أجد فى الكتاب المكنون ، والعلم المخزون ، الذى اخترناه لأنفسنا ، واحتجبناه دون غيرنا ، خبراً عظيماً ، وخطراً جسيماً ، فيه شرف الحياة للناس عامة ، ولرھطك كافة ، ولك خاصة .

فقال عبد المطلب : أيها الملك مثلك سر وبر فما هو ؟ فداؤك أهل الوبر زمراً بعد زمر .  
 قال الملك : إذا ولد بتهامة ، غلام به علامة ، بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة ، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة .

<sup>١</sup> من شعر الصديق الأديب الأستاذ محمد جاد الرب .

قال عبد المطلب : أبيت اللعن ، لقد أبت بخير ما آب به وافد ، ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من بشارته إياي ما أزداد به سروراً .

قال ابن ذى يزن : هذا حينه الذى يولد فيه أو قد ولد ، اسمه محمد ، يموت أبوه وأمه ، ويكفله جده وعمه ، ولدناه مراراً ، والله باعته جهاراً ، وجاعل له منا أنصاراً ، يعز بهم أوليائه ، ويذل بهم أعداءه ، ويضرب بهم الناس عن عرض ، ويستبيح بهم كرائم الأرض ، بكسر الأوثان ، ويخمد النيران ، يعبد الرحمن ، ويدحر الشيطان ، قوله فصل ، وحكمه عدل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله .

عبد المطلب يسجد شكراً :

وأضاف ابن ذى يزن قائلاً : والبيت ذى الحجب ، إنك يا عبد المطلب جده غير كذب .  
فخر عبد المطلب ساجداً ، فقال ابن ذى يزن : ارفع رأسك ، ثلج صدرك ، وعلا أمرك ، فهل أحسست شيئاً مما ذكرت لك ؟

تصديق البشرى :

فقال عبد المطلب : أيها الملك ، كان لى ابن ، وكنت به معجباً وعليه رفيقاً ، فزوجته كريمة من كرائم قومه آمنة بنت وهب ، فجاءت بغلام سميته محمداً ، فمات أبوه وأمه ، وكفلته أنا وعمه .

### الوصية بالوليد السعيد :

فقال ابن ذى يزن : إن الذى قلت لك كما قلت ، فاحتفظ بابنك ، واحذر عليه اليهود ، فإنهم له أعداء ، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا ، واطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فإنى لست آمن أن تدخل لهم النفسة من أن تكون لكم الرياسة ، فيطلبون له الغوائل ، وينصبون له الحوائل ، فهم فاعلون أو أبناؤهم .

ولولا أنى أعلم أن الموت مجتاحى قبل مبعثه لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير بيثرب دار مملكته ، فإنى أجد فى الكتاب الناطق ، والعلم السابق ، أن بيثرب استحكام أمره وأهل نصرته وموضع قبره ، ولولا أنى أقيه الآفات ، وأحذر عليه العاهات لأعلنت فى حداثة سنه أمره ، ولأوطأت أسنان العرب عقبه <sup>١</sup> ، ولكنى صارف ذلك إليك ، عن غير تقصير بمن معك .

### هيات الملك :

قال عبد المطلب : ثم أمر ابن ذى يزن لكل من كان معى بعشرة أعبد وعشرة إماء وبمائة من الإبل وحلتين من البرود وبخمسة أرطال من الذهب وعشرة أرطال فضة وكرش <sup>٢</sup> مملوء عنبر .

<sup>١</sup> أخضعت له أعداءه .

<sup>٢</sup> الكرش من الحيوان المجتر يقابل المعدة فى الإنسان .

قالوا : وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك وقال له : إذا حال الحول فائتني ، فمات ابن ذى يزن قبل أن يحول الحول .

### السعادة الخالدة :

وقالوا : فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول : يا معشر قريش ، لا يغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك وإن كثر ، فإنه إلى نفاذ ، ولكن ليغبطنى مما يبقى ولعقبى من بعدى ذكره وفخره وشرفه .

فإذا قيل له متى ذلك ؟ قال سيعلم ولو بعد حين .

### عبد المطلب يرى عجياً :

وكان عبد المطلب قد رأى من أمر حفيده عجياً قبل أن يفضى إليه سيف ابن ذى يزن بسرره الذى تقدم ، فقد جاء . فيما رواه ابن إسحق . أن السيدة آمنة حين وضعته أرسلت إلى جده عبد المطلب ، فلما جاءها رأى سحابة قد أظلت حجرتها ، فجعل يمسح عينيه ويقول : أنا نائم أم يقظان ؟ فلما فتحوا له الباب إذا المسك يفوح من حجرتها فاستخبرها ، فقالت : يا أبا الحارث ولد لك مولود له أمر عجيب ، فذعر عبد المطلب وقال : أليس بشراً سويماً ؟ فقالت : نعم ، ولكن سقط ساجداً ثم رفع رأسه وسبابته إلى السماء ، فقال عبد المطلب : دعيني أنظر إليه ، فلما دخل أخذه إلى الكعبة ، وقام فشكر الله على إنعامه وعوده ودعا له ، وأنشد وهو يطوف به الكعبة :

الحمد لله الذى أعطانى      هذا الغلام الطيب الأردن<sup>١</sup>  
 قد ساد فى المهدي على الغلمان      أعيدته بالبيت ذى الأركان  
 من حاسد مضطرب العيان      حتى أراه بالغ البنيان  
 ويشير الإمام البوصيرى ، رضى الله عنه ، إلى رفع الرأس للسماء فيقول فى همزيته :  
 وتوالت بشرى الهواتف أن قد      ولد المصطفى وحق الهناء  
 يوم نالت بوضعه ابنة وهب      من فخار ما لم تنله النساء  
 رافعاً رأسه وفى ذلك الرفع إلى كل سودد إيماء  
 رافعاً طرفه السماء و مرمى      عين من شأنه العلو العلاء

#### عيد المطلب يطعم أهل الحرم :

وذبح عيد المطلب الذبائح وأطعم أهل الحرم ، بل وسباع الطير ، ووحش الفلاة .

#### أهل مكة يستبشرون :

وكانت مكة حين استقبلت بشرى المولود المبارك ما تزال تحتفل بفرحة نصرها على أهل الفيل ،  
 فربطت بين عيد ميلاده وذلك النصر العزيز ، وقد قال ابن عباس : إن المولد كان يوم الفيل<sup>٢</sup>

<sup>١</sup> الأردن واحدها رذن كركن وهى الأكام ، وطيبها كناية عن طيب أخلاقه وكمالها ، صلى الله عليه وسلم .  
<sup>٢</sup> وكان المولد المبارك فجر يوم الإثنين ١٢ من ربيع الأول ( أبريل ٥٧١ م ) .

وهز ذلك النصر الحاسم الذى تم لأهل مكة على عشرات الآلاف من الأعداء الشعراء فأنشدوا :

فتنكلوا عن بطن مكة إنها كانت قديما لا يرام حريمها  
سائل أمير الجيش عنها ما رأى ولسوف ينبى الجاهلين عليمها  
ستون ألفا لم يؤوبوا أروضهم بل لم يعش بعد الإياب سقيمها

ويرحم الله أمير الشعراء " شوقى " إذ يقول فى همزيتة :

يوم يتيه على الزمان صباحه و مساؤه بمحمد و ضاء

والآى تترى والخوارق جمّة جبريل رواح بها غداء

وأبلغ من قول الشعراء قول الله تعالى فى سورة الفيل : (( ألم ترى كيف فعل ربك بأصحاب  
الفيل \* ألم يجعل كيدهم فى تضليل \* وأرسل عليهم طيراً أبابيل \* ترميهم بحجارة من سجيل  
\* فجعلهم كعصف مأكول )) .

تسمية الوليد :

وسمى الوليد " محمداً " ولم يفت قريشاً أن تسأل شيخها عبد المطلب ، لم سمى حفيده  
محمداً على غير عادة آبائه الذين لم يكن ذلك الاسم شائعاً بينهم ، فأجابهم عبد المطلب :  
أردت أن يكون محموداً فى الأرض وفى السماء .

سعد وحلم :

وقد استقبل عبد المطلب " حليلة السعدية " حين جاءت تأخذ حفيده لترضعه فى بنى سعد ،  
حيث كانت شريفات قريش تدفعن بأولادهن إلى البادية لتصح أجسادهم وتفصح ألسنتهم ،  
فقال لها : من أنت ؟ فقالت :

امرأة من بنى سعد ، قال : ما اسمك ؟ قالت : حليلة ، فتبسم وقال : بخ بخ ، سعد وحلم ،  
خصلتان فيهما خير الدهر وعز الأبد .

#### حليلة ونور الوليد :

وتحكى حليلة أنها حين وضعت يدها على صدر الوليد الرضيع ، تبسم ضاحكاً وفتح عينيه  
ونظر إليها ، وخرج من عينيه نور حتى دخل خلال السماء ، قالت : وأنا أنظر إليه فقبلته بين  
عينيه وأعطيته ثديي الأيمن فأقبل عليه بما شاء من لبن ، فحولته إلى الأيسر فأبى ، وكانت  
تلك حاله بعد .

#### بركات الوليد :

وأضافت حليلة تقول : فروى ، ثم روى أخوه ( أى من الرضاع ، وقد اعطته الثدي الأيسر )  
ثم أخذته فما هو إلا أن جئت به رحلى ، وقام زوجى على شارفنا<sup>١</sup> من الليل فإذا بها حافل<sup>٢</sup>  
، فحلب ما شرب وشربت حتى رويانا ، وبتنا بخير ليلة ، فقال صاحبي ( زوجها ) : يا حليلة  
والله إنى لأراك قد أخذت نسمة مباركة ، ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين  
أخذناه ، فلم يزل الله يزيدنا خيراً .

وكانت حليلة ترقص ذلك الوليد الذى باركها وتقول :

<sup>١</sup> الشارف : الناقة المسنة .  
<sup>٢</sup> أى : ممتلئة الضرع باللبن .

يا رب إذ أعطيته فأبقه وأعله إلى العلا وأرقه

وادحض أباطيل العدا بحقه

وحق حليلة أن تقول ذلك بعد ان لمست بركته لمساً لا شبهة فيه ، فهي التي روت فقالت :  
 قدمنا منازل بنى سعد ولا أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها ، فكانت غنمى تروح على  
 حين قدمنا شباعاً لبناً فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها فى ضرع حتى  
 كان الحاضر من قومنا يقول لرعاتهم : ويلكم ! ألا تسرحون حيث يسرح راعى حليلة؟!  
 فيسرحون فى الشعب الذى يسرح فيه ، فتروح أغنامهم جياعاً ما بها لبن وتروح غنمى لبناً  
 ، فلم يزل الله يرينا البركة ، ونتعرفها ببركته صلى الله عليه وسلم .

كما قالت حليلة :

وألقى الله محبته فى القلوب حتى إن أحدهم إذا نزل به أذى فى جسده ، أخذ كفه صلى الله  
 عليه وسلم فيضعها على موضع الأذى ، فيبرأ بإذن الله تعالى . وكذلك إذا اعتل لهم بعير أو  
 شاة أو فرس فيأخذون بيده صلى الله عليه وسلم فيمرون بها على موضع الأذى منه ، أو  
 عليه كله ، فيبرأ بإذن الله عز وجل . ولقد كان يمس ضرع الشاة

للقوم فتحلب غبوقاً<sup>١</sup> وصبوحاً<sup>٢</sup> . قالت : وما على وجه الأرض شيء تأكله دابة ، وانبت الله ببركته صلى الله عليه وسلم العشب فاعشب الوادى .  
وكانت الشيماء ، ويقال لها أيضاً الشماء ( وهى ابنة مرضعته حليلة ) تحضن الوليد المبارك وترقصه وتقول :

هذا أخ لى لم تلده أُمى  
فديته من مخول<sup>٣</sup> معم<sup>٤</sup>  
وليس من نسل أبى وعمى  
فأنمه اللهم فيما تنمى  
كما كانت تقول أيضاً :

يا ربنا أبق أخى محمداً  
ثم أراه سيداً مسوداً  
حتى أراه يافعاً وأمرداً  
واكبت أعاديه معاً والحسد  
وأعطه عزاً يدوم أبداً

#### السيدة خديجة تتاجر بأموالها :

ولئن كان عبد المطلب قد رأى عند ميلاد حفيده ما رأى ، وسمع عن شأنه من " سيف بن ذى يزن " ما سمع ؛ فإن السيدة خديجة بنت خويلد ابن أسد بن عبد العزى بن قصى لم تكن تدرى شيئاً من الذى رأى

<sup>١</sup> غبوق : ما يشرب بالعشى .  
<sup>٢</sup> صبوح : ما يشرب فى الصبح .  
<sup>٣</sup> مخول : كريم الأخوال .  
<sup>٤</sup> معم : كريم الأعمام .

أو سمع عبد المطلب ، ولم تكن تكشف ما خبأه لها القدر في أستارغيبه من سعادة في الدنيا والدين تأتيها على يد ذلك الوليد الذي غير الله به مجرى التاريخ .  
 وحين أشرقت على الدنيا أنوار ذلك الوليد كانت الفتاة " خديجة " حسناء في سن الزواج . وقد انضاف إلى حسنها وجمالها ، عراقة الحسب والنسب ، فتزوجت من " عتيق المخزومي " ، فمات تاركاً لها بنتاً ومالا . وتزوجت من بعده " أبا هالة التميمي " <sup>١</sup> وترك لها طفلين .  
 فزواج السيدة خديجة الحسنة لم يدم إلا بضعة أعوام ، عاشت بعدها ترعى بنيتها الصبية الأيتام ، متسلية بهم عن الزوجين الذين فقدتهما واحداً بعد واحد . ورأت ألا تدع مالها عاطلاً حتى لا ينفد من نفقات المعيشة ، فتاجرت فيه وهي محتجة في بيتها . فكانت تستأجر رجالاً يعملون في التجارة لحسابها لقاء أجر ويكون لها ربح التجارة وللأجراء أجر العمل .

#### بحري الراهب وعلامات النبوة :

مات عبد المطلب وكان يكفل حفيدة المختار لأعظم رسالة ؛ فتولى كفالته عمه " أبو طالب " ، سيد البطحاء وعظيم المشيخة من قريش بعد عبد المطلب الذي أوصاه بالحفيد خيراً .  
 وبدافع تلك الوصية والإشفاق على ابن أخيه اليتيم الذي فقد أباه وهو

<sup>١</sup> هناك خلاف في أيهما كان الزوج الأول .

حمل فى بطن أمه ، رعى أبو طالب ابن أخيه الشقيق صبياً ويافعاً ؛ فسرره أن يراه سريع النمو فى جسده وعقله ورشده ، فزاد حباً له ، وتعلقاً به ، وأنساً بصحبته ، وحرصاً على شعوره .

و ذات يوم تهيأ أبو طالب للسفر إلى الشام فى ركب للتجارة ، فتعلق به ابن أخيه الناشئ ، فرق له أبو طالب وقال : والله لأخرجن به معى ولا أفارقه أبداً .

فلما نزل الركب بصرى<sup>١</sup> من أرض الشام ، استضاف بحيرى الراهب ركب أبى طالب ، وأخذ يلحظ النشئ المختار لحظاً شديداً ، وينظر إلى أشياء من جسده كان بحيرى يجدها فى كتب الأقدمين من صفته ، حتى إذا فرغ الضيوف من طعامهم قال بحيرى للمختار :

يا غلام أسألك بحق الات والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ، فقال سلنى عما بدا لك . وكان ذلك الحوار بداية النجاح فى اختبار بحيرى للمختار .

ثم استطرد بحيرى يسأله الأسئلة الآتية :

أتحب العزلة ؟ قال نعم .

<sup>١</sup> بصرى هى مدينة حوران ، وقد فتحها المسلمون صلحا سنة ١٣ هـ ، وهى أول مدينة فتحت فى الشام .

أتلعب مع الغلمان كما يلعبون ؟ قال كلا .

أترى فى نومك رأى تصدق فى يقظتك ؟ قال نعم .

وقد وافقت الإجابات كلها ما عند البحيرى من العلم ، فقال له أسمح أن أرى ما بين كتفيك ، فأجاب : أفعل ما تريد . فنظر بحيرى إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على صفته المكتوبه فى كتب الأولين ( وخاتم النبوة كان كالتفاحة أو بيضة الحمامة عند غضروف الكتف الأيسر وكان من العلامات التى يعرفه بها علماء الكتب السابقة ) .

ثم سأل بحيرى عمه أبا طالب : ما هذا الغلام منك ؟ فقال : ابنى . قال له بحيرى : ما هو بابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً . قال فإنه ابن أختى . قال : فما فعل أبوه ؟ قال مات وأمه حبلى به ، قال : صدقت ، فارجع بابن أختك إلى بلدك واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبيغنه شراً ؛ فإنه كائن لابن أختك هذا شأن عظيم نجده فى كتبنا ، وما روينا عن آبائنا ، فأسرع به إلى بلاده .

فرجع أبو طالب بابن أخيه سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام وازداد به عناية وله رعاية .

ولكن قدر الله أن يعصم حبيبه المختار من كيد الناس وشرهم ، فلا يستطيع أحد من اليهود أو غيرهم أن يصلوا إليه بسوء . فشب صلى الله عليه وسلم يكلؤه الله بحفظه ، ويحميه بحمايته ، وتمت نعمته عليه ؛ فحل بأكمل الأخلاق ، وأصدق الحديث ، وأعظ الأمانة ، وأرجح العقل .

فلم يجتمع لواحد من شباب مكة ما اجتمع له من تلك الصالحات ؛ فاشتهر بينهم بالصادق الأمين تمييزاً له عن سواه ، كما لقبته قريش بالزكى ، وبالظاهر النقى .

ويقول إمامنا على كرم الله وجهه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما هممت بقبيح مما هم به أهل الجاهلية حتى أكرمنى الله بالنبوة إلا مرتين من الدهر كلتاها عصمنى الله عز وجل من فعلهما .

قلت لفتى كان معى من قريش بأعلى مكة فى غنم لأهله يرعاها : أبصر لى غنمى حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان . قال : نعم . فلما جئت أدنا دار من مكة سمعت غناء وصوت دفوف ومزامير ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : فلان تزج فلانة . فلهوت بذلك الصوت حتى غلبنى النوم فنمت ، فما أيقظنى إلا مس الشمس .

فرجعت إلى صاحبى فقال ما فعلت فأخبرته ، ثم فعلت فى الليلة الأخرى مثل ذلك .

أبو طالب يقترح :

وما أن بلغ الصادق الأمين الخامسة والعشرين من عمره حتى تم له رشد الشيوخ ، وتجربة الحكماء ، وروية العقلاء . وهذا ما دعا أبو طالب أن يقول له : يا ابن أخى ، أنا رجل لا مال لى ، وقد اشتد الزمان علينا ، وألحت علينا سنون منكرة ، وليس لنا مال ولا تجارة ، وهذه عير

قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالا من قومك يتجرون في مالها  
ويصيبون منافع . فلو جئتها لفضلتك على غيرك ، لما يبلغها عنك من طهارتك وأمانتك ، وإن  
كنت أكره أن تأتي الشام وأخاف عليك اليهود . وقد بلغني أن خديجة استأجرت رجلا بكريين<sup>١</sup> ،  
ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته ، فهل لك في أن أكلمها .  
فكان جواب البار الرشيد : ما أحببت يا عمي .

بين أبي طالب وخديجة :

فسار أبو طالب إلى السيدة خديجة وقال لها : هل لك يا خديجة أن تستأجري محمداً ؟  
فأجابت من فورها المحظوظة المرزوقة رزق الدنيا والدين من فضل الله رب العالمين : لو  
سألت ذلك يا أبا طالب لبعيد بغيض فعلنا ، فكيف وقد سألته للقريب الأمين .  
وأرسلت السيدة خديجة لأمينها تستدعيه للخروج في تجارتها وقالت له : دعاني إلى أن أبعث  
إليك ما بلغني من صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وكرم أخلاقك ، وسأعطيك ضعف ما أعطى  
رجلا آخر من قومك .

فأخبر الأمين عمه أبا طالب بحديثها ، فقال له عمه : يا محمد هذا رزق ساقه الله إليك .

---

<sup>١</sup> جميلين .

ولو كشف لأبى طالب ما أعدت له الأقدار للسيدة خديجة من سعادة الدنيا والدين لقال لابن أخيه : هذا رزق ساقه الله لخديجة وسعادة أبدية طويت لها من وراء حجب الغيب .

### تجارة رابحة :

وتهيأت عير قريش للرحيل إلى الشام ومعهم أمين خديجة وغلماها ميسرة . وما ظنك برحلة طيبة كهذه تجمع لها بين محمد أميناً متبوعاً وميسرة خادماً تابعاً . لقد جمعت بين حمد ويسر ، وهما بداية بشرى للدنيا تتلوها بشرى للدين ، وما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا . اجتازت القافلة الطريق الذى كان الأمين قد اجتازه من قبل فى رحلته السابقة مع عمه أبى طالب ، حتى أتت القافلة بصرى فباع أهل القافلة ، واشتروا ، وقايضوا ، واستبدلوا . وراجت تجارة خديجة رواجاً غير مسبوق فريحت تجارتها على يد أمينها ضعف ما كانت تريح . وسر ميسرة ما رأى من رواج التجارة ، فقد كان وفياً بسيدته ، معجباً بفضلها . وساعد الريح الوفير أن يعود أمين خديجة بقدر من البضاعة لم يخطر لها على بال ؛ ولكنها السعادة المقدره أدنت لها . بإذن الله . البعيد ، وذلك العسير .

### ميسرة يرى عجباً :

وقد شاهد ميسرة فى سفره عجباً . فقد رأى غمامة تظلل الأمين منذ أن غادر مكة فتقيه حرارة الشمس . وما أرق ما قال الشاعر فى تظليل الغمامة للأمين :

لو قال يوماً ظلته غمامة      هى فى الحقيقة تحت ظل القائل<sup>١</sup>

### بين الراهب نسطور وميسرة :

وانضاف إلى ما شاهده ميسرة من أمر الغمامة أن الأمين خلا بنفسه يفكر ، فجلس تحت شجرة عظيمة الساق ، كثيرة الفروع ، وارفة الظلال ؛ وكان ميسرة يعلف الدواب ، فإذا براهب اسمه نسطور كان يعرف ميسرة من قبل يقدم عليه ويسأله : من يصحبك يا ميسرة ؟ أجاب ميسرة : الأمانة ، والنزاهة ، وكرم الخلق ، وجلوسه هكذا الساعات الطوال ، غارقاً فى بحار الفكر فى سبجات العابدين الخاشعين .

فقال نسطور : وما شكل عينيه يا ميسرة ؟

<sup>١</sup> ومعنى (( قال )) فى ذلك البيت أى دخل فى وقت القيلولة . والمراد بالقائل - ألواردة فى آخر البيت - الأمين عليه الصلاة والسلام . والمراد بكونها تحت ظله أنها فى كنفه وستره ومحتاجة لتتبرك به .

أجاب ميسرة : واسع العينين أدعجهما ، تشوب بياضهما من الجوانب حمرة خفيفة ، تزيد في قوة جاذبيتها وذكاء نظرتيها أهداب طوال ، سود حوالك .

فقال نسطور لميسرة وهو يسير إلى حيث يجلس الأمين : يا ميسرة إن من يجلس بجوار هذه الشجرة ، وتظله هذه الغمامة المنخفضة وصفاته كما تصف ، ليس إلا نبياً . فزاد ميسرة بأمين سيدته إعجاباً فوق إعجاب ، وإجلالاً فوق إجلال .

وتقدم نسطور إلى الأمين صلى الله عليه وسلم يحادثه في دين قومه بمكة فرآه كارهاً ما هم عليه من عبادة الأوثان ، فزاد نسطور وثوقاً في نبوة الأمين .

ثم قال له : يا محمد قد عرفت فيك العلامات كلها خلا خصلة واحدة ، فأوضح لي عن كتفك . فأوضح له ، فإذا هو بخاتم النبوة يتلألأ . فأقبل عليه يقبله . فظن القوم أن الراهب يريد بالأمين مكرًا ، فاستل بعضهم سيفه وصاح : يا آل غالب ، يا آل غالب ، فأقبل الناس يهرعون إليه من كل ناحية ، وقالوا : ما الذي راعك ؟ !

فلما رأى الراهب ذلك دخل صومعته وأغلق بابها ، ثم أشرف عليهم وفي يده صحيفة ، ثم قال : يا قوم ما الذي راعك منى ؟ فو الذى رفع السموات بغير عمد لأجد فى هذه الصحيفة أن النازل تحت هذه الشجرة هو

رسول رب العالمين ، يبعثه الله بالسيف المسلول وبالريح الأكبر . وهو خاتم النبيين فمن أطاعه نجا ، ومن عصاه غوى .

وانفض القوم غير مكترئين بقول نسطور الراهب ، بينما ظل صوته يرن فى أعماق أعماق أبى بكر . وكان بين القوم فى تلك الرحلة ، وكان بينه وبين الأمين . صلى الله عليه وسلم . صداقة قوية الدعائم .

واقعة أخرى :

وتحركت القافلة عائدة إلى مكة ، فضعف فى الطريق بعيران من الإبل التى يتعهدها ميسرة ، وحاول ميسرة عبثاً أن يحملهما على مساية الركب . فرفع أمرهما إلى الأمين فتوجه إليهما ومسح بيده على أخفافهما ، ثم أمسك بمقودهما وقادهما ، فساراً خفافاً فى نشاط ظاهر ، كأن لم يكن بهما شيء .

فضم ميسرة هذه الواقعة إلى ما شاهده من تظليل الغمامة ، وإلى ما قال نسطور ، فا زاد بتلك الخوارق إعجابا على إعجاب .

عودة الأمين وميسرة :

فلما كانت القافلة بمر الظهران قريباً من مكة ، اقترح ميسرة على الأمين أن يسبق القافلة إلى مكة ليبشر السيدة خديجة بالبرج الوفير الذى جاءها على يده .

وبينما كانت السيدة خديجة تدير الطرف فى الفضاء ، لمحت من بعيد راكباً يعدو نحو مكة تظله غمامة . فلما اقترب أيقنت أنه أمينها الذى سافر فى تجارتها إلى الشام وعاد من رحلته.

فسرها أن تراه سالماً ، ورحبت به واستمعت إلى أخبار البيع والشراء فأعجبت بأمانته وفصاحته وبلاغته .

ثم توجه الأمين . صلى الله عليه وسلم . إلى بيت الله فطاف به قبل أن يرى أعمامه ، الذين كانوا ينتظرون عودته من رحلته بفارغ الصبر .

ولما وصل مسيرة إلى سيدته خديجة ، قص عليها ما رأى وما سمع . فقالت له : صدقت يا مسيرة ، فلقد رأيت اليوم بعينى عجباً يؤيد ما قصصته على ؛ رأيت مع القافلة السحابة البيضاء الجميلة ، تصاحب الراكب الأمين إلى دارنا .

خديجة تفكر :

وهنا خلت خديجة الرشيدة لنفسها ، وأخذت تربط الماضى والحاضر ، وتنظر بنور الفكرة الصائبة ، والبصيرة النافذة فى المستقبل .

رؤيا خديجة وبشرى ورقة :

إنها فى الماضى كانت قد رأت رؤيا منامية . رأت فيها أن شمساً عظيمة مضيئة أشد ما يكون الضوء جمالاً وجلالاً ، تهبط إلى دارها من سماء

مكة فيغمر ضوءها ما يحيط به من بقاع وأماكن . وقصت تلك الرؤيا على ابن عمها " ورقة بن نوفل " ، وكان من أهل العلم والحكمة الذين نبذوا عبادة الأوثان ، واعتزلوا عابديها ، فى انتظار ظهور نبي آخر الزمان الذى بشرت به التوراة كما بشر به الإنجيل . فاستبشر ورقة بما رأت ابنة عمه ، وبشرها قائلاً :

(( لك البشرى يا خديجة يا ابنة العم ! فهذه الشمس المضيئة علامة على قرب ظهور النبي الذى أطل زمانه ، ودخولها دارك دليل على أنك أنت التى ستتزوجين منه )) .  
اليهود ونساء قريش :

كما أنها فى الماضى كانت مع نساء قريش يسمرن فى عيد لهن ؛ فتمثل لهن رجل طويل غامض الوجه ، أخذ يقترب منهن شيئاً فشيئاً حتى اقترب منهن هاتفاً : يا نساء مكة ! إنه يوشك أن ينعت فيكن نبي هو خاتم الأنبياء ، وسيد المرسلين ، ورسول رب الناس إلى الناس كافة ، فمن استطاعت منكن أن تكون زوجا له فلتفعل !  
وتفرس النساء وجه ذلك الرجل فعرفن أنه رجل يهودى بعيد عن مكة ؛ فأخذن يرمينه بالحصى حتى ولى مدرأً ، ولم تشاركهن السيدة خديجة . وكانت فى قومها محل إجلال واحترام ، حتى لقبوها تارة بالطاهرة ، وتارة بسيدة نساء قريش .

عادت السيدة الطاهرة خديجة إلى بيتها ؛ وجرها كلام ذلك اليهودى إلى تذكر كلام سمعته من ابن عمها ورقة بن نوفل عن قرب مبعث رسول من سلالة إسماعيل عليه السلام ، يدعو الناس إلى توحيد الله ، وهو ملة أبيه إبراهيم عليه السلام ، ويصرفهم عن عبادة الأصنام التى هى عبادة للشيطان الرجيم .

ورقة بن نوفل :

وكان ورقة يعيب على أهل مكة عبادتهم للأصنام ويلتزم فى عبادته دين إبراهيم عليه السلام ؛ فاجتنب الخمر والميسر ، وكان يرحم الموءودة التى يفكر أبوها فى قتلها ، ويفتديها بماله ، ويرببها عنده حتى إذا كبرت ورغب أبوها فى استعادتها ردها إليه .

وقد أورد السهيلي فى كتابه " الروض الأنف " لورقة بن نوفل شعراً يكشف عن إيمانه بالله الخالق ، ذى العرش العظيم ، يقول فيه :

لقد نصحت الأقوام ، وقلت لهم :

أنا النذير ، فلا يغركم أحد

لا تعبدن إلهاً غير خالقكم

فإن دعوكم فقولوا بيننا حدد<sup>١</sup>

<sup>١</sup> حدد : أى خصومة .

سبحان ذى العرش سبحاناً يدوم له  
 وقبلنا سبح الجودى والجمد  
 مسخر كل ما تحت السماء له  
 لا ينبغي أن يناوى ملكه أحد  
 لا شيء مما ترى تبقى بشاشته  
 يبقى الإله ويودى الأهل والولد  
 لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه  
 والخلد ولقد حاولت عاد فما خلدوا  
 ولا سليمان إذ تجرى الريح له  
 والإنس والجن فيما بينها مرد  
 أين الملوك التى كانت لعزتها  
 من كل أوب إليها وافد يفد  
 حوض هنالك مورود بلا كذب  
 لا بد من ورده يوماً كما وردوا<sup>١</sup>  
 والتدين الذى يكشف عنه شعر " ورقة المتقدم دعاه ان ينظر

<sup>١</sup> وقد قال العلامة " ابن كثير " فى كتابه " السيرة النبوية " : وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يستشهد ببعض الأبيات المتقدمة .

فى التوراة والإنجيل ، وأن ينقل عنهما إلى لغته العربية ما استطاع من ذلك على الرغم من شيخوخته وكبر سنه . وقد رأهما يبشران بآخر الأنبياء والمرسلين الذى تختم به الرسالا السماوية .

وكما تذكرت السيدة الطاهرة كلام " ورقة فى الرسالة ، تذكرت تأويله لرؤياها التى رأتها من قبل ، حين قصتها عليه . فكان مما قاله لها من تأويله :

(( ودخول الشمس دارك دليل على أنك أنت التى ستتزوجين منه )) .

وقد أعجبت كذلك بخصال شريفة فى أمينها . فقد كان لطيف المحضر ، يصل الرحم ، ويصدق الحديث ، ويؤدى الأمانة ، ويحمى العشيرة .

وبعد أن سمعت السيدة خديجة من غلامها ما سمعت ، ورأت بنفسها من بركة أمينها وشمائله ما رأت ؛ كان لا بد لها أن تقص لابن عمها " ورقة " ما سمعت وما رأت . وما كادت تفعل حتى قال لها ذلك المتعبد المتحنث الذى قرأ بنفسه التوراة والإنجيل :

(( إن كان هذا حقاً يا خديجة ، فإن محمداً نبى هذه الأمة ، فلقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى منتظر ، وهذا هو زمانه الذى فيه يبعث )) .

واستطرد ودقة يقول :

(( لقد عشت طوال حياتى أرقب هذه النذر ، وأتطلع على تلك الايات ، كما يعيش أصدقاء لى وإخوان من الأحبار والرهبان فى لهفة وتشوق .

(( لقد تحدثت التوراة التى نزلت على موسى عليه السلام ، وتحدثت أناجيل عيسى المسيح رسول الله مبشرة بنبى هو خاتم الأنبياء يبعث على فترة من الرسل ، من أبناء إسماعيل ، وأحفاد إبراهيم ، ليكون رحمة للعالمين . ))

(( كما حددت التوراة والأنجيل ، أو كادت أن تحدد ، زمانه وسماته ، وما يصاحبه من نذر ، وما ينبعث حوله من آيات ، وأجمعت . أو كادت أن تجمع على أنه من بطون قريش ، ومن هذا البلد الأمين . ))

(( ولقد تصفحت وجوه قريش وجهاً وجهاً ، وفتشت قلوبها قلباً قلباً ، ثم استقرت أفكارى وآمالى حول وجه منها فتبعته من طفولته إلى صباه ومن صباه إلى شبابه . ))

(( ثم جاءت أنباء ميسرة ، فزادتنى يقيناً وإيماناً ، وجاء حديثك اليوم يا ابنة العم ليكون زكاة جديدة لإيمانى بأن محمداً هو دعوة إبراهيم الخليل ورسول الأميين وسيد المرسلين )) .

\* \* \*

حوار مع ورقة :

وهنا قالت أمنا الكبرى لورقة : فأنت إذن ترى لمحمد شأناً ؟؟ فأجاب : ما شك فى ذلك ، ولكنى لا أدرى متى يكون هذا الشأن ، وإنى لأنتظره ، وإنى لأتبعه ، وإنى لأريد أن أتحدث إلى

محمد فيه ، فلا أجد إلى ذلك سبيلا ، ما لقيته قط ، فما هممت للتحدث إليه في أمر الدين إلا انعقد لساني عن الحديث ، وانصرفت نفسي عما كنت أريد ان ألقى عليه .

فقلت أمنا الكبرى : وما ذاك ، وكيف تؤوله ؟

قال : تأويله يا ابنة العم أن الله يريد أن يستأثر بأنباء محمد ، وبما كتب له من كرامة ، وما هياه له من أمر عظيم ، وهو لا يريد أن ينبئه بذلك إلا حين يبلغ الكتاب أجله ، وينتهي الأمر إلى إبانه .

قالت أمنا الكبرى :

(( فإنى لا أفهم ظهور هذه البشائر والآيات لبعض الناس دون البعض . . . وانجلاء هذه

الحقائق والمعجزات لبعض القلوب دون البعض ؟ ؟ )) .

قال ورقة : (( لو شاء الله لأظهر هذه الآيات للناس جميعاً ، ولو شاء الله لما أظهر من هذه

الآيات شيئاً لأحد من الناس ، أترين أن الله لم يكن قادراً على أن يقى محمداً حر الهجرة

دون أن يرسل إليه هذين الملكين يظلان عليه ؟ أترين أن الله لم يكن قادراً أن يحجب هذه

الآية عن ميسرة كما حجبها عن رفاقه الذين كانوا يسايرونه في العير ،

(( كلا يا ابنة العم إن قدرة الله أوسع من ذلك ، وأشمل ، وإنه ليظهر

من آياته ما يشاء ، كما يشاء ، لمن يشاء ، لأن له في ذلك حكمة بالغة وأدباً قد تعجز  
قلوبنا عن فهمه وتعي معرفتنا عن تأويله ،  
(( إنك لتعرفين من أمر عبد المطلب ما تعرفين ، وما أرى أنك نسيت قصص عبد الله ، وما  
أشك في أن ما يحيط بمحمد من غريب الأمر قد انتهى إليك كله أو أكثره ، أفرايت أسرة من  
قريش قد اجتمع لها مثل ما اجتمع لآل عبد المطلب ، وألم بها ما ألم بآل عبد المطلب ؟  
قالت أمنا الكبرى : لا ، وإنى في ذلك لكثيرة التفكير ، أعجب ببعضه وأرثى لبعضه ، وأقف من  
بعضه حائرة بين الإعجاب والرتاء . وهم ورقة أن ينهض فاستبقته أمنا الكبرى قائلة : أقم فإن  
حديثي معك لم ينته بعد .  
وأحس ورقة بما تريد أن تقوله له ، فقال : أقدمي يا ابنة العم على ما تريدين في نفسك ، ولا  
تحجمي ولا تترددي ، فأنت أسعد نساء قريش ، بل أسعد نساء الأرض إن تم لك ما تتمنين .  
فقالت أمنا الكبرى في دهشة : وقد علمت ذلك أيضاً ؟  
الصديقة الوفية :  
وكان للسيدة خديجة صديقة وفية ، هي السيدة نفيسة بنت منية ،

فلم تكتم عنها إعجابها بأمينها الذي ائتمنته على تجارتها . وأشادت لها بما رأته من صدقه وأمانته وبركته .

فأرت نفيسة من واجبها نحو صديقتها خديجة أن تعمل على إسعادها بالزواج من ذلك الأمين ، ولم يونسها أن خديجة رفضت قبله الزواج من أشراف قريش ، وهذا الموقف من السيدة نفيسة دل على نبليها وذكائها ووفائها ، وما عليها لو وسعت سعيها ، وتركت للأقدار ما شاء الله أن يكون .

وبدأت نفيسة فى أن تأخذ فى الأسباب ، فقالت للسيدة خديجة : وما عليك يا خديجة ان تتزوجى من الأمين ، فتحيرت السيدة الطاهرة فى إجابتها ، فهى إما أن ترحب بالفكرة ، وقد لا يرحب بها أمينها ، وإما أن تكتم رغبتها حتى تبدو منه الرغبة ، فتتلقى الرغبان ، وينعم بالزواج الطرفان .

وهنا أشارت السيدة هالة على أختها خديجة أن تستطلع رغبة الأمين فعهدت خديجة إلى صديقتها نفيسة بهذه المهمة .

وتترك السيدة نفيسة تتحدث عما كان كما رواه ابن سعد بإسناده ، فقد قالت السيدة نفيسة : (( كانت خديجة بنت خويلد بن عبد العزى بن قصى امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهى يومئذ أوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالاً ، وكل قومها

كان حريصاً على نكاحها<sup>١</sup> لو قدر على ذلك ، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال ،  
وتستطرد السيدة نفيسة فتقول :

(( استدعنتى خديجة إليها عقب وصول قافلتها التى كان محمد الأمين يشرف عليها ويقودها  
فقلت : لقد اخترتك لأمر هام ثقة بك .  
( ( قلت : أطوع لك يا سيدتى من بناتك .  
( ( قالت : انطلقى إلى محمد فاذكرينى له ، فقلت لها : إنك أوسط قريش نسباً ، وأعظمهم  
شرفاً ، وأكثرهم مالاً ، وإن كل قومك حريص على زواجك ، لو قدر على ذلك ، وقد طلبك  
أكابر قريش ، وبذلوا لك الأموال فلم تفعلى )) .  
قالت خديجة :

لقد قلت حقاً ولكنى اليوم راغبة فى محمد ، وقد حزمت أمرى ، واخترت رجلى ، فانطلقى إليه  
واذكرينى له .

بين الأمين ونفيسة :

فذهبت نفيسة إلى بيوت بنى هاشم تنشده . حتى إذا رأته فى أحد بيوت عماته انتهزت خلوة  
به ، فقالت فى ترفق وإغراء :  
إنك اليوم أمين قريش وفتاها الحبيب ، وقد تزوج لداتك وأصبح لكل منهم الولد ، فما يمنعك  
من الزواج ؟

---

<sup>١</sup> النكاح : الزواج .

قال : ما بيدي ما أتزوج به .

قالت نفيسة : فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف ، ألا تجيب ؟

فقال الأمين : فمن هي ؟

قلت : خديجة . قال : بنت خويلد ؟ قلت : نعم .

فقال في ابتهاج : وكيف لى بذلك ! ؟

قلت : على ذلك ، فقال : وأنا قد رضيت .

وعادت نفيسة إلى صديقتها خديجة بأحب بشرى إلى قلبها ، فإن أمينها علق الزواج على

قبول خديجة .

وأخذ الأمين العجب أن ترفض خديجة أشرف قومها الذين الحوا في الزواج منها وترتضيه هو

، وإن كان أقل منهم مالا .

قول الكاهنة :

وتلتقى به إحدى الكاهنات وهو يسير بالقرب من منزل السيدة الطاهرة خديجة فتفاجئه سائلة :

جئت خاطباً يا محمد ؟

فأجابها صادقاً : كلا .

قالت : ولم ، فوالله ما فى قريش امرأة ، وإن كانت خديجة ، إلا تراك كفتاً لها .

### الرغبتان تتلاقيان :

وأرسلت أمنا الكبرى إلى أمينها تستدعيه ، فلما جاءها تكلمها معا في الزواج السعيد ، فقال لها الأمين : من لى بك وأنت أيم<sup>١</sup> قريش ، وأنا يتيم قريش .

فأجابت : يا ابن العم إنى قد رغبت فيك لقربتك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك . .  
وأضافت ، تفصح عن شأنه الأعظم المرتقب الذى بشرها به ورقة بن نوفل ، فقالت : وإنى لأرجو أن تكون أنت النبى الذى سيبعث ، فإن تكن هو فاعرف حقى ، وادع لى الإله الذى سيبعثك لى .

فقال الأمين الذى يأسره الجميل : والله لقد اصطنعت عندى ما لا أضيعه أبداً ، وإن الإله الذى تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبداً .

### نظرية دينية :

ولعل القارئ الكريم يعجب معى إذ يرى السيدة خديجة تنظر فى أمر الزواج من أمينها نظرة دينية قبل الأوان ، ذلك ولا شك إنما يكون من أهل البصيرة النافذة ، وإلا فكيف تتحرك لهذا الزواج مدفوعة بما تراه من بركاته الخارقة التى رواها لها غلامها ميسرة ، ورأت بعضها بنفسها ، فضلا عما أنبأها بها ابن عمها ورقة بن نوفل مما قرأه فى التوراة

<sup>١</sup> الأيم : الأرملة التى فقدت زوجها .

والإنجيل ، ولو أنها كانت تريد الزواج الملائم فحسب لثم زواجها قبل ذلك حين خطبها كثيرون من عليّة قومها الذين رغبوا في زواجها لجمالها وحسبها .  
 وإنه لما يشرف السيدة خديجة أن تسعى لمثل هذا الزواج بنور البصيرة . وما أرشد أمينها وهو شاب في الخامسة والعشرين أن يقبل زواجها وهي أرملة في الأربعين وذات أطفال من غيره . ويشرف نفيسة بنت منية أن تكون السفيرة بين الطرفين ( وقد كافأها الله فأمنت بالرسالة المحمدية ، وصار لها صحبة بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي أخت يعلى بن منية الصحابي المعروف باسم بن أمية ، فأمية أبوه ومنية أمه ) .

#### آيات بينات :

وأى آية لله تجلت في التقاء الرغبتين ، لقد رأى الأمين نفسه بحق يتيم قريش ، ورأت فيه خديجة النبي الذي آواه الله من يتم وأغناه من فقر .  
 وأى آية فيما عرضته خديجة عليه من زواجها به ، وهي التي رفضت قبله أهل الحسب والمال وقد جرت عادة أمثالها أن يخطبن ولا يخطبن .  
 وأى آية كانت قبل ذلك حين استأجرته أميناً على تجارتها بضعف ما كانت تستأجر غيره من الأجراء ، مدفوعة بالقرابة القريبة .

وأى آية ظهرت لها فى تجارتها لحسابها من أرباح مالية مضاعفة .  
 سبحانك ربى ، فأنت اللطيف لما تشاء ، فقد الأمين أباه وهو جنين فى بطن أمه ، فتولته أمه  
 الرحوم السيدة آمنة بنت وهب حتى بلغ السادسة من عمره ، فلما ماتت قام عليه جده عبد  
 المطلب ، فلما مات عبد المطلب قام عليه عمه أبو طالب .

ولما نشأ قليل المال عوضته عنه يا إلهى بصدق الفعال ، فلما اشتهر بها رزقته المال  
 والجمال والكمال . فشرحت صدر تلك اللبيرة العاقلة أن تخطبه لنفسها على غير عادة النساء  
 من أمثالها . فبدلت بقدرتك العادة لتتم له بذلك السعادة ، فكان هو المخطوب لا الخاطب ،  
 والمطلوب لا الطالب .

وكان الزواج من تلك السيدة بعيداً عن فكره ، فهو الشاب الناشئ ، وهى الشيخة المجربة  
 ذات الأطفال من غيره ، وقد أبت أن تجرب الزواج مرة ثالثة بعد أن تجرعت الحزن على  
 الزوجين الأولين .

وليت شعرى هلى أراد الله أن تكون أولى أزواجه شيخة عاقلة تكفيه رعونة الشابات ؟  
 أو هل أراد الله أن يكافئه على صبره حين فقد أمه فيرى فى الشيخة طيف أمه الحنون إلى  
 جانب أنها الزوجة الوفية ؟

بين الأمين وعمه :

وبعد الحديث السابق الذى جرى بين امنا الكبرى وأمينها ، ذهب

الأمين . صلى الله عليه وسلم . إلى عمه أبي طالب وأنبأه بما كان فى ذلك الحديث ، فتعجب أبو طالب وقال :

عجباً يا بنى أن ترد خديجة سيدة قريش ذوى المال والجاه ثم ترضيك أنت بعلاً لها ؟ !  
ثم استدرك قائلاً :

ولكنك يا بنى إن افتقرت إلى المال ، فأنت غنى فى الشرف ، والمحتد ، والنسب .  
فقال الأمين :

يا عمى ، إننى لا طمع لى فى مال ، ولا حاجة بى إليه .

عقد الزواج :

وذهب أبو طالب مع رهط من بنى هاشم يخطبون أمنا الكبرى من عمها (( عمرو بن أسد )) وأخيها (( عمرو بن خويلد )) للأمين ، فرحبا بالخطبة أيما ترحيب .

وحدد يوم الزواج ، وجاء إلى دار العروس رهط من بنى هاشم ، ورهط من قومها ، لتوثيق العقد بالإيجاب والقبول ، وتكلم فى الحفل أبو طالب وقال :

(( الحمد لله الذى جعلنا من نرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وأصل معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا سدنة<sup>١</sup> بيته . وسواس حرمة .

<sup>١</sup> سدنة البيت : خدمه وحفظته .

(( أما ابن أخى محمد فلا يوزن به رجل إلا رجحه شرفاً ، ونبلا ، وفضلا ، وعقلا ، وإن كان فى المال قلا ، فإن المال ظل زائل وأمر حائل ، ورعاية مسترجعة )) .  
ثم أفصح بعد هذه المقدمة عن رغبة الأمين فى الزواج من خديجة ، ورغبة خديجة فى الزواج منه ، وقرر مقدار الصداق الذى أمهره الأمين ، ومقداره عشرون ناقة .  
وأعقبه عم خديجة عمرو بن أسد ، فأثنى على الأمين محمد ، وأعلن قبول الزواج على الصداق المعروض .  
ونحرت يومئذ الذبائح وأطعموا منها الوافدين والوافدات .  
وكانت حليلة . أم الأمين من الرضاع . بينهن ، وقد عادت بعد الحفل إلى قومها بنى سعد وبين يديها أربعون رأساً من الغنم هدية من العروس لمرضعة زوجها الحبيب .  
وكيف لا تكرمها العروس ، وقد رأت زوجها العظيم يرحب بها حين وفدت إليه ، ويقول : أمى ، وبسط لها رداءه ، فقعدت عليه ، وهز ذلك العطف أحاسيس السيدة خديجة فذرفت عيناها الدموع ، وأجزلت العطاء لأم الحبيب من الرضاع .  
وزفت سيدة قريش إلى زوجها ، وسعد الزوجان بالمودة والرحمة التى قامت بينهما واستقرت ، فعرفت أمنا الكبرى أمينها زوجا كاملا أكمل ما يكون الزوج ، كما عرفته من قبل أميناً أكمل ما يكون الأمين .

### تعدد الزواج :

وقد أراد الله أن يجعل من هذا الزواج مقراضاً يقرض به ألسنة المتخرصين من حساده أعداء الدين حين يعترضون بالنقد المفرض لتعدد أزواجه ؟

تخرص من المستشرقين وهم يعلمون أن ذلك التعدد لم يقع في حياة أئمة الكبرى التى عاشته وحدها ربع قرن من الزمان ، خلقتة أيماً<sup>١</sup> شيخاً فى سن الخمسين ، بعد أن قضى زهرة شبابه مع الزوجة الشبيخة وحدها .

تخرص المتخرصون وهم يعلمون أنه حين دعتة الظروف للتعدد لم يتزوج بكرةً فى نساءه الكثيرات إلا واحدة هى " السيدة عائشة " رضى الله عنها ، حتى كانت تدل بذلك ، وتقول لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا لست كأحد من نساءك يا رسول الله ، كل امرأة منهن كانت عند رجل سواى !

تخرص المتخرصون وهم يعلمون أن الرجل ذى الشهوة الزوجية لا يرغب فى الثيب ، لا فى شبابه ولا فى شيخوخته ، بل يحرص على الأبكار الحسان .

تخرصوا وهم يعلمون أنه كان يعدل بين نساءه فى حضره وسفره ، وكان يقترع بينهن فى السفر .

<sup>١</sup> الأيم : الزوج الذى فقد امرأته .

تخرص المتخرسون وهم أن نساءه كن يتشرفن بالانتساب إليه كأزواج لرسول كريم ، حتى لقد أبت إحداهن " السيدة سودة بنت زمعة " أن يطلقها ، ووهبت ليلتها للسيدة عائشة . وقالت للرسول صلى الله عليه وسلم : ما بي حرص على أن أكون لك زوجة مثل عائشة ، فأمسكنى حسبى أن أعيش قريبة منك ، أحب حبيبك ، وأرضى لرضاك .

تخرص المتخرسون حين أضلهم هوى نفوسهم عن الحق ، وهم يعلمون أن نساءه كن باختيار الله له ، وأنه أمره ألا يبدل بهن نساء أخريات ، ولو أعجبه حسنهن ، فقد تم زواجه بإحداهن فى السماء ( السيدة زينب ابنة عمته ) وهى التى قال الله تعالى فى شأنها : (( فلما قضى زيد منها وطراً زوجنا كها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً )) . ولذلك كانت رضى الله عنها تدل على سائر أزواجه وتقول لهن : زوجكن آباؤكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات .

تخرص المتخرسون وهم يعلمون أن الله تعالى أباح له التعدد . وليس مع الحلال تهمة ، إنما التهمة فى الحرام . وكان فى التعدد مصاهرة لبعض العشائر والقبائل ، تأليفاً للقلوب وتوسيعاً لدائرة الإسلام .

وكذلك كان فى التعدد مواساة للسابقات اللائى فقدن أزواجهن حتى يكن فى ستر وأمان فى عصمة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، كما كان الحال فى زواجه بأم حبيبة بنت سفيان ، التى ارتد زوجها فى

الحبشة عن الإسلام ، وبأم سلمة التي مات زوجها مسلماً بمكة إثر عودته من الحبشة ، وهي في مطلع الشيخوخة ، وتركها أرملة حزينة .

وحيا الله الدكتورة " بنت الشاطئ " إذ قالت في كتابها " نساء النبي " :

(( . . . وقد قال المستشرون في تعدد الزوجات ما قالوا ، ولم يروا في هذا الجمع بين عدد من النساء تحت رجل واحد سوى مظاهر مادية مسرفة . وإنه لضلal أملاه التعصب الأحمق ، والهوى الجامح ، وانحراف عن المنهج العلمي الذي يأبى إلا أن يقيس مسألة تعدد الزوجات بمقاييس عصرية مستحدثة ، صنعتها بيئة تفصلها عن بيئة محمد آباء وأبعا . وهذا الغرب لا يجرؤ اليوم على أن يدعى أن نظام الزوجة الواحدة ، يتبع في دقة وينفذ نصاً وروحاً . . . )) .

وإليك ما ورد في تفسير القرآن الذي نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية تعقيباً على تعدد الزوجات بمناسبة تفسير الآية : (( وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا )) :

(( لم تنفرد الشريعة الإسلامية من بين الشرائع السماوية بمبدأ تعدد الزوجات . فشريعة التوراة تثبت أنه يباح للرجل أن يتزوج بمن

يشاء ، وهى تذكر أن الأنبياء كانوا يتزوجون من النساء بالعشرات لا بالآحاد .  
 (( والتوراة هى كتب العهد القديم الذى يؤخذ بها عند النصارى ما لم يوجد نص قد جاء فى  
 الإنجيل أو فى رسائل الرسل يخالفها . ولم يوجد نص صريح فى المخالفة .  
 )) والكنيسة كانت تأذن بالتعدد ولا تعارض فيه فى القرون الوسطى ، وما بعدها . وملوك أوروبا  
 الذين عددوا الزوجات معروفون فى تاريخهم .  
 (( وإذا كان الإسلام قد انفرد بشيء فى هذا المقام ، فالذى انفرد به أنه قيد التعدد . فهو أول  
 شريعة سماوية قيدت التعدد صراحة ، فقد قيدته بثلاثة أمور :  
 (( أولها : ألا يزيد على أربع . وثانيها : ألا يكون فيه ظلم لإحداهن ، وثالثها : أن يكون  
 قادراً على الإنفاق .  
 )) والشرطان الأخيران لازمان فى كل زواج ، ولو كان الأول ، فقد قرر فقهاء المسلمين على  
 اختلاف فرقهم بالإجماع أنه يحرم الزواج على من يتأكد أنه لا يعول زوجته إذا تزوج . غير  
 أن ذلك التحريم دينى لا يقع تحت سلطان القضاء ، لأن العدل أمر نفسى لا يعلم إلا من جهته  
 ، والقدرة على الإنفاق أمر نسبى لا تحد بميزان واحد ، ولذلك ترك الأمر فيهما إلى تقدير  
 الشخص . وهو آثم عليه العقاب يوم القيامة إن خالفه ، لأن الظلم

أو العجز عن الإنفاق أمور تتعلق بالمستقبل ، والعقود لا تبنى صحتها على أمور متوقعة ، بل تبنى على أمور واقعة ، والظالم قد يكون عادلاً ، والعاجز في المال قد يكون قادراً ، فالمال غاد ورائح ، ومع ذلك قرر الإسلام أن الرجل إذا ظلم امرأته ، أو عجز عن الإنفاق عليها ، كان لها طلب التفريق ولكن لا يمنعها من العقد إذا دخلت راضية مختارة في إنشائه . (( والإسلام إذ قد فتح باب التعدد مع التضييق فيه على ذلك النحو قد دفع أدواء اجتماعية : فأولاً . قد ينقص عدد الرجال الصالحين للزواج عن عدد النساء الصالحات للزواج ، وخصوصاً عقب الحروب المفنية ، فقد لوحظ في بعض الدول الأوربية أن عدد الرجال الصالحين بعد الحرب يعادل واحد إلى سبع من النساء ، فيكون من كرامه المرأة أن تكون زوجة ولو مع أخرى بدل أن تظل حائرة بين أحضان الرجال .

وثانياً . قد يكون بين رجل وامرأة ما لا يستطيعان معه إلا أن تكون بينهما علاقة شرعية أو آثمة ، فيكون من المصلحة الاجتماعية أن تكون شرعية . وخير للمرأة أن تكون زوجة من أن تكون خلية ، تنتقل بين أحضان الرجال . وإذا كانت هذه صورة شوهاء للتعدد ، فإنه فيها خير من عدم التعدد ، لأن التعدد على أقبح صورته يدفع شراً اجتماعياً أعظم منه .

- (( وثالثاً . لا يمكن أن تقبل المرأة الزواج من متزوج إلا إذا كانت مضطرة إلى ذلك اضطراراً . فإذا كانت الزوجة الأولى ينالها ضرر بالزواج بالثانية فإن الثانية ينالها ضرر أشد بالحرمان إذ تموت أنوثتها أو تكون ضياعاً بين الرجال ، والضرر الكبير يدفع بالضرر القليل . ))
- (( ورابعاً . قد تصاب الزوجة بمرض لا تكون معه صالحة للعلاقة الجنسية ، أو تكون عقيماً ، فيكون من المصلحة الاجتماعية والشخصية التزوج من أخرى . ))
- (( لهذه المعانى ، ولغيرها فتح الإسلام الباب مضيقاً ، ولم يغلقه تماماً . ))
- (( إن الإسلام شريعة الله الذى يعلم كل شىء ، فهو العليم الحكيم )) .

#### البنون والبنات :

ورزق الله الزوجين الكريمين البنين والبنات ، فكان لهما من البنين القاسم ، وعبد الله ( ويلقب بالطاهر والطيب ) ، ومن البنات زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، عليهم جميعاً رضوان الله . وقد فقد الزوجان ولديهما الحبيين فى طفولتهما ، فاحتسباهما عند الله ( القاسم ثم عبد الله ) وبقيت لهما بناتهما الأربع .

#### العبادة فى غار حراء :

ومن مظاهر المودة والرحمة بين الزوجين أن الزوجة الكاملة تركت لزوجها حرية التعبد كما يشاء ، فكان الأمين يذهب إلى غار حراء ويخلو فيه

متفكراً فى صنع الله الذى أتقن كل شىء ، ومنكراً عبادة الأصنام التى كدست حول الكعبة ، وعبدها كفار قومه سفهاً بغير علم ، يتذرعون فى عبادتهم لها بما ألفوا عليه آباؤهم ، ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون .

ولكن أصالة الأمين وورثته طهارة من جديه العظيمين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وهما الذان أوحى الله إليهما أن يبني الكعبة البيت الحرام للطائفتين والعاكفين والركع السجود . وكان إبراهيم عليه السلام أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ، وكان إسماعيل عليه السلام يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضياً .

فليس عجباً من الأمين الذى انحدر من سلالتهم أن يعاف بفطرته السليمة وعقله الكبير وقلبه الطاهر عبادة الأصنام ، وينأى بالخلوة عن مواطن الزحام ، سعيداً بخلوته ونسكه شأن الأنبياء الأصفياء الأتقياء ، الذين يصطفاهم الله بعلمه ويصطنعهم لنفسهم ، وقد حلاهم بالصبر الجميل بأنواعه الأربعة : الصبر على البلاء ، والصبر على الطاعة ، والصبر عن المعصية ، والصبر على العافية ، فاجتمع للأمين الصبر من أطرافه وقد قالوا : إن الصبر لله غناء ، والصبر بالله بقاء ، والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء .

وأحاطت أمنا الكبرى زوجها الأمين بالعطف فى مسلكه هذا ، فلم تعترض على خلوته بعيدا عن داره طوال شهر رمضان الذى كان يختار أيامه للخلوة ؛ بل كانت على العكس ترسل وراءه من يحرسه ويرعاه ؛ وتذهب بنفسها إلى الغار ليطمئن قلبها عليه فى خلوته بعيداً عن مجتمعه الذى يعبد الأصنام من دون الله . أما هو فقد آثر الله ، وهجر أهله وذهب إلى الله يأنس به ويستوحش من غيره ، ولم يكن بينه وبين ربه مسافة يطويها إليه ، إنما هى يقظة واعية لا تسمح لحجاب الغفلة أن يحول بينه وبين ربه طرفة عين ولا أقل منها . ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

#### مجئ الوحي :

وحين أذن الله وجاءه جبريل فى غار حراء أول مرة ، انطلق الأمين إلى زوجته الحبيبة خائفاً يرجف فؤاده . وقص عليها ما رأى وما سمع ، يلتمس عندها الطمئينة ، إذ لم يكن له عهد بجبريل عليه السلام ، ولا بالنعم القدسى الذى نزل به فهزه (( اقرأ باسم ربك الذى خلق )) . ويرحم الله أمير الشعراء شوقى إذ يقول :

لم تتصل قبل من قيلت له بالفم  
أسماع مكة من قدسية النعم

ونودى اقرأ تعالى الله قائلها  
هناك أذن للرحمن فامتلت

وكان فيما قصه الأمين مما رأى وما سمع ، وكان قد قارب الأربعين من عمره :  
يا خديجة ما الذى بى ؟ كنت بغار حراء ، فإذا بملك جميل الصورة قد تبدى لى وبيده صحيفة  
من ديباج ، وسمعه يخاطبنى : اقرأ ، فأخذت وقلت : ما اقرأ ، فأحسست أن الملك يخنقنى  
ويضغطنى حتى حسبت أنه الموت ، ثم أرسلنى وقال لى : اقرأ ، فقلت : ما اقرأ ، فأحسست  
مرة أخرى أن الملك يخنقنى ويضغطنى ضغطاً أشد ، ثم أرسلنى وقال لى : اقرأ .

وخشيت ان يعود معى بمثل ما صنع بى فقلت : ماذا أقرأ ؟ قال : ( اقرأ باسم ربك الذى خلق  
\* خلق الإنسان من علق \* اقرأ وربك الأكرم \* الذى علم بالقلم \* علم الإنسان ما لم يعلم )

فقرأت ما قاله الملك ، وقد نقش فى قلبى ، وطبع على صفحة فؤادى ، فتركنى الملك وانصرف

وهببت قائماً وقد تولانى الجزع وتملكنى الفزع ، فأخذت ألتفت فى أرجاء الغار فزعا ورعباً ،  
أسائل نفسى من الذى خاطبنى ، من الذى أقرأنى .

وغادرت الغار مسرعاً ، وقد خشيت أن يكون قد لحقنى مس من الجن ، وأصابنى ما كنت  
أخاف وأخشى .

وهمت بين شعاب الجبل وأنا أتساءل : من هذا الشخص الذى تمثل لى ، ومن الذى عنى بما أقرأنى ؟

وبينما انا بوسط الجبل سمعت صوتاً ينادينى " محمد " ورفعت رأسى فرأيت أمامى الملك وقد تمثل لى فى صورة رجل ينادينى : يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل .  
فزاد رعبى واشتد على الفزع ووقفنى الهلع ، فلم أجد لنفسى مهرباً ، فجعلت أدير نفسى يمناً ويسرة ، وأحاول أن أصرف عن ناظرى صورة هذا الشخص الذى أمامى ، ولكنى كنت أراه أينما وليت وجهى وحيثما وحولته .  
عالجت أن أتقدم أو أتأخر ، فإذا بى أرى صورة هذا الشخص تتراءى أينما وجهت مجهى ، وحيث أرسل بصرى فى آفاق السماء .

#### الزوجة الرشيدة :

استمعت أمنا الكبرى إلى ذلك الحديث ، فهدات من روعه وهى واثقة أن ذلك الذى حدث إكرام من الله له وللبنية جميعاً ، فقالت له وأجادت فيما قالت :  
( ( الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت ، فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

(( والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم . وتقري الضعيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث ، وتؤدي الأمانة )) .

### تعقيب ومناجاة :

يا للعقل الكبير ، والقلب المنير ، ويا للنور الذي ينبعث قوياً من وراء الحجب فيظهر المحجوب أمراً واقعاً ، وسبحان الله الفعال لما يشاء .

فعهدنا في النساء في مثل هذا المقام أن تضرب على صدرها مرعوبة الفؤاد ، مرتعدة الفرائص ، تزيد الخائف خوفاً ، والمهتز اهتزازاً .

وهذه الزوجة اللبيبة تقول في قوة يقين بالله قبل أن تدعوها الرسالة إلى الله : الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم وأثبت .

لك البشرى يا أمانا الكبرى والثبات ، ولنا البشرى منك والثبات .

أمنت الحبيب فأمنك الله ، وبشرت الحبيب فبشرك الله ، وكان لأمته من أمنه وثباته الأيمن والثبات .

لك الله يا أماه ، كيف ثبت في هذا المقام وأنت تعلمين أن زوجك لا يهتز من أمر يسير ، ولا بد أن الذي هزه أمر خطير ، لأنك تعلمين علم اليقين أن غير زوجك لا يقوى على الخلوة وحده في غار حراء ، بين الجبال الشماء .

هل توقعت أن يكون ما رأى زوجك الأمين بداية الرسالة التي بشرك بها من قبل ابن عمك ورقة بن نوفل ، فاستبشرت فى نفسك وبشرت الزوج الأمين ، أو هل ربط الله على قلبك لتكونى من المؤمنين كما ربط على قلب أم موسى وهى تلقى به فى اليم ، آمنة بالله مع الآمين .

بالله كيف رجوت أن يكون زوجك نبى هذه الأمة ، وكيف أكدت له بالقسم العظيم أن الله لا يخزيه أبداً مع خصال الخير التى نشأ عليها وأعجبت أنت بها وأيقنت أن صاحبها لا يخزيه الله أبداً .

كان قومك يعبدون الأصنام ، ويستقسمون بالأزلام ، وجئت أنت تحلفين بالله لا يخزي زوجك وهو متحللٌ بأكرم الصفات وأشرف الخصال ، فلم يكن قسمك باللات<sup>١</sup> ولا بالعزى كما كان قومك يحلفون .

فبالله كيف وثقت أن الجزء من جنس العمل ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

وبالله كيف رأيت الخير فيه قبل أن يرسل رسولا لربه ويشرف الناس كافة برسالته العظمى ، إن أكثر النساء يكفرن العشير ، فكيف رأيت المكارم زوجا قبل أن تريها فيه رسولا .

<sup>١</sup> اللات والعزى من أسماء الأصنام التى كانت تعبد فى الجاهلية .

ما أعظمك يا أماه حين اخترتيه أميناً على مالك ، وحين ارتضيتيه زوجاً ، وحين وصفتيه بصورته الحقه التي لا يخزيه الله فيها أبداً .

وما أسعدك يا أماه إذ كنت أول من تلقى من فمه الطاهر بداية الوحي : (( اقرأ باسم ربك الذى خلق . . . )) فذقت حلاوة القرآن الكريم قبل كل الناس رجالا ونساء .

وما أنفذ بصيرتك يا أماه حين تسللت من الدار بعد أن زملتيه ونام . فذهبت إلى ابن عمك ورقة بن نوفل وقصصت عليه ما كان فى ذلك اليوم من مجئ زوجك فى السحر مرجوف الفؤاد للأمر الذى عراه ؛ ولم يكن به عهد من قبل ، لأنه هو ورقة بعينه الذى نبأك بعظم شأنه المنتظر . وهو بعينه الذى كنت توالينه بخوارق أمينك وما حدثك به غلامك ميسرة قبل أن يكون الأمين لك زوجاً . فكان ورقة يبشرك ويقول لك : لئن كان هذا حقاً يا خديجة ، إن محمداً لنبي هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر ، هذا زمانه ، بل لقد قال شعراً فى تلهفه على ظهور نبياً :

لججت وكنت فى الذكرى لجوجاً

لهم طالما بعث النشيجا<sup>١</sup>

ووصف من " خديجة " بعد وصف

فقد طال انتظارى يا خديجا

<sup>١</sup> النشيج : - البكاء مع صوت .

ببطن المكتين<sup>١</sup> على رجائي  
 بما خبرتنا من قول قس من الرهبان أكره أن يموجا  
 بأن محمداً سيسود فينا ويخصم من يكون له حجيجا  
 ويظهر في البلاد ضياء نور  
 فيلقى من يحاربه خساراً  
 فيا ليتنى إذا ما كان ذاكم  
 ولوجاً في الذي كرهت قريش  
 أرجى بالذي كرهوا جميعاً  
 وهل أمر السفالة غير كفر  
 فإن يبقوا وأبق تكن أمور  
 وإن أهلك فكل فتى سيلقى  
 حديثك أن أرى منه خروجا  
 من الرهبان أكره أن يموجا  
 ويخصم من يكون له حجيجا  
 يقيم به البرية أن تموجا<sup>٢</sup>  
 ويلقى من يسالمة فلوجا<sup>٣</sup>  
 شهدت فكنت أولهم ولوجا  
 و لو عجت بمكتها عجيجا<sup>٤</sup>  
 إلى ذى العرش إن سفلوا عروجا<sup>٥</sup>  
 بمن يختار من سمك البروجا  
 يضح الكافرون لها ضجيجا  
 من الأقدار متلفة<sup>٦</sup> حروجا<sup>٧</sup>

<sup>١</sup> المكتين : مثى مكة ، والمقصود أعلى مكة وأسفلها .

<sup>٢</sup> تموج : تضطرب .

<sup>٣</sup> الفلوج : الظهور على الخصم والانتصار عليه .

<sup>٤</sup> عجت : ارتفعت أصواتها .

<sup>٥</sup> العروج : الصعود .

<sup>٦</sup> المتلفة : المهلكة .

<sup>٧</sup> الحروج : الكثيرة التصرف .

فهل كنت يا أماه حين تركت الأمين مزملا وذهبت إلى ورقة تريدين أن تبشريه بما جد من أمر الوحي ، ليطمئن قلبه على ما اعتقد من قرب ظهور الرسالة ، أو كنت تريدين أن يبشرك ورقة بأن بداية الوحي هي بداية الرسالة المرتقبة ؟ ! .

قد يكون هذا أو ذاك ، إنما الذى لا شك فيه أن ورقة انتشى وجداناً حين نقلت إليه الخبر ، ولم يتمالك نفسه أن قال لك :

(( قدوس ، قدوس . . . والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتنى يا خديجة ، لقد جاء الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وعيسى ؛ وإنه لنبي هذه الأمة فقولى له فليثبت . لقد قرب الأوان واستدار الزمان وآن لمكة أن تشهد الآية الكبرى )) .

وما درى ورقة أنك كنت نظرت فى الأمر بنور الحق ، وقلت للأمين : أبشر يا ابن عم واثبت . . . وذلك قبل أن تذهبي لورقة بالنبأ اليقين .

ولئن كان ورقة قال لك يا أماه : إن كنت صدقتنى يا خديجة ، فأنا أراه قالها بتشديد الدال لتصديقه أنت ولا تشكى فى قوله ؛ ولم يقلها بتخفيف الدال كما يقرأها البعض ، فيكون شاكا فى خبر تنقلينه إليه ؛ وأنت التى لم يعهد منك فى حياتك إلا الصدق فى القول والفعل ؛ وإلا فلماذا كان يبكى ويرجو ، ويلح فى الرجاء ، أن تصدق الأيام حديثك حين قال فى شعره السابق :

لججت وكنت فى الذكرى لجوجاً  
 لهم طالما بعث النشيجا  
 ووصف من " خديجة " بعد وصف  
 فقد طال انتظارى يا خديجا  
 ببطن المكتين على رجائى  
 حديثك أن أرى منه خروجا  
 كما أنه قال فيما رواه يونس بن بكير عن ابن اسحق :  
 أذاك الذى وجهت يا خير حرة  
 بغور وبالنجدين حيث الصحاصح<sup>١</sup>  
 إلى سوق بصرى فى الركاب التى غدت  
 و هن من الأحمال قعص دوالح<sup>٢</sup>  
 فيخبرنا عن كل خير بعلمه  
 و للحق أبواب هن مفاتيح  
 بأن ابن عبد الله أحمد مرسل  
 إلى كل من ضمت عليه الأباطح  
 و ظنى به أن سوف يبعث صادقاً  
 كما أرسل العبدان : هود ، وصالح

<sup>١</sup> الصحاصح : جمع صحصح ، وهى الأرض المستوية .

<sup>٢</sup> أى بطينات متناقلات الخطو .

وموسى ، وإبراهيم حتى يرى له  
 بهاء و منشور من الذكر واضح  
 ويتبعه حيا لؤى و غالب  
 شبابهم و الأشيبون الججاج<sup>١</sup>  
 فإن أبق حتى يدرك الناس دهره  
 فإنى به مستبشر الود فارح  
 وإلا فإنى يا خديجة فاعلمى  
 عن أرضك فى الإرض العريضة سائح  
 فلو لا أن ورقة كان واثقاً من صدق حديثك يا أماه ، ما رجا أن تحقق الأيام صدقه ؛ وما  
 استببطاً الأيام فى أن يكون ما بشرت به حقيقة واقعة .  
 وكما أنه لا يتشكك فى كلامك فإنك كذلك لا تتشككين فى كلامه ، ولكنه يربط كلامه القديم  
 بكلامه الحديث فإن كنت صدقته ( بتشديد الدال ) فيما قال لك من قبل ، فهذا هى ذى الأيام قد  
 حققت صدقه فيما قال . فليله أنت من مؤمنة ، والله ابن عمك ورقة من مؤمن .

<sup>١</sup> الججاج : جمع ججاج ، وهو السيد .

طبيعة مميزة :

وحيا الله العلامة " العقاد " إذ يقول في موقفك الرائع :

(( علامات النبوة لا يدركها كل من يسمع بالدين ، ولولا أنها عرفت من أبناء عمومته من كان يفهم النبوة هذا الفهم لما كانت هذه علاماتها لتصديق الدعوة ، وصرف الوجع والخشية عن نفس زوجها الكريم .

(( وهى على هذا الطبيعة مميزة وليست طبيعة منساقه إلى السماع والتقليد ؛ فمما نقل عنها أنها طلبت إلى النبي عليه السلام أن يخبرها إذ جاءه جبريل . فلما أخبرها قالت : (( قم فاجلس على فخذي اليسرى )) . ففعل ، فقالت : (( هل تراه ؟ )) قال : (( نعم )) . قالت : (( فتحول إلى فخذي اليمنى )) ، وسألته : (( هل تراه ؟ )) قال : (( نعم )) . فألقت خمارها وسألته ، فقال : (( الآن لا أراه )) ، قالت : (( يا ابن عم أثبت وابشر ، فإنه ملك وما هو بشيطان )) .

(( وهذا الاختبار غاية ما كان ينتظر من سيدة فى عصرها أن تمتحن به حقيقة الوحي . (( ولا غرابة فيه عند المسلم وعند غير المسلم فى الوقت الحاضر . فإن البديهة لا تشتغل بالوحي الدينى والنظر إلى جسد الأنثى فى وقت واحد ، ولا سيما بعد الحوار وإعادة السؤال مرة بعد مرة )) .

يا أيها المدثر :

على أن أمنا الكبرى عادت بعد مقابلة " ورقة " مسرعة إلى زوجها الحبيب تزف إليه البشرى التي زفها إليها ورقة بن نوفل ، ولم تشأ أن توظف الزوج من نومه ، ولكنه استيقظ يتفصد العرق من جبهته ، ويبدو مستمعاً إلى محدث غير ظاهر ، ثم يردد ما نقله إليه ذلك المحدث عن ربه :

(( يا أيها المدثر \* قم فأنذر \* وربك فكبر \* وثيابك فطهر \* والرجز فاهجر \* ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر )) .

وما كانت أمنا الكبرى تحدث زوجها بما بشرها به ابن عمها ورقة ، حتى استدار صلى الله عليه وسلم ونظر إلى الفراش وقال متأثراً :

انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس وأن أدعوهم إلى الله وعبادته ، فمنذا أدعو ، ومنذا يستجيب ؟

فأجابته من فورها فى لهفة المؤمنة الصادقة :

أنا أستجيب يا محمد . . .

فادعنى قبل أن تدعو أى إنسان ، وإنى لمسلمة لك ، مصدقة برسالتك ، مؤمنة بربك .

أول المؤمنين والمؤمنات :

فكانت رضى الله عنها أولى المؤمنات من النساء ، كما كان أبو بكر أول من آمن من الرجال ، وكما كان على أول من آمن من

الأحداث الذين لم يبلغوا الحلم . وفى ذلك السبق يقول المرحوم شوقى أمير الشعراء :

ناجاهم ببينات ربه                      فآمنت بنت خويلد به  
فقليل فيها أسبق الإناث                  وفى على أسبق الأحداث  
وفى الرجال لأبى بكر يد                  يالسبق لم يبلغ مداها سيد

حضانة البشائر :

ما أعظم رشذك يا أماه فى هذا الموقف المجيد ، وما أثبت قلبك الموقن ، ورحم الله العلامة العقاد إذ يقول فى كتابه " فاطمة الزهراء " :

(( لم يجد محمد إلى جانبه فتاة غريرة تفرع ولا تدرى ما تصنع ، بل وجد إلى جانبه قلباً كريماً ، وروحاً عظيماً ، وسكناً تهدياً عنده جائشة ضميره ، وتطمئن إليه خشية فؤاده .  
( ( ولم يكن قصارى الأمان عند حليلته التى سكن إليها حنكة السن وحنان الأمومة ؛ ولكنه أمان الذى يعرف من نشأته ونشأة آله ما الرسالة ، وما أمانة الحق والفضيلة ، وما عاقبة الصبر على العروء التى تندك لها عزائم ، وتطيش لها أحلام ، ولا يتلقاها كما يتلقى البشارة المفرحة إلا من هو كفاء لها من بنى آدم وحواء .  
( ( وكل ما علمناه من سيرة خديجة عليها الرضوان ، خليق على قلته أن يجعلها بحق سيدة نساء قريش . ولكن هذا القليل الذى علمناه لو ذهب

كله ولم يبق منه إلا أيام حضانتها لبشائر النبوة فى طلعتها . لضمن لها أن تتبوا مقام السيادة بين نساء العالمين .

(( وقد بقى محمد يذكر لها تلك الأيام إلى مختم أيامه . وظل يتفقد ما ويتفقد مواطن ذكراها أعواماً بعد أعوام .

(( وإن وفاء كهذا لهو وحده كفاية المستقصى فى التعريف بحقها من زوجة بارة وأم رءوم ، فما من شهادة لإنسانة هى أصدق من دوام الوفاء لها فى قلب إنسان عظيم )) .

لقاء مع ورقة :

ثم ذهب صلى الله عليه وسلم إلى ورقة بن نوفل ، فلم يكذ ورقة يراه حتى صاح :

(( والذى نفسى بيده ، إنك لنبى هذه الأمة ولتؤذنين ولتخرجن ولتقاتلن ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم ، لأنصرن الله نصراً يعلمه )) .

ثم أدنى رأسه إليه فقبل يافوخه ، ثم قال له صلى الله عليه وسلم : أو (( مخرجى هم )) ؟ ! فأجاب ورقة : نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، ليتنى أكون فيها جذعا<sup>١</sup> ، ليتنى أكون حياً .

<sup>١</sup> الجذع أى الصغير .

وفى رواية البخارى : وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم يلبث ورقة أن توفى وفتر الوحي ، وقد طابت نفس الرسول صلى الله عليه وسلم بما سمع من ورقة .

#### صبر اولى العزم:

وأخذ رسول الله فى نشر دعوته ، وقد عادته قومه ولكنه مضى فيها غير عابئ بما يلقاه فى سبيلها من أذى ، ولا عجب فهو كبير اولى العزم من الرسل الذين صبروا على الشدائد فى تبليغ رسالاتهم التى تخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم .  
وقد أندر أول الأمر عشيرته الأقربين ، فلم يستجيبوا له إذ أعماهم الحسد عن طريق الحق ، فلم يروا فيه الرسول العظم ، بل رأوه محمد اليتيم . وكان من شقائهم أن خدعتهم الظواهر ، ولم تجذبهم البواطن ، وإنما خصوصية الأنبياء فى بواطنهم ، وكانوا فى خدعة الظواهر مثل إبليس الذى لم يرى من جوهر آدم إلا الماء والطين ، ولم يره المخلوق المكرم الذى سجدت له الملائكة بأمر ربهم ، فأبى إبليس أن يسجد معهم وقال فى عتوة وكفر يجادل ربه : " أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين " .

#### الحاسدون :

وكذلك كان شأن كفار قريش فقد كبر عليهم أن يخص الله رسوله

صلى الله عليه وسلم بالرسالة دونهم ، فقد حدثوا أن الأخنس بن شريق الثقفى أتى أبا الحكم بن هشام بن المغيرة فسأله : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فأجاب : ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا ( ديات القتل ) ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يؤتية الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه .

أقول : فليعجب القارئ الكريم مما يفعل الحسد بالقلوب فيضلها عن سواء السبيل ، فقد صدقوه صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة ولقبوه بالصادق الأمين ، وحكموه فيما شجر بينهم من خلاف على وضع الحجر الأسود فى البيت الحرام قبل أن يبعث ، فلما بلغهم رسالة ربه كذبوه ، وكان الأولى بهم أن يصدقوه ، ومن يضل الله فلن تجد له وليا مرشدا .

ولقد لقي الرسول الكريم وأصحابه الأولون وهم قلة أذى كثيرا من الكافرين وهم كثرة ، فصبروا على الأذى ، ولما أشدت عليهم الأمر أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة وقال لهم : تفرقوا فى الأرض فإن الله سيجمعكم ، ووجههم إلى الحبشة وقال لهم : إن فيها ملكا لا يظلم الناس عنده ، فهاجروا إليها .

الحصار الجائر :

وأعلنت قريش على بنى هاشم وبنى المطلب ، وهم قومه ، حربا مدنية جائرة اضطرتهم فيها قريش أن يخرجوا من مكة لائذين بشعب أبى طالب فى أطراف مكة حيث أحصروا فيها ، وسجلت قريش مقاطعتها لهم فى صحيفة علقتها فى جوف الكعبة تتضمن ألا يبيعوهم أو يشتروا منهم شيئا أو يتزوجوا منهم .

ولم تتخل أمنا خديجة الكبرى عن الخروج مع زوجها الكريم إلى شعب أبى طالب ، فتركت دارها الحبيبة التى عاشت فيها سنين عددا .

وكانت قد طعنت فى الشيخوخة التى لا تحتمل عادة مثل ذلك الاضطهاد والتشريد ، ولكن إذ لم يكن الوفاء من السيدة خديجة فمنم يكون ، وهى التى آزرت زوجها فى حياته مؤازرة الصدق والأخلاص ، تلك المؤازرة التى ظل يذكرها صلى الله عليه وسلم فى كل مناسبة ولا ينساها أبدا .

الحصار يفشل :

ودام ذلك الحصار ثلاث سنوات ولكنه فشل أمام الصبر الجميل ، كما فشل من قبله إغراء الكفار حين قالوا لأبى طالب : إن ابن أخيك عاب ديننا وسفه أحلامنا . إن كان ابن أخيك طالب ملك ملكناه ، وإن كان طالب مال جمعناه . وإن كان مريضا طيبناه . فلما رجع

أبو طالب وعرض عليه ما عرضوه ، وقال قولته المشهورة : " والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دوته . "

فشل الحصار آخر الأمر أمام الصبر ، وآب الزوجين إلى دارهم الحبيبة فى مكة المكرمة ، ولكن الزوجة الوافية أجهدتها الأعياء ، فلم تعش بعد فك الحصار أكثر من ثلاثة أيام حتى أسلمت روحها الزكية إلى خالقها راضية مرضية . وكان زوجها صلى الله عليه وسلم لا يفارقها فى أيامها الأخيرة لحظة واحدة من ليل أو نهار .

#### عند الأحتضار :

وكانت أم المؤمنين رضى الله عنها تواقفة لأن ترى الدعوة الإسلامية ناجحة كل النجاح ، فلقد قالت لأبنتها أم كلثوم قبل أن تلفظ أنفاسها ، ليت الأجل يمهلنى حتى تنجلى المحنة ، فأموت قريرة العين راضية .

فأجابتها أم كلثوم : لا بأس عليك يا أماه ، ثم خانها الجلد وخنقتها العبرات .

فاستطردت أم المؤمنين تقول : " أى وربى لا بأس على يا ابنتى ، ما من امرأة من قريش ذاقت ما ذقت من نعيم . " بل ما من امرأة فى هذه الدنيا نالت مثل الذى نلت من مجد ، حسبى من دنيائى أنى زوجة الحبيب المصطفى ، وحسبى من آخرتى أننى المؤمنة الأولى ، وأنى أم المؤمنين . "

ثم أسبلت عينيها وهمست :

" اللهم إني لا أحصى ثناء عليك ، اللهم إني لا أكره لقاءك ولكني أطمع في مزيد من التضحية لأكون جديدة بما أنعمت علي " .

ثم ما لبثت روحها أن فاضت والنبي صلى الله عليه وسلم إلى جانبها يهون عليها سكرات الموت ، ويبشرها بما أعده الله لها من نعيم ، وبناتها الثلاث زينب وأم كلثوم وفاطمة يحطن بفراسخها ويودعها قبل الرحيل .

تاريخ الوفاة :

وفي اليوم العاشر من رمضان سنة عشر من المبعث حملت سيدة نساء قريش وأم المؤمنين خديجة الكبرى إلى أرض الحجون حيث أضجعها الرسول صلى الله عليه وسلم بيديه الكريمتين في قبرها ، ثم ودعها وآب إلى بيته محزوناً وصابراً على البلاء المبين .

فراغ كبير :

ويستطيع القارئ الكريم أن يتصور الفراغ الكبير الذي تركته بموتها تلك الطاهرة الزكية لزوجها وبناتها .

أما عن البنات فإنها أمهن التي كانت تحوطهن بالرعاية والحنان ، وأما عن الزوج فإنها لم تكن له زوجة وافية فحسب ، ولكنها كانت الرحمة المهداة ، فقد ائتمنته على تجارتها أجيراً ، وعاونته على خلوته

متفكرا ، وآزارته بعقلها ومالها زوجها ورسولا ، كما كانت أولى المؤمنات القانتات العابدات ، وأولى الصابرات المحتسبات .

بانت عن الدار تلك العاقلة اللبيرة ، الثابتة الرشيدة ، الطاهرة العفيفة النقية التقية ، القرشية الشريفة . وقد كانت العون عند الشدة ، والأمن عند الخوف ، والضوء في ظلمات الحوادث ، والفرج عند توالى الكوارث .

تلك الزوجة المثلى التى عوض الله بها حرمانه من سند الأبوة وعطف الامومة ، حين مات أبوه وهو حمل فى بطن أمه وحين تركته أمه طفلا فى السادسة من عمره ، كما كانت وزيرة الصدق الذى شد الله به الأزر ، وشرح الصدر ، ويسر الأمر .

#### أطول عشرة :

لم يجتمع يا أمه لغيرك من نساءه الطاهرات مثل ما اجتمع لك ، فقد عاشرتيه قبل الرسالة خمسة عشر عاما فنزلت منه منزلة الزوجة من الزوج ، وعاشرتيه رسولا عشر سنين ، فنزلت منه منزلة المؤمنة الأولى من الرسول فتم لك فى عشرته وحدك ربع قرن من الزمان ، وهو ما لم يتيسر لواحدة منهن .

الذرية الطاهرة :

فهل كفأك الله بهذا كله بأن صان ذريته منك ، فكننت الجدة الكبرى للأشراف والشريفات خاصة ، فوق أنك أم المؤمنين والمؤمنات عامة .  
فله ما أعظم المجد ، وما أجل الذكرى .

تزكية وغيرها :

ألهذا يا أمأه كان الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم يذكرك على لسانه وقلبه ما عاش ، ويرحب بما ينتمى إليك نسبا أو صداقة ، حتى لقد هش لأختك هالة وكان صوتها شبيها بصوتك ، فقال حين سمعها فى حنين إليك ، فيما رواه البخارى ومسام بسنده : اللهم هالة . فلم تتمالك أمنا عائشة رضى الله عنها أن تكتم غيرتها منك ، فقالت حين سمعته يقول ذلك : ما تذكر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين هلكت فى الدهر ، أبدلك الله خيرا منها . وتحكى السيدة عائشة رضى الله عنها عما كان موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع منها ذلك فتقول : فتمعر ( أى تغير ) وجهه تمعرا ما كنت أراه إلا عند نزول الوحي أو عند المخيلة حتى ينظر رحمة أو عذابا ، ثم قال :

والله ما أبدلنى الله خير منها ،  
 آمنت بى حين كفر الناس ،  
 وصدقتنى إذ كذبنى الناس ،  
 وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ،  
 ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء .  
 فلم يسع أمنا عائشة رضى الله عنها إلا أن أمسكت وهى تقول :  
 " والله لا أذكرها بعدها أبدا " وهى التى قالت له يوما فى غيرتها من إكثار ذكرها :  
 " كأن لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة " .

فرد عليها صلى الله عليه وسلم : إنها كانت وكانت ، وكان لى منها الولد .  
 وكان صلى الله عليه وسلم إذا ذبح شاه يقول : أرسلوا إلى أصدقاء خديجة ، وقد كلمته أمنا  
 عائشة فى ذلك فقال : إنى أحب حبيبها .  
 وعذرا أمنا السيدة عائشة فى غيرتها تلك واضح ، فهى شابة وضيئة ، ذكية فقيهة ، يربطها  
 به صلى الله عليه وسلم روابط عدة ، من زواجها بوحى ، وإيمان بالله ورسوله ، وصداقة  
 قديمة بين زوجها وأبيها أبى بكر الصديق رضى الله عنه . وهو أول الرجال إسلاما ، وثاتى  
 أننين فى الغار ، والصاحب فى السفر والحضر ، والذى كان مولانا رسول الله صلى الله

عليه وسلم يكلمه رمزا<sup>١</sup> ، حتى قال أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه : كنت أجلس معهم وأسمع كلامهم وكأنى زجى بينهم .

وهى كذلك زوجته الأثيرة الحبيبة إلى قلبه الطاهر وقد تزوجها صغيرة بكرة بعد أن ماتت أمنا الكبرى وهى فى الخامسة والستين ، ولكن خديجة الشبيخة وإن مات جسدها فقد بقى ذكرها جاريا على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلبه ، فحق لزوجته الشابة الأثيرة أن تغار فى تحرك نسوى طبيعى ، وخصوصا أن السيدة عائشة كما وصفوها ، لم يكن لها فى الأمم مثيل فى حفظها وعلمها وفصاحتها وعقلها حتى ورد الحديث المشهور : " خذوا شطر دينكم عن الحمير " .

فلسيدة عائشة عذرها إن قالت : ما غرت من امرأة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما غرت من خديجة لما كنت أسمع من ذكره لها ، وما تزوجنى إلا بعد موتها بثلاث سنين .

#### المرأة الكاملة :

وكما حظين أمنا الكبرى بالشهادة العظيمة السابقة من مولانا

<sup>١</sup> - من أمثلة الكلام رمزا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا أبا بكر أتريد أن أدعوك لأمر ؟ قال وما هو يارسول الله ؟ قال : هو ذاك .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد حظيت بشهادة عظيمة أخرى بأنها من كاملات النساء ، وعن قليل بالقياس إلى كلمة الرجال . فقد روى شعبة عن معاوية بن قره عن أبيه قره بن إياس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (( كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام )) . وقالوا فى التعقيب على ذلك الحديث : والقدر المشترك بين النسوة الثلاث آسية ومريم وخديجة أن كلا منهم كفلت نبياً مرسلًا ، وأحسنن الصحبة فى كفالتها ، وصدقته حين بعث .

يا أمنا خديجة الكبرى ، إنى أقول مرة أخرى : ما أعظم المجد ، وأجل الذكرى . إنك لا تتحدثين عن نفسك لتزكيتها ، ولكن يتحدث عنك ويزكيك أعظم من تحدث من البشر وأصدقهم ، إنه الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم الذى وصفه ربه بصدق الحديث فقال تعالى : (( وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى )) .

فما أروع ذكراك ، وقد خلدها الله على لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم فصارت مضيئة إضاءة السنة النبوية التى ألزمتنا الله بها فى قوله المجيد : ( وما آتاكم الرسول فخذوه ) .

وعلينا إذن أن نتمسك بحبك كما أحبك أحب الأحاب إلى الله ، وأصفي أصفياه ، وسيد أنبيائه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

فإن لم يسعنا العمل الصالح الكثير نفعنا محبتك في الدنو إلى قلبه الطاهر فنتصل به من بابك وعلى معراجك لأنه يقول : إني أحب حبيبها ، حتى لقد احتفى حفاوة بامرأة دخلت داره فسألوه عن سبب تلك الحفاوة فقال : إنها كانت تأتينا زمن خديجة .  
فإنه ما أوفاك يا سيدي يا رسول الله بأمننا خديجة الكبرى في حياتها وبعد مماتها ، وفاء بوفاء ، وعهداً بعهد .

شهادة من غير مسلم :

وها هو ذا رجل غير مسلم ، وهو درمنجم يقول في كتابه " حياة محمد " واصفاً وفاءها الذي قابلته بوفائك :

(( جاءها زوجها من غار حراء خائفاً مقروراً ، غريب النظرات ، فإذا بها ترد إليه السكينة والأمن ، وتسبغ عليه ود الحبيبة ، وإخلاص الزوجة وحنان الأمهات ، وتضمه إلى صدرها ، فيجد فيها حنان الأم الذي يحتمى به من كل عدوان في الدنيا )) .

ويتعرض درمنجم لوفاتها رضى الله عنها فيقول :

(( فقد محمد بوفاة خديجة ، تلك التي كانت أول من عرف أمره فصدقته ،

تلك التي لم تكف عن إلقاء السكينة في قلبه ، تلك التي ظلت ما عاشت تشمله بحب الزوجات  
 وحنان الأمهات )) .  
شهادة كاتبة مسلمة :

ولقد وفقت الدكتورة بنت الشاطئ حين قالت في كتابها القيم " نساء النبي " :  
 (( لقد كانت خديجة ملء حياة الرسول حية وميتة ، وما جاوزت عائشة الحق حين قالت  
 لزوجها الرسول : ( كأن لم يكن في الدنيا امرأة سواها ) .  
 (( وهل كان باستطاعة امرأة سواها أن تأسو جرحه القديم الغائر الذي تركه في أعماقه موت  
 أمه بين يديه ؟  
 (( هل كان لأنثى غيرها أن تهيب له الجو المسعف على التأمل وأن تبذل من نفسها ، في  
 إيثار نادر ، ما أعده لتلقى رسالة السماء .  
 (( هل كان لزوجة عداها أن تستقبل دعوته التاريخية من غار حراء بمثل ما استقبلته هي به  
 ، من حنان مستثار ، وعطف فياض ، وإيمان قوى ، دون أن يساورها في صدقه أدنى ريب ،  
 أو يتخلى عنها يقينها في أن الله غير مخزيه أبداً ؟ !  
 (( هل كان في طاقة سيدة غير خديجة ، غنية مترفة منعمة ، أن تتخلى راضية عن كل ما  
 ألفت من راحة ورخاء ونعمة ، لتقف إلى جانب رجلها

فى أهلك أوقات المحنة ، وتعينه على أقبح أنواع الأذى وصنوف الاضطهاد فى سبيل ما تؤمن أنه الحق ؟

(( كلابى هى وحدها . ولا امرأة إلا مثلها . التى أعدتها الأقدار لتملأ حياة الرجل الموعود بالنبوة ، وتكون لليتيم أما ، وللبلبل ملهمة ، وللمناضل ملاذاً وسكناً ، وللنبي المبعوث ثقة وطمأنينة سلام .

(( قال ابن إسحق : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بخديجة رضى الله عنها . إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه ، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس ، حتى ماتت رضى الله عنها )) .

شهادة كاتب مسلم :

ولتنظر فى ما كتبه عنها بقلمه المشرق المرحوم طه عبد الباقي سرور فى كتابه القيم " خديجة " إذ يقول :

(( نقدم بكتابتنا سيدة نساء العالمين ، خديجة أم المؤمنين ، وأول من نطق كلمة التوحيد بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ،

(( خديجة زوج النبي الأولى ، ومنجبة تلك الذرية الصالحة السامقة التى تضىء لمسلمين إلى يوم الدين .

(( لقد كانت حياة خديجة منذ يومها الأول حياة النبل والقدرة والترفع حتى لقبها قريش بالظاهرة .

وكانت قوافلها التجارية تجوب أقطار الأرض من الشام إلى اليمن ، وكانت تسهم بأموالها فى قوافل قريش كافة ، وتدير تلك المؤسسة المالية الكبرى فى كفاءة وبراعة ، وترفع نبيل شامخ .  
 (( وتلمس خديجة بفطنتها الفطرية ، ما فى محمد من صفات نبيلة ، وأمانة عظيمة ، وتدرك بلماحيثها العبقريّة ما لمحمد الأمين من غد ، توالت به البشائر ، وهتفت به الأنباء ، فتخطبه لنفسها وتدعوه إلى زواجها .

(( ولم ينكر عليها مجتمعها العربى الحر ما فعلت ، ولم ينكر عليها ذووها ما صنعت .  
 (( وتهيىء خديجة لزوجها العظيم ، البيت الهنىء السعيد ، وتشاركه آماله ، وتقاسمه تبعاته ، وتلين له حياته فى وداعة ورقة وحنان .

(( ثم تأتى الرسالة الكبرى ، ويهبط الوحي بآياته ومعجزاته على الزوج الرسول ، وتميد الدنيا ، وتثور قريش ، وتغلى الجزيرة ، وتلتهب الجاهلية كلها ،  
 (( وتثيت خديجة فى وجه العاصقة المدوية ، بل إنها تثبت محمداً النبى سيد المرسلين بكلماتها الخالدة ،

(( ويعصف الغضب المجنون بقريش ، فتقبل على النبى وصحبه بالعذاب الشديد الغليظ ، ثم يزداد الغضب المجنون ، فتحصر النبى وآله فى واد من أودية مكة وتضرب حصارها العنيف الحقود ، فلا طعام ولا تجارة ، ولا لقاء ولا مودة .

(( وثبتت خديجة وتهب مالها الضخم الوفير للدعوة حتى ينفد ، وتهيب بعصبتها النبيلة فتلبى وتحطم الحصار .

"عاشت مع زوجها سيد المرسلين ، فما اختلفا يوما ، لم يرتفع فى البيت الكريم شئ مما يرتفع فى بيوت الناس ، بل كان الحب صاقيا ، والود مشرقا . ويكبرها الرسول الزوج إكبار ما ظفر به أحد من العالمين ، فما يقاس بها شئ إلا رجحته ، وما يطيق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خديجة قولاً .

"إنها لتراث عالى ، وشعلة إنسانية مضيئة ، لا للمسلمين قحسب ، بل لبنى الإنسان كافة ، ما دامت أبصارها تتطلع إلى كل شئ نبيل مضيء ، " لقد أعرضت خديجة عن سادات قريش ، وهى تعلم أن الله جل جلاله قد أعدها واصطفاها لتكون الزوجة الحبيبة لسيد العالمين وخاتم المرسلين .

" . . . الزوجة التى سيرسل لها ربها سبحانه ، على لسان جبريل الأمين تحيات مباركات وبشرى بأنها :

سيدة نساء العالمين ،

وأفضل نساء الجنة ،

روى البخارى قال :

حدثنا قتيلة ، حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان ، عن أبى عمارة ، عن أبى زرعة ، عن أبى هريرة ، قال :

أتى جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " يارسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام - طعام أو شراب - فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني ، وبشرها ببيت في الجنة من قصب<sup>١</sup> ، لا صخب فيه ولا نصب " .

وقال بن هشام : وحدثني من أثق به أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قتال : أقرئ خديجة السلام من ربها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا خديجة هذا جبريل يقرئك السلام من ربك ، فقالت خديجة : الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام .

قال السهيلي : وإنما بشرها ببيت في الجنة من قصب لأنها حازت قصب السبق في الإيمان ، لا صخب فيه ولا نصب ، لأنها لم ترفع صوتها على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم تتعبه يوماً من الدهر ، فلم تصخب عليه يوماً ، ولا آذته أبداً .

رضاء الله عز وجل :

أقول : وأنى بعد هذا الحديث الشريف الذى ساقه إلينا بسنده شيخ المحدثين الإمام البخارى رضى الله عنه : هنيئاً لك يا أمنا الكبرى هذا النوال العظيم ، السلام من رب العلمين ، وهنيئاً لك السلام من أمين

<sup>١</sup> - القصب : النول .

الوحي وكبير الملائكة المقربين سيدنا جبريل عليه السلام ، وهنيئاً لك جنات عرضها السموات والأرض .

جناته قد فتحت لك كلها فتخيري ما شئت يا أماه

لقد بشرك الله يا أماه بسلامه عليك برضاه عنك سبحانه ، وما أسمى رضاه ، فليس وراءه لأهل الإيمان غاية ، وليس بعده لمؤمن ولا مؤمنة مطمع ، وكيف وهو الأفق الأعلى الذى تصبوا إليه أرواح المحبين ، ويقف عنده شوط الصديقين والأبرار المحبوبين من عباده المقربين .

ما سلم الله عليك يا أماه إلا بعد أن اجتباك واصطفاك على نساء العالمين ، فكنت أول مؤمنة فى هذه الأمة التى شاء الله أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، فكنت السابقة الأولى فى الأمة المختارة ، فأنت المؤمنة الفضلى فى الأمة الفضلة ، وقد بلغك بسلامه قبل بقية المؤمنين والمؤمنات الذين يحييهم فى الجنة بالسلام ، فما أجل مقامك فى مقامات الكرام .

وها أنت ذى يا اماه تتمتعين برياض الجنة ونعيمها ، فهل اختار الله لك قصرًا من لؤلؤ لياهى بك لآلى الجنة ونعيمها ، أو ليزين بك ذلك القصر بما قدمت يداك للإسلام والمسلمين ويجعلك فيه الدرة المكنونة التى انطوت عليها غرفاته ، كما كنت الدرة المكنونة التى انطوت عليها أرجاء مكة المكرمة بل أرجاء الدنيا . وهل اختار الله أن يكون قصرك من لؤلؤ ، ليقابل صفاء إيمانك

بصفاء مسكنك فى الجنة ، أو ليجمع بك اللؤلؤ صفاء الظاهر والباطن كما جمعت أنت فى الدنيا بين صفاء الظاهر والباطن .

أو هل أراد سبحانه أن يزين بك نساء الجنة ، كما زين أعناقهن فى الدنيا باللؤلؤ ، ولكن أين لؤلؤ الدنيا من لؤلؤ الآخرة ، شتان بين الدارين ، وشتان بين الزينتين .

أو هل أراد الله أن يظهر لنساء المؤمنين فضلك لتكونى لهن الزعيمة المثلى ، فتقتدى بك الزوجة فى عشرتها لزوجها ، والأم فى تربية أبنائها والعبادة فى تربية روحها فى جنب الله تعالى .

ما أريح تجارتك يا أمه حين عرفت بسببها أعظم البشر وأخذت عنه الإيمان الذى يرخص فى جنبه الذهب والفضة وهما متاع الدنيا الفانى وعرضها الزائل .

#### الحظ الأسعد :

وحقا ما يقول العارفون : ليس الإيمان ما يتزين به العبد من الأقوال والأفعال ولكنه جرى السعادة فى سوابق الأزل .

فقد رفضت الزواج من عليّة قريش وأكابريهم ، ثم دعيتك مزايًا

أمينك أن تخطبيه لنفسك زوجاً بعد رفضهم ، فكنت أسعد سعيدة بزواجه منك ، ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله عليماً .

وما أصدق العلامة العقاد حين يقول في كتابه " فاطمة الزهراء " :

(( ( وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ) ، وأماننا ألف مصداق على هذه الآية في سيرة الرسول العظيم الذي تنزلت عليه تلك الحكمة الإلهية .

(( لقد تأخرت به قلة المال ، فلم يتزوج قبل العشرين ، خلافاً لما جرى عليه العرف بين عليّة القوم ، وهو من تلك العلية في الذؤابة العليا .

(( ولو كثر مال محمد لعله كان يبني قبل العشرين كريمة معشر تصغره ببضع سنين ، وكان هذا هو الحظ السعيد في عرف كل إنسان عاقل رشيد .

(( ولو تيسرت الهناءة الزوجية لخديجة لعلها كانت في غنى عمن يتجر لها ويؤتمن على قوافلها بين الحجاز والشام وكان لها من مالها ومال زوجها عون في الرحلة والمقام ، وكان هذا هو الحظ السعيد في عرف كل إنسان .

عاقل رشيد :

(( أيهما كان خيراً ، هذا الذي كان كما كان ، أو ذاك الذي كان تحسبه كل عاقل رشيد صفوة الحظ الحسن الرشيد ؟

### مقارنة بين السيدة خديجة والسيدة عائشة :

يقول الإمام ابن كثير فى كتابه السيرة النبوية :

وقع نزاع بين العلماء قديماً وحديثاً فى المفاضلة بين السيدة خديجة والسيدة عائشة . وأهل التشيع لا يعدلون بالسيدة خديجة أحداً لسلام الرب عليها ، وكون أولاد النبى صلى الله عليه وسلم جميعهم منها إلا إبراهيم ؛ وكونه لم يتزوج عليها حتى ماتت ، إكراماً لها وتقديراً لإسلامها ؛ وكونها من الصديقات ولها مقام صدق فى أول البعثة ، وبذلت نفسها ومالها لرسول الله .

وأما أهل السنة فتحملهم قوة التسنن على تفضيل عائشة لكونها ابنة الصديق ، ولكونها أعلم من خديجة ، فإنه لم يكن فى الأمم مثل عائشة فى حفظها وعلمها وفصاحتها وعقلها ؛ ولم يكن الرسول يحب أحداً من نسائه كمحبته إياها ؛ ونزلت براءتها من فوق سبع سموات . وروت بعده صلى الله عليه وسلم علماً جمّاً طيباً مباركاً فيه ، حتى قد ذكر كثير من الناس الحديث المشهور (( خذوا شطر دينكم عن الحميراء )) .

ويقعب الإمام ابن كثير رضى الله عنه . ويعجبني تعقيبه . فيقول : والحق أن كلا منها لها من الفضائل ما لو نظر الناظر فيه لبهره وحيره ، والأحسن التوقف ورد الأمر فى ذلك إلى الله عز وجل .

ويستطرد الإمام ابن كثير فيقول : ومن ظهر له دليل يقطع به ،

أو يغلب على ظنه فى هذا الباب ، فذاك الذى يجب عليه أن يقول بما عنده من العلم . ومن حصل له توقف فى هذه المسألة أو فى غيرها فالطريق الأقوم والمسلك الأسلم أن يقول : الله أعلم .

#### حرمة الأمومة :

وانى أضيف إلى ما انتهى إليه الإمام ابن كثير فأقول : وعلينا نحن المؤمنين أن ننزل منهما ومن سائر أمهات المؤمنين منزلة الأبناء ، ونحفظ حرمتهم فى أمومتهم التى شرفنا الله بها فى قوله تعالى : ( النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ) ونعرف مزايا كل منهن . فتلك المزايا هى رأس مال لهن وشرف لنا ، كيف لا وهن القانتات العابدات الصالحات ، وقد توجهن القرآن الكريم بقوله تعالى : ( ومن يقنت منكن لله ولرسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً ) .

#### حرمة الأبوة :

كما أن أمومتهم قد ربطتنا برباط أعظم أبوة ، وهى أبوته صلى الله عليه وسلم لنا . وهو أمير الأنبياء والمرسلين ، فكنا خير أمة أخرجت للناس . ولا تنس أيها المؤمن أن الله تعالى جعل طاعته طاعة له ( من يطع الرسول فقد أطاع الله ) . وجعل بيعته بيعة له سبحانه ( إن الذين

يباعونك إنما يبايعون الله ) . وجعل طاعته سبيل الأهداء إلى الحق ( وإن تطيعوه تهتدوا ) .  
 وجعل اتباعه طريقاً إلى محبته ومغفرته سبحانه ( قل أن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله  
 ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ) فيا شرفنا بهذه الأبوة النبوية .

نسب أمنا الكبرى :

أمنا الكبرى قرشية أبا وأماً كما ترى :

فأبوها خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة ابن كعب بن لؤى بن غالب بن  
 فهر .

وأُمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن راحة بن حجر بن عبد ابن معيص بن عامر بن لؤى  
 بن غالب بن فهر .

وأُم فاطمة ، هالة بنت عبد مناف بن الحارث بن عمرو بن منقذ ابن عمرو بن معيص بن  
 عامر بن لؤى بن غالب بن فهر .

وأُم هالة ، قلابة بنت سعيد بن سعد بن سهم بن معيص ابن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر .

النسب ونظرة التدين :

ويعقب العلامة العقاد على ذلك النسب فى كتابه " فاطمة الزهراء " فيقول :

(( ولدت السيدة خديجة لأبوين كلاهما من أعرق الأسر فى الجزيرة

العربية ، وكلاهما ينتهي نسبه إلى لؤى بن غالب بن فهر، بل كانت أمها تنتسب من ناحية أمها كذلك إلى هذا النسب المعرق في النبل والسيادة ، وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوفرة ، فكانت قافلتها إلى الشام تعدل قوافل قريش أجمعين في كثير من الأعوام .  
 (( وأهم من هذا جميعاً بالنسبة إلى زوجة نبي ، وإلى جدة الأئمة من بيت النبوة ، أنها كانت مفضولة على التدين وراثه وتربية . فأبوها خويلد هو الذي نازع " تبعاً " الآخر حين أراد أن يحتل الركن<sup>١</sup> الأسود معه إلى اليمن ، فتصدى له ولم يرهب بأسه ، غيرة على ذلك المنسك من مناسك دينه . وابن عم السيدة خديجة هو ورقة بن نوفل الذي رجعت إليه حين بدالها من اضطراب النبي عليه الصلاة والسلام عند مفاجأته بالوحي ما أزعجها . فركبت إلى ورقة سائلة لعلمه بالدين وعكوفه على دراسة كتب النصارى واليهود ؛ ولم تكن الكهانة الدينية وظيفه ينتفع بها صاحبها إذ لم يكن في مكة مسيحيون يرجعون في امرهم إلى كاهن أو كنسية . وإنما كان عكوف الرجل على دراسة الدين لطبيعة فيه توحى إليه الشك في عبادة الأصنام ، وتجنح به إلى البحث والمراجعة، عسى أن يهتدى إلى عقيدة أفضل من هذه العقيدة ، وينسب إليه شعر كان يقوله في الجاهلية ، يشبه شعر أمية بن أبي الصلت . ويروى في الكتب

---

<sup>١</sup> أى الحجر الأسود .

السيرة أنه استغرب على السيدة خديجة باسم جبريل حين ذكرته له ، وقال لها أنه السفير بين الله وأنبيائه ، وأن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به ولا يتسمى باسمه .

(( وقد جاء حديث ورقة مع السيدة خديجة على روايات مختلفة لا يغنيا أن نستقصيها لأن المهم فى الأمر هو وجود هذا الشغف بمدارسة الأديان بين بنى عم السيدة خديجة الأقربين . فهذا ، وانفراد أبيها بين زعماء مكة بالوقوف لعاهل اليمن والمخاطرة بنفسه غيره منه على مناسك الكعبة كافيان للإبانة عن طبيعة التدين التى ورثتها الأسرة ، من كان منهم على الجاهلية ومن تحول عنها إلى النصرانية )) .

#### أزواج السيدة خديجة الكبرى :

تزوجت ، رضى الله عنها ، أبا هالة بن زرارة التميمى ، وهو من هامات مكة ، وقد مات فى الجاهلية ، وقد ولدت له هنداً الصحابى وهالة الذى كان له صحبة أيضاً .

وكان هند ابنها فصيحاً بليغاً وصافاً ، وهو الذى وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم أوفى وصف فى الحديث المروف الذى رواه عنه الإمام الحسن السبط رضى الله عنه .

وقد شهد هند غزوة بدر ، وقيل غزوة أحد ، وكان يقول : أنا أكرم الناس أباً وأماً وأختاً .  
أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخى

القاسم ، وأختى فاطمة ، وأمى خديجة ، رضى الله عنهم . وقد قتل هند وهو يقاتل فى صف إمامنا على فى معركة الجمل ، وهو الراجح . وقيل : مات بالطاعون بالبصرة ، ويقال : إن الى مات بالطاعون بالبصرة ابنه وكان يسمى هنداً أيضاً . وبعد أن مات أبو هالة تزوجت السيدة خديجة عتيقاً بن عابد المخزومى ، فولدت له بنتاً اسمها هند ، وقد أسلمت وصحبت .

وقد اختلف الرواة فى أى زوجيها المذكورين كان الأول ، ولكنه على كل حال زواج لم تطل مدته . وقد أعرضت عن الزواج بعدهما مع كثرة المتقدمين لها من أشرف قريش ، حتى يعدت آخر الأمر وأسعدت بزواجها من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فصارت علماً خفاقاً فى تاريخ الإسلام والمسلمين ، بل فى تاريخ البشر أجمعين .

#### زواجها بالرسول صلى الله عليه وسلم :

وقد اختلفت الروايات فى سن أمنا الكبرى عند زواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمن قائل أنها كانت فى سن الأربعين ، ومن قائل إنها كانت فى الخامسة والأربعين ، ومن قائل إنها كانت فى الثامنة والعشرين ، ومن هؤلاء ابن عباس رضى الله عنهما . ويرجح العلامة العقاد رواية ابن عباس ، ويقول فى كتابه " فاطمة الزهراء " :

(( وأحر بهذه الرواية أن تكون أقرب الروايات إلى الصحة ، لأن ابن عباس كان أولى الناس أن يعلم حقيقة عمرها ، ولأن المرأة في البلاد كجزيرة العرب ، يبكر فيها النمو ويبكر فيها الكبر ، لا تتصدى للزواج بعد الأربعين ، ولا يعهد في الأغلب الأعم أن تلد بعدها سبعة أولاد. ))  
 (( وقد يرجح تقدير ابن عباس غير هذا أن مثل خديجة تتزوج في نحو الخامسة عشر أو قبلها ، لجمالها ومالها وعراقة بيتها وطمأنينة أهلها ، فلا تتجاوز الخامسة والعشرين بعد زواجين لم يكتب لهما طول الأمد ، وإن كنا لا نعرف على التحقيق كم من السنين دام زواجها من أبي هالة ومن عتيق بن عائد ، فمن الكلام عن ذريتها منهما يبدو أن أيامها معهما لم تزد على بضعة أعوام )) .

أقول وهذه وجهة نظر لها قيمتها من الناحية النظرية ، ولكن من الناحية العملية والطبية ليس هناك ما يمنع المرأة من الحمل وإنجاب الأولاد إلى سن الخمسين . وقد كانت أمنا الكبرى تدفع بأبنائها وبناتها إلى المراضع . فيما عدا فاطمة الزهراء وهي أصغر أولادها فقد أرضعتها بنفسها . وهذا ما يسمح لها بالحمل المتوالى ، وبين الأربعين والخمسين يمكننا أن نتصور بسهولة أن زواجها وهي في سن الأربعين كان محتملا .

أما عن رواية ابن عباس ، فهو في ذاته حجة لكن يلاحظ أنه لم

يعاصر زواج أمنا الكبرى من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه ولد قبل الهجرة بثلاث سنين . وقد يكون سمع من غيره أنها كانت فى سن الثامنة والعشرين فروى ما سمع .  
والذى يدعونى إلى ترجيح زواجها فى سن الأربعين ، أن السيدة عائشة رضى الله عنها وصفتها حين غارت من نكرها بأنها عجوز حمراء الشدقين . فلو أخذنا أنها كانت فى الثامنة والعشرين عند الزواج لكانت عند موتها فى سن تتجاوز الخمسين بقليل ، ولا توصف المرأة عادة أنها عجوز وهى فى نحو الخمسين ، والله تعالى أعلم بالحقيقة . وأهم ما يعيننا أنها كانت عند الزواج أيما وأسن كثيراً من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم لتدفع بذلك ما يتخرص به المتخرصون من المستشرقين أعداء الدين عندما يهاجمون تعدد زواجه الشريف بأزواجه الطاهرات .

وقد جاوزت أمنا الكبرى عند موتها الخمسين بيقين على أى من الروايات السابقة ولم يشاركها فى بيت الزوجية ضرة من الضرائر . وكان مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موتها فى سن الخمسين .

وقد قضى زهرة شبابه معها منفردة بمكة المكرمة لا تشاركها أى من الضرائر اللائى تعددن بالمدينة النورة لمبررات اقتضتها ظروف الرسالة ، وهى بعيدة كل البعد عما يتخرص به المتخرصون عداوة وحسداً من عند أنفسهم التى تضمير السوء للإسلام والمسلمين .

شهادة فرنسى :

على أننا فى هذه المناسبة نذكر أن بعض المصنفين من كتاب الغرب قد شهدوا بكمال الرسول صلى الله عليه وسلم فى عشرته الزوجية ، فها هو ذا الكاتب الفرنسى " أتنيه دينيه " فى كتابه رسول الله يقول :

(( كان لخديجة فى نفس الرسول جاذبية قوية لطيفة فلم يشرك معها غيرها طيلة حياتها ، ورغم أنه كان فى ريعان شبابه فإنه لم يقبل الزواج بأخرى مع أن التقاليد كانت تسمح بذلك ، ومع أن الأسباب من كل جانب كانت تمهد له وتغرى به . وإذا كانت قد فارقتة فإن ذكرها دائما كانت على لسانه ، وكانت عائشة التى صارت زوج الرسول المفضلة تجد لذع الغيرة وتحس به فى قسوة .

(( ورغم جمال عائشة وذكائها ، وما تحلت به الأخريات من جمال وفطنة ، فإنه كان دائماً يفضل عليهن خديجة ويعدها واحدة من أربع نساء أكمل من وجد على ظهر البسيطة . أما الثلاثة الأخريات فهن آسيا امرأة فرعون التى أنقذت موسى ، ومريم أم عيسى ، وفاطمة الزهراء بنت محمد من خديجة .

(( واثر خديجة فى حياة الرسول ، لا يماثله إلا أثرها فى حياة الإسلام وتاريخه )) .

أولادها من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم :

لا خلاف فى أن جميع أولاد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم كلهم من السيدة خديجة رضى الله عنها ، ماعدا إبراهيم عليه السلام فإنه ولد بالمدينة من السيدة مارية بنت شمعون القبطية عليها السلام .

واختلف الرواة فى عدد الذكور من السيدة خديجة .

فالذى فى سيرة ابن هشام قول ابن إسحق : أكبر بنيه القاسم ثم الطيب ثم الطاهر . . . فأما القاسم والطيب والطاهر فماتوا فى الجاهلية ، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه .

وفى تاريخ الطبرى ما نصه : ولدت خديجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم القاسم ، والطيب ، والطاهر ، وعبد الله ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة .

وجاء فى الاستيعاب : وأجمعوا أنها ولدت له أربع بنات كلهن أدركن الإسلام وهاجرن . وهن زينب وفاطمة ورقية وأم كلثوم . كما أجمعوا أنها ولدت ابنا يسمى القاسم ، وبه كان يكنى صلى الله عليه وسلم . هذا ما لا خلاف فيه بين أهل العلم . وقال معمر عن ابن شهاب : زعم بعض العلماء أنها ولدت له ولدا يسمى الطاهر .

وقال بعضهم : ما نعلمها ولدت له إلا القاسم وولدت له بناته الأربع .

وقال عقيل عن ابن شهاب : ولدت له خديجة فاطمة وزينب وأم كلثوم

ورقية والقاسم والظاهر . وقال قتادة ولدت له خديجة أربع بنات وغلّامين هما القاسم وبه كان يكنى وعبد الله مات صغيراً .

وفى الروض الأنف للسهيلى رواية عن الزبير بن العوام بن خويلد : ولدت خديجة له القاسم وعبد الله ، وهو الظاهر والطيب ، سمي بالظاهر والطيب لأنه ولد بعد النبوة ، واسمه الذى سمي به أولاً عبد الله . وبلغ القاسم سن المشى غير أن رضاعته لم تكن كملت عندما مات . ورتبهم سيدى أحمد الحلوانى الخليجى ( والد شيخى وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى ، رضى الله عنهما ) فى كتابه " مواكب الربيع فى مولد الشفيح " حسب ترتيب ولادتهم فى نظمه :

ورقية هب لى القبول وفاطمة	بالقاسم ابن المصطفى وبزينب
وقنى بإبراهيم شر الحاطمة	وبأم كلثوم و عبد الله جد

توفيق :

وتقول الدكتورة بنت الشاطيء فى كتابها القيم " بنات النبى " عليه الصلاة والسلام : (( وليس التوفيق بين هذه الروايات بمتعذر ، فيما يختص بعدد أبنائه صلى الله عليه وسلم . فقد يقال أن اللقب التبس بالاسم ، وجعل الطيب والظاهر ولدين مع القاسم فهم ثلاثة ، أو مع القاسم وعبد الله فهم أربعة . وما الطيب والظاهر . على الأرجح . سوى لقبين لعبد الله ، وبذلك

يكون للنبي صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة ولدان اثنان وهو المشهور عند جمهور المسلمين ، وهو ما يمكن ترجيحه بعد مقابلة كل الروايات .

(( أما فيما يختص بوقت ولادتهما ووفاتهما فالتوفيق فيها أشق وأعسر فقد انفرد ابن إسحق بالرواية . دون إسناد . عن موتهما في الجاهلية ؛ على حين روى غيره أن القاسم ولد في الجاهلية ومات في الإسلام ، وأما عبد الله فولد ومات في الإسلام . وذكروا في سندهم الزبير ابن العوام وهو ابن أخت السيدة خديجة ، وأحد العشرة السابقين إلى الإسلام . وتستطرد الدكتورة بنت الشاطيء فتقول :

(( وأيا ما كان الأمر ، فالذى لا ريب فيه أن البيت المحمدي لم تطل فرحته بولديه ، فقد ماتا طفلين قبل المبعث أو في مستهله . ولعلنا لو حاولنا أن نلتمس دليلا يؤيد هذا لوجدناه في سورة الكوثر . وسورة الكوثر مكية مبكرة ، فهي الخامسة عشر في ترتيب النزول بين السور المكية التي بلغت عدتها تسعا وثمانين سورة .

(( وقد روى ابن سعد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان أكبر ولد الرسول صلى الله عليه وسلم القاسم ثم زينب ثم عبد الله ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية . فمات القاسم ، وهو أول ميت من ولده بمكة ثم مات عبد الله ، فقال العاص بن وائل السهمي : قد انقطع نسله فهو أبتز

فأنزل الله عز وجل ( إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شائئك هو الأبتىر ) .  
ويقول الزمخشرى فى تفسيره السورة : إن من أبغضك هو الأبتىر لا أنت ، لأن كل من يولد من  
المؤمنين فهم أولادك وأعقابك ، وذكرك مرفوع على المنابر إلى يوم القيامة وعلى لسان كل  
عالم وذاكر إلى آخر الدهر يبدأ بذكر الله ويثنى بذكرك فمثلك لا يقال له أبتىر ، وإنما الأبتىر هو  
شائئك المنسى فى الدنيا والآخرة ، وإن ذكر ذكر باللعن .

(( وقال ابن سعد : ثم ولدت له مارية بالمدينة إبراهيم فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة  
فمات ابن ثمانية عشر شهراً .

(( وكانت السيدة خديجة إذا ولدت ولداً دفعته إلى من يرضعه ، فلما ولدت فاطمة لم يرضعها  
غيرها )) .

#### مناقب السيدة زينب بنت الرسول :

قال عبد الرازق بن جريج : قال غير واحد : كانت زينب كبرى بنات الرسول صلى الله عليه  
وسلم ، وكانت فاطمة صغارهن وأحبهن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتزوج زينب أبو  
العاص بن ربيع ، فولدت منه علياً وأمامة وهى التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم  
يحملها فى الصلاة فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها .

وكانت وفاة السيدة زينب فى سنة ثمان من الهجرة ، وقد تزوج الإمام على كرم الله وجهه بابنتها أمانة بعد موت خالتها السيدة فاطمة الزهراء .

وذكر حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه أن السيدة زينب لما هاجرت ( من مكة إلى المدينة ) دفعها رجل فوقعت على صخرة فأسقطت حملها ، ثم لم تزل وجعة حتى ماتت ، فكانوا يرونها ماتت شهيدة .

وزوج السيدة زينب ، العاص بن ربيع ، كان أحد رجال مكة المعدودين شرفا ومالا ، وهو ابن خالتها ، وكانت السيدة خديجة خالته تنزلة منزلة الابن .

وهو قرشى صميم ، يلتقى نسبه من جهة الأب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الجد الثالث عبد مناف بن قصى فهو : أبو العاص ابن ربيع بن عزي بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى .

ويلتقى نسبه من جهة الأم مع زوجته السيدة زينب عند جدها الأذى خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ؛ فأمه هالة بنت خويلد أخت السيدة خديجة . وقد مر عليك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرح بدخولها عليه وقال : " اللهم هالة " لأن صوتها كان يشبه صوت أختها السيدة خديجة التى ظل يذكرها ولا ينسها ، ومع هذا كله رأى فتيان

بنى هاشم من أبناء عمومة السيدة زينب أنهم كانوا أولى بزواجها من العاص بن الربيع . وكان العاص بن الربيع إلى جانب أصله العريق ، وعرقه الطيب ، كريم الخلق ، نبيل المسلك ، حتى لقبه قومه بالأمين . وقد وثق بأمانته تجار مكة وائتمنوه على أموالهم وتجارتهم فكان يسافر للتجارة ويغيب عن داره فيحن إلى زوجته السيدة زينب التي غبطه على زواجه منها أبناء عمومتها من بنى هاشم لما كانت تتحلى به من جمال وكمال .

وكان العاص بن ربيع يعود من سفره أحياناً فيروى لها بعض أشعاره التي كان ينشدها في حنينه إليها وتقديره لها وهو بعيد عنها ، ومن ذلك قوله :

ذكرت زينب لما ور كت أرمأً      فقلت سقيا لشخص يسكن الحرما  
بنت الأمين جزاها الله صالحاة      وكل بعل سيثنى بالذى علما

أعظم البشرى :

وقد ذهبت السيدة زينب في غياب زوجها تزور أسرتها ، فإذا بأختها الحبيبة فاطمة الزهراء التي كانت السيدة زينب حاضنة لها ، تزف لها أعظم البشرى وتقول لها :

(( أو ما يسرك يا أختي أنك بنت نبي هذه الأمة )) ؟ !

فأجابت السيدة زينب قائلة :

(( أجل والله يا فاطمة . وأى فتاة لا يزدهيها ذلك الشرف الذى

ما بعده شرف ، لكنه الذى سمعت وسمعت من قول خالى ورقة بن نوفل : ليكذبن أبى وليؤذنين وليخرجن وليقاتلن )) .

فردت الزهراء قائلة : هو والله ما قالت أمى لأبى :

(( الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

(( والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة )) .

صدق الشائعات :

وعندما عاد بن الربيع من إحدى رحلاته سمع الشائعات تتناقلها الرواة عن ظهور محمد بن عند الله بدين جديد .

وأكدت له زوجته السيدة زينب صحة الشائعات وأخبرته أنها أسلمت وتابعت أباها على دينه .

فقال وهو فى حيرة : أو فعلتها يا زينب ؟ !

المسلمون الأوائل :

قالت : ما كنت لأكذب أبى ، وإنه والله لكما عرفت : الصادق الأمين ، واستطردت تقول :

وكذلك أسلمت أمى وإخوتى وأخواتى وعلى ابن العم أبى طالب وأبو بكر ، وأسلم من قومك ابن عمك عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ، وابن خالك الزبير بن العوام بن خويلد .

دعوة إلى الإسلام :

فلما رآته صامتا قالت له : ما بك يا ابن الخالة ؟ !

فأجاب :

إنى خائف لو تبعته لقال الناس : فارق دين آبائه إرضاء لزوجه وحميه .

فعقبت قائلة : لكنك لن تدع كلام الناس يثنيك عن الحق .

فسألها : وهل فكرت يا زينب حين تبعت دين أبيك ، فيما يحدث لو أنى بقيت على دين آبائى .

فأجابت : كلا يا ابن الخالة ، بل رجوت أن تسبق إلى الإسلام ، كما سبق إليه من قومك

عثمان ابن عمك والزبير ابن خالك .

وخرج ابن الربيع من الدار ثم عاد إليها فى غسق الليل وقال لها :

لقيت أباك اليوم فى الكعبة يا زينب ودعانى إلى الإسلام .

ولم يزد على ذلك . . .

وللقارئ أن يتصور ما فهمته من أنه لم يسلم كما يتصور أى اشفاق عليه داخلها ، لأنها كما

أحبت الخير لنفسها أحبته لزوجها ؛ ولكن زوجها كان يحسب حساب قومه ويخاف أن يعيروه

لو أسلم .

ولم يخف على ابن ربيع ما تكابده السيدة زينب من إشفاقها عليه وكأنما أراد أن يبثها عذره فقال لها ذات ليلة :

والله ما أبوك عندي بمتهم ، وليس أحب إلى من أن أسلك معك يا حبيبة في شعب واحد ، ولكنى أكره أن يقال أن زوجك خذل قومه وكفر بأبائه إرضاء لامرأته ، فهلا قدرت وعذرت ؟  
أمل مرتقب :

وقد استشفيت من كلامه أنه غير مصر على الكفر ، وأنه مهياً للإسلام بثقته في أبيها ، فصبرت وتعلت بأمل خفف عن نفسها مرارة الألم والإشفاق .

#### الجهر بالدعوة :

وقد جهر مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوته ، وأنذر عشيرته الأقربين ، فلم يتبعه إلا نفر قليل استضعفوا وأوذوا في سبيل الله . فصبروا على الأذى حتى أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى الحبشة . وكانت السيدة رقية أخت السيدة زينب فيمن هاجر هي وزوجها عثمان بن عفان .

#### الهجرة إلى المدينة :

وبعد ثلاث عشرة سنة من الدعوة النبوية أذن لمولانا رسول الله

صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة المنورة ، ولم يكن معه بمكة حينئذ من أصحابه غير صاحبيه الجليلين : على بن أبي طالب وأبو بكر الصديق ، رضى الله عنهما .  
 أما صاحبه على بن أبي طالب رضى الله عنه فقد أبقاه ليرد عنه الودائع إلى أهل مكة وقد كانوا يأتون عليها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومع ثقتهم هذه فيه قبل الرسالة كبر عليهم أن يستجيبوا لدعوة الحق التى دعاهم إليها بعد الرسالة .  
 وأما صاحبه أبو بكر رضى الله عنه فقد صحبه فى الهجرة إلى المدينة المنورة فكان ثانى اثنين إذ هما فى الغار .

وعلمت السيدة زينب بهجرة أبيها إلى المدينة المنورة ، كما علمت أن صاحبه أبا بكر هاجر معه ، لكنها علمت كذلك أن كفار مكة يطاردون أباها وذلك ما أدخل الرعب على قلبها .  
 ولبثت السيدة زينب مرعوبة أياما حتى علمت أن أباها . صلى الله عليه وسلم . وصل إلى المدينة المنورة محفوظا برعاية الله فطمأنت عليه .  
 وأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم فى طلب أختها فاطمة وأم كلثوم فهاجرتا إلى المدينة ، وبقيت السيدة زينب وحدها بمكة فى بيت زوجها ابن الربيع ولم يكن الإسلام قد فرق بينهما بعد .

وكان ابن الربيع حسن العشرة على رغم كفره إذ ذاك ، لكن السيدة زينب يؤلمها أن ترى زوجها بعيداً عن دين الحق الذى ودت له

أن يسعد به . وقد وانضاف ذلك الألم إلى ألم الوحشة التي خلفتها هجرة الأحباب ؛ فقد خلت من أهلها الدار التي نعمت فيها بأكرم أبوة وأظهر أمومة وأسعد أخوة .

#### غزوة بدر الكبرى :

وتضاعفت آلامها حين علمت بمسيرة قريش في ألف مقاتل لحرب أبيها في غزوة بدر الكبرى . وكان زوجها ابن الربيع فيمن خرج مع المقاتلين من قريش ؛ فانتابها القلق على أبيها وأصحابه من جهة ، وعلى طفلها على وأمامة اللذين يتعرضان لليتم إذا قتل زوجها في المعركة .

وتبلبل فكرها في الناحيتين ، فإنه يسوءها أن ينكسر المسلمون في الحرب فيؤذى ذلك أباهما العظيم ، كما يسوءها أن يقتل زوجها بين الكافرين فيخسر الدنيا والدين .

#### الفرج :

وجاءها فرج الله وهي في تلك الشدة ، وعلمت بانتصار المسلمين وهم قلة على الكافرين وهم كثرة فهتفت شاكرة : انتصر أبي ، وا فرحتاه !!

#### فداء الزوج الأسير :

لكن قلقها على زوجها بقي كما كان ، لكنه ما لبث أن زال عنها حين علمت أنه وقع أسيرا في قبضة المسلمين ولم يكن فيمن قتل من الكافرين .

وقد أرسلت قريش تفتدى الأسيرة بالأموال . وهانت عليهم الأموال فى فكاك الرقاب حتى أن المرأة لتسأل عن أعلى ما فدى به قرشى ، فيقال أربعة آلاف درهم فتبعث بمثلها فى فداء ابنها .

وقد تأمل رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسرى حين وصلوا إلى المدينة ، فاستبقى عنده صهره ابن الربيع ، وفرق الباقيين على أصحابه وقال لهم : استوصوا بالأسارى خيرا . وكان ابن الربيع صاحب مال ، وقد أراد أهله أن يقدوه باغلى فداء من المال ، ولكن زوجته السيدة زينب أبت عليهم ذلك وأرسلت فى فدائه قلادة كانت عزيزة عليها وعلى أبيها صلى الله عليه وسلم ، تلك هى القلادة التى كانت أهدتها إليها أمها السيدة خديجة يوم أن زفت إلى زوجها ابن الربيع .

وذهب عمرو بن الربيع ، وهو أخو العاص بن الربيع ، بصرة إلى المدينة المنورة ، وقدم الصرة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم . وكانت القلادة فى تلك الصرة ، فما كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يراها حتى رق لمرآها ، فقال لأصحابه فى حنين لذكرى الحبيبة السيدة خديجة وحنان لكريمته ابنتها السيدة زينب :

(( إن رأيتم تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا )) .

فاستجاب الصحابة الكرام من فورهم وقالوا : نعم يا رسول الله .

وأسر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى صهره حديثا ، فهز ابن ربيع رأسه موافقا ثم حيا وانصرف .

فلما ابتعد قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه مادحا لابن الربيع : والله ما ذمناه صهرا .  
الزوجة المهاجرة :

ووصل ابن الربيع مكة المكرمة ، والتقى بزوجه الوفية ففرحت بلقائه ، لكنه لم يلبث أن قال لها : جئتك مودعا يا زينب ، لكنى لست راحلا ، ولكنك الراحلة هذه المرة .

ثم زادها قائلا : إن أباك هو الذى طلب أن أردك إليه ، لأن الإسلام فرق بينى وبينك ، وقد وعدت أباك أن أدعك تسيرين إليه وما كنت لأنكث عهدى .

ورجاها أن تتجهز للسفر بعد أيام ، وأخبرها أن أخاه ( بالتبني ) زيد بن حارثة سيأتيها ليصحبها إلى المدينة المنورة .

ولم تشك السيدة زينب فى صدق زوجها ، فهي واثقة من مودته ، وقوة خلقه ، وحسن عشرته . وقد أرادت قريش أن يردها إلى أبيها قبل ذلك وقالوا له : فارق صاحبك ونحن نزوجك أى

امرأة من قريش . فأبى إباء شديدا وقال لهم : لا والله إنى لا أفارق صاحبتى ، وما أحب أن لى بها امرأة من قريش ، بينما استجاب لرغبتهم زوجا أختيها رقية وأم كلثوم فرداهما إلى

أبيهما .

وحان ميعاد الرحيل فودع ابن الربيع زوجته التي ود ألا تفارقه ، ولكنه وعد أباها بإرسالها إليه ؛ كما أن الإسلام فرق بينهما فى العشرة الزوجية .

وكان قد اتفق على أن تلقى زيدا بن حارثة فى " بطن يأجج " على بعد ثمانية أميال من مكة . فعهد إلى أخيه كنانة بن الربيع أن يصحبها إلى ذلك المكان ؛ فخرج كنانة يقود بعيرها نهارا ، وأخذ معه قوسه وسهامه .

#### مطاردة قريش :

وكبر على قريش ، وهى الموتورة فى غزوة بدر الكبرى أن تخرج السيدة زينب على مرأى منهم فى رابعة النهار . وكانت هند امرأة أبى سفيان تهيجهم للاخذ بالثأر من المسلمين الذين قتلوا أباها عتبة بن ربيعة ، وعمها شيبة ، وأخاها الوليد بن عتبة ، وابن عمها عبيدة بن سعيد بن العاص بن أمية ، وابن زوجها حنظلة بن أبى سفيان .

فخرج رجال من قريش فى أثر السيدة زينب ، حتى أدركوها بنى طوى ؛ فكان أسبقهم إليها هبار بن الأسود الأسدى الذى روعها برمحه ونخس البعير الذى تركبه فوقعت السيدة زينب على صخرة هناك . فتأهب كنانة بن الربيع لقتالهم ، ونثر كنانة سهامه وصرخ فيهم :

والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهما .

فتراجع المطاردون الجبناء .

ووقف أبو سفيان من بعيد يقول لكنانة : كف عنا نبلك حتى نكلمك ، فكف كنانة النبل عنهم .  
فدنا منه أبو سفيان وقال له :

إنك لم تصب يا ابن الربيع . خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية ، وقد عرفت مصيبتنا  
ونكبتنا وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس أن ذلك ذل أصابنا ، وأن ذلك منا ضعف  
ووهن . ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت  
الأصوات ، وتحدث الناس أن قد رددناها ، فسلها سراً وألحقها بأبيها .

ولم يعبأ كنانة بقول أبي سفيان ، إلا أنه رآها تنزف دما حيث طرحت جنيناً كان في بطنها من  
أثر صدمتها بالصخر حين وقعت من فوق البعير . فأعادها إلى مكة لتستريح ، وبقي زوجها  
أبو العاص إلى جوارها أياما حتى استردت بعض عافيتها ، ثم خرج بها كنانة مرة أخرى  
وسلمها إلى زيد بن حارثة ، لكنها كانت تنزف دما مما أصابها .

ومع أن هنداً امرأة أبي سفيان كانت تهيج قريشاً للاخذ بالتأثر ، فإنه لم يرقها أن تطارد  
قريش امرأة عزلاء ، فسخرت منهم قائلة : هلا كانت هذه الشجاعة يوم بدر .

ورجع كنانة إلى أخيه بعد أن سلم السيدة زينب لزيد بن حارثة وردد على مسمع أخيه شعره :

عجبت لهبار وأوباش قومه  
ولست أبالي ما حييت عديدهم  
يريدون إخفاري ببنت محمد  
إذا استجمعت قبضا يدي بالمهند

### الأوامر النبوية :

وقد ساء رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب ابنته الحبيبة السيدة زينب ، وتأثر غاية التأثر حتى أمر أصحابه بإحراق هبار ونافع بن عبد قيس ، ثم عدل عن إحراقهما وأمر بقتلهما .

ويحدث أبو هريرة رضى الله عنه فيقول :

(( بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية أنا فيها ، فقال لنا : إن ظفرتم بهبار بن الأسود أو الرجل الآخر الذى سبق معه إلى زينب فحرقوهما بالنار )) .

فلما كان الغد بعث إلينا فقال : (( إنى كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إن أخذتموهما ، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يعذب بالنار إلا الله ، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما )) .

### الزوج المستجير :

فى ليلة من ليالى جمادى الأولى من السنة السادسة للهجرة ، فى وقت السحر دخل أبو العاص بن الربيع بيت المصطفى صلى الله عليه وسلم بالمدينة مستجيراً بزوجه زينب . وعجبت لمجيئه فى تلك الساعة وعلى حين غفلة .

فأخبرها بخبره ، وقال لها : خرجت تاجراً إلى الشام فى أموال لى وأخرى لرجال من قريش .  
فلما فرغت من تجارتى وأقبلت قافلاً لقيتنى سرية لأبيك فيها زيد بن حارثة ومعه مائة وسبعون  
رجلاً ، فأصابوا كل ما معى وأعجزتهم هارباً ، حتى إذا جن الظلام جئتكم متخفياً مستجيراً .  
فقالت السيدة زينب فى وفاء : مرحباً يا ابن الخالة ، مرحباً يا أبا على وأمامة .  
وحملتها مروءتها على أن تجيره ، فما كادت تسمع تكبير أبيها فى المسجد حتى هتفت وقالت  
للمصلين معه فى المسجد :

أيها الناس إنى أجرت أبا العاص ابن الربيع .

وعندما سمع صوتها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه :

أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعت ؟

أجابوا : نعم يا رسول الله .

قال : أما والذى نفس محمد بيده ، ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم .

أجرنا من أجات :

وأضاف صلى الله عليه وسلم :

إنه يجير على المسلمين أدناهم ، وقد أجرنا من أجات .

فيا لعظمة الإسلام حين يجعل المسلمين يداً واحدة فى قتالهم وإجاتهم .

وأى سماحة فى الإسلام إذ يجير على المسلمين أذناهم ، فلا ينقضون عليه عهد الأمان الذى أعطاه لمن استجاره به فأجاره .

ما أسمعك يادين الإسلام ، وما أروع كلمات الله الحكيمة الخالة حين تنادى من فوق منبرك على سمع الزمان " وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون " .

وحين فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح ودخل إلى بيته استوثقت السيدة زينب لأبن خالتها العاص بن الربيع مرة أخرى وقالت : يارسول الله ، إن ابن العاص فإن قرب فابن عم ، وإن بعد فأبو ولد ، وإنى قد أجرته .

فقال لها صلى الله عليه وسلم :

أى بنية ، أكرمى مثواه ، ولا يخلصن إليك ، فإنك لا تحلين له .

ودعت السيدة زينب ابن خالتها إلى الإسلام مرة أخرى ورغبته فيه ، فقال لها : إنهم عرضوا على بالأمس أن اسلم وأخذ ما معى من أموال المشركين فأبيت قائلاً :  
بئس ما أبدأ به إسلامى أن أخون أمانتى .

وفى الصباح كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس فى المسجد مع

جمع من صحابته ، وفيهم رجال السرية ، فأرسل فى طلب ضيف أبنته ف جاء إلى المسجد .  
وقال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه : إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم  
له مالا ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإننا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فى الله الذى أفاء  
عليكم فأنتم أحق به .

#### الشورى :

وهنا أقول مرة أخرى يا لعظمة الإسلام ، ويا لعظمة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ويا  
لعظمة الشورى فى الإسلام ، ويا لعظمة الكرامة ، ويا لعظمة الحرية فى الرأى .  
إن الرسول الأكرم يستطيع أن يأمر فىأتمر بأمره المسلمون الذين حذرهم الله من مخالفة أمره "  
فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم " ومع هذا يخيرهم بين  
رد مال ابن الربيع أو أخذه لأنهم أحق به .  
وكيف يفوت الصحابة وهم الكرام البررة أن يختاروا الأحسن ، إرضاء لله وللرسول فأجابوا برأى  
واحد : يارسول الله بل ترده عليه . وأسرعوا فى التنفيذ ، حتى إن أحدهم لىأتى بالدلو ،  
وبالإناء الصغير ، وبالسقاء البالى ، إلى أن ردوا عليه ماله بأسره ، ولم يفقد منه شيئا .

الزوج العائد إلى مكة :

وحان لابن الربيع أن يرحل إلى مكة بماله المرود إليه ، فقال الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم وهو يودعه :

حدثني فصدقني ، ووعدني فوفى لي .

ودخل ابن الربيع مكة ، ورد إلى تجار قريش أموالهم ، حتى إذا لم يبق لأحدهم عنده شيء ، قال لهم : يا معشر قريش ، هل بقي لأحد منكم مال عندي لم يأخذه ؟ قالوا : لا فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيا كريما .

الزوج المسلم :

قال وهو يدير وجه فيهم : فإني أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . والله ما منعني من الإسلام إلا تخوف أن تظنوا أنني إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت .

وكانت كلماته هذه رعد يصم آذانهم وبرقا يخطف أبصارهم .

ياللحق المؤصل ، والمجد المؤتل ، والرشد الكامل ، ويا للعرق الطيب . وحقا إن الناس لآدم وآدم من تراب ، ولكنهم كذلك معادن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام .

ترحيب :

ومرحبا بك يا ابن الربيع فى رحاب الإسلام الذى يدعوا الناس إلى الخير ، وينهاهم عن الشر ،  
ويحليهم بمكارم الأخلاق ، ويزيد الذين اهدوا هدى .  
ولا شك أنه بهرك من الإسلام تلك المزايا التى صادفت هوى فى فؤادك البصير وعقلك الكبير .  
ولعلك حين لجأت إلى السيدة زينب تستجير بها وأنت خائف تترقب ، ما كنت تظن أن تلقى ما  
لقيت من حفاوة وحماية إلى الحد الذى لقيته منها ومن أبيها ، وخاصة بعد أن فرق حكم  
لإسلام بينكم كزوجين ، وإن كنت قد لقيت منها العطف كل العطف فى فك أسرك قبل ذلك .  
ولكنها السعادة جاءتك على قدر من ربك ، فسبحانه من إله فعال لما يشاء .  
ولعلك حين عدت بإسلامك إلى المدينة المنورة كنت تتمنى أن ترجع زوجتك التى وجدت منها  
وفاء منقطع النظير . ولعلك سألت نفسك وأنت ذاهب إلى المدينة ، هل يسمح لى الإسلام  
بالمراجعة التى تلم الشمل بعد أن تفرق ؟ !

وها أنت قد رأيت الإسلام كذلك فى هذه المراجعة التى كانت تهفوا لها نفسك ويصبو لها قلبك . فقد رد الرسول الأكرم عليك زوجتك حين أبديت له الرغبة فى ذلك ، بل أثنى عليك خيرا ، وكان ذلك فى أول السنة السابعة للهجرة .

إلى الجنة :

ولكن السعادة فى الدنيا لا تتم إلى أقصاها ، فإنه ما كان يمضى عام واحد على جمع الشمل حتى فرق الموت بين ابن الربيعه وزوجته الغالية .

فقد جاء أجلها وماتت فى مستهل السنة الثامنة من الهجرة متأثرة بعلتها التى لزمها منذ أن طرحت جنينها فى الصحراء وهى خارجة عن مكة حينما سقط بها بغيرها الذى تخسه الشقى هبار بن الأسود بحريته .

ولعلك يابن الربيع حين أصبت فى زوجتك الغالية عزيت نفسك بقول القائل :

ولهت قلبى إذ علتى كبرة	وذوو التمام من بنيك صغار
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا	ليل يكر عليهم ونهار
صلى الملائكة الذين تخيروا	والطيبون عليك والأبرار

الحفيدة الغالية :

ولا شك أنه عزاك في وحشة فراقها طفلاك منها ، على وأمامة ، خاصة وقد رأيت الرسول صلى الله عليه وسلم : يتسلى بهما حتى أنه كان يحمل أمامة على عاتقه ويصلى بها ، فإذا سجد وضعها حتى يقضى صلاته ثم يعود فيحملها .  
 كما أن السيدة عائشة حدثت عن عطفه صلى الله عليه وسلم على أمامة فقالت : أهديت إليه هدية فيها قلادة من جزع<sup>١</sup> ، فقال لأدفعها إلى أحب أهلى إلى .  
 فقالت النساء ذهببت بها بنت أبى قحافة ( يريدون عائشة ) لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا أمامة بنت زينب فأعلقها فى عنقها .

الوصية :

على أن ابن الربيع لم يعيش بعد زوجته السيدة زينب إلا سنوات معدودة فقد لقي ربه راضيا مرضيا فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى ذى الحجة من السنة الثانية عشر من الهجرة ، فإلى روح وريحان وجنة نعيم .

---

<sup>١</sup> - جزع : خرز فيه بياض وسواد .

وقد أوصى ابن الربيع قبل موته بابنته أمامة إلى ابن خاله الزبير بن العوام بن خويلد ، وقد زوجها الزبير من الإمام على بن أبي طالب بعد وفاة خالتها فاطمة الزهراء . وظلت أمامة معه حتى قتل ، فكان مشهدها وهي تطيف به وهو مسجى على فراشه يمزق القلوب ويفتت الأكباد ، حتى لقد قالت أم الهيثم النخعية :

أشباب ذوابتي وأذل ركبي      أمامة حين فارقت القرينا  
تطيف به لحاجتها إليه      فلما استيأست رفعت هويينا

نور البصيرة :

وقد قال الإمام على لأمامة حين حضرته الوفاة :

" إني لا آمن أن يخطبك هذا الطاغية - يقصد معاوية - بعد موتي ، فإن كان لك في الرجال حاجة ، فقد رضيت لك المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب عشيرا " .

فلما انقضت عدتها ، حدث ما توفعه الإمام على كرم الله وجهه .

فقد كتب معاوية إلى مروان بن الحكم : يأمره أن يخطبها عليه وبذل لها مائة ألف دينار .

فلما ذكرت ذلك للمغيرة بن نوفل المطلبى الهاشمى ، قال مغاضبا :

أنتزوجين ابن آكلة الأكباد . . ؟ فلو جعلت أمرك إلى ، فقالت وقد تذكرت وصية زوجها الإمام

الراحل : " نعم " .

فقال المغيرة : قد تزوجتك .

وقد أقامت معه حتى مات من غير خلف .

وأما أخوها علي بن العاص بن الربيع فقد مات في سن المراهقة . وبموت أمامة وأخيها علي انقطع نسل السيدة زينب ، وإن بقيت ذكراها خالدة لا تمحوها السنون ولا ينساها المؤمنون .

السيدة رقية بنت الرسول :

بعدزواج السيدة زينب من أبي العاص بن الربيع ، وهو ابن بنت السيدة خديجة رضى الله عنهما أراد عبد العزى بن عبد المطلب أن يزوج أبنيه عتبة وعتيبة من رقية وأم كلثوم أختى السيدة زينب حيث كان يرى أن أبناء العمومة أولى بالمصاهرة من أبناء الخالة . وكان سفيره إلى أبيهما في الخطبة أبو طالب لمكانته عنده .

وتكلم الشيخ أبو طالب في الخطبة فقال :

إنك يا ابن الأخ قد زوجت زينب لأبى العاص بن الربيع وإنه لنعم الصهر ، غير أن بنى عمك يرون لهم عليك مثل ما لابن أخت خديجة ، وليسوا دونه شرفا ونسبا .

فقال الأب صدقت يا عم .

فاستطرد أبو طالب ، وكام عظيم المشيخة من قريش عندئذ ،

وقد جئناك نخطب ابنتينا رقية وأم كلثوم ، وما أراك تضن بهما على أبني عمك .  
وأراد الله أن يتم الزواج المنشود . وكانت الأسرة المحمدية الوفية لا نزال تذكر لأبي لهب موقف  
عطف على ابن أخيه حين ولد ، فما كادت تبشره جاريتها ثوبية بأن السيدة آمنة وضعت  
مولودا ذكرا من أخيه المتوفى عبد الله حتى أعتفها سرورا بالبشرى السعيدة التي زفتها تلك  
الجارية .

#### قريش تنتقم :

لكن ما كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقى رسالة ربه حتى ائتمرت قريش ببناته وقالوا :  
إنكم قد فرغتم محمد من همه ، فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن .  
ومشوا إلى أصهار الرسول الثلاثة فقالوا لهم واحد بعد الآخر: فارق صاحبك ونحن نزوجك أي  
امرأة من قريش شئت ،  
فأما أبو العاص زوج السيدة زينب فأبى عليهم ذلك وآثر زوجته على سائر نساء قريش .  
وأما عتبة وعتيبة ابنا أبي لهب فقد استجابا على الفور ، وفارقا زوجتيهما وردوهما إلى بين  
أبيهما .

وكان أبو لهب وامرأته أم جميل بنت حرب ( حمالة الحطب ) أشد

الناس عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لقد قال أبو لهب لابنيه عتبة وعتيبة :  
 رأسى من رأسيكم حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد .  
 وتقول الدكتورة بنت الشاطىء فى كتابها القيم " بنات النبى " تعقبا على تلك الواقعة :  
 وكان الظن بابنى العم ألا يفعل ،  
 وكان الظن بالعم ألا يقف هذا الموقف حفيدتى أخيه عبد الله وابنتى محمد الذى ابتهج بمولده  
 وأعتق جاريته حين بشرته به ،  
 لكن أم جميل كانت وراء تسوقه أمامها مسلوب النخوة ، مضيع المروءة ، فاقد الإرادة ،  
 وتسمم الدم الهاشمى الذى يجرى فى عروقه ، وتنسيه ما توجيهه عليه عمومته لمحمد من  
 نجدة وحفاظ ،  
 لكأنما أرادت هذه العشمية ( نسبة لعبد شمس ) أن تكيد لبني هاشم - والعداوة بين عبد  
 شمس وهاشم فى الجاهلية معروفة - الذين استأثروا بأكثر المجد والسلطان دون قومهم عبد  
 شمس ، فراحت تفرق شمل الهاشميين وتمزق أوصارهم وتضرب بعضهم ببعض .  
 أو كأنما أرادت هذه المرأة الحقود أن تشفى غليلها من خديجة بنت خويلد التى كانت ملء  
 العيون مهابة وجلالا ، ملء الآذان عفة وطهرا ، فراحت توجح غضب القوم على محمد ،  
 لتغيظ غريمتها خديجة وتفسد عليها سعادتها التى كانت مضرب الأمثال .

وإني أقول إن عمى البصيرة هو نتيجة حتمية لقسوة القلوب . فقد قص الله علينا قصص بنى إسرائيل فأرانا كيف اصطفاهم على أهل زمانهم وجعلهم ملوكا ، وآتاهم ما لم يؤت أحد من العالمين ، ولكنهم بدلوا نعمة الله كفرا من قسوة قلوبهم ، فلم يعتبروا بالآيات ولم يتعظوا بالمعجزات " ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون " .

#### منطق معكوس :

وهل من المنطق فى شئ أن يقول كفار قريش ما حكى الله عنهم فى قوله الكريم " واذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم " . وتذكرنى هذه الآية الكريمة بنكتة طريفة قالها يمنى لمعاوية بن أبى سفيان حين مازحه معاوية وقال له : ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة - يقصد بلقيس ملكة سبأ - فأجابه اليمنى فى ذكاء وقال له : أجهل من قومى قومك حين قالوا : " اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم " فهلا قالوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فأهدنا إليه ؟

وهل من المنطق فى شئ أن يقولوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما جربنا عليك كذبا ثم يكذبونه فى رسالته ؟ !

تبت يدا أبى لهب :

وتفصيل الرواية فى تكذيبه كما نقلها السهيلي فى الروض الأنف بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما : لما أنزل الله تعالى : " وانذر عشيرتك الأقربين " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى الصفا ، فصعد عليه وهتف : واصباحاه . فلما اجتمع إليه قال : أرأيتم لو أخبرتم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل ، أكنتم مصدقى ؟ ! قالوا : ما جربنا عليك كذبا .

قال : فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

فانبرى له أبو لهب قائلا : تبا لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله ردا عليه ، غيرة على رسوله الأكرم صلى الله عليه وسلم " تبت يدا أبى لهب وتب \* ما أغنى عنه ماله وما كسب \* سيصلى نارا ذات لهب \* وامرأته حمالت الحطب \* فى جيدها حبل من مسد " . وقد سماها الله حمالة الحطب لأنها كانت من شدة عداوتها تحمل الشوك فتطرحه فى الطريق الذى يمر عليها صلى الله عليه وسلم . وما أرق ما قال الأصوص شاعر الأنصار فى صاحبة الحبل اللعينة هذه :

ما ذات حبل يراه الناس كلهم      وسط الجحيم ولا يخفى على أحد  
كل الحبال حبال الناس من شعر      وحبلها وسط أهل النار من مسد<sup>١</sup>  
وقد عاد أبو لهب وامرأته الرسول صلى الله عليه وسلم فى دينه وفى طلاق أبنتيه من غير  
جرم فصارا خالدين فى النار جزاء الظالمين .

وقد غاظ حمالة الحطب ذلك الوصف الذى ورد فى القرآن الكريم ، فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق رضى الله عنه وفى يدها حجر يملأ كفها ، وأرادت أن تضرب به الرسول صلى الله عليه وسلم . فأخذ الله ببصرها عنه فلم تره ، وإنما رأت أبو بكر وحده فقالت له يا أبا بكر أين صاحبك فقد بلغنى أنه يهجونى والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر<sup>٢</sup> فاه ، أما والله إنى لشاعرة ثم قالت لعنها الله :

مذمما عصينا

وأمره أبينا

ودينه قلينا

وانصرفت ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : يارسول الله أما تراها رأتك ؟ فقال ما رأتنى ، لقد أخذ الله ببصرها عنى .

<sup>١</sup> - السد: الليف المفتول فتلا شديدا .

<sup>٢</sup> - الفهر : الحجر .

أقول وهى معجزة تكررت حين أرادوا قتله وانتظروه خارج داره حتى يستيقظ ليضربوه ضربة رجل واحد . فخرج من بينهم ووضع التراب على رؤوسهم فناموا ولم يروه . وكيف لا وقد عصم الله رسوله صلى الله عليه وسلم من الناس .

خير مدخر :

وقد أراد الله خيرا بطلاق السيدتين رقية وأم كلثوم ، فأبدلهما خيرا من عتبة وعتيبة أبني ابا لهب . فقد تقدم خاطبا السيدة رقية شاب جميل الخلق والخلقة وافر المال ، ذلك هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية ابن عبد شمس . أعزه الله فى الجاهلية فكان من أعرق فتيان قريش نسبا ، وأعزه فى الإسلام فكان من السابقين الأولين .

يلتقى بالرسول صلى الله عليه وسلم من جهة الأب عند عبد مناف ابن قصى ، ومن ناحية الأم عند عبد المطلب بن هاشم فجدة عثمان لأمه هى البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجا لأبنته رقية ، واشتهر الزوجان بالجمال حتى قيل فيهما الشعر :

أجمل شخصين رأى إنسان                      رقية وزوجها عثمان

هجرة إلى الحبشة :

ولم يطب للزوجين العيش بمكة ، فقد اشتدت قريش فى عداوتها

للإسلام والمسلمين حتى وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين . فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، حتى يفتنهم عن دينهم ، فكان المسلم يؤثر أن يموت ولا يرتد إلى الكفر الذى تدين به الكثرة الغالبة .  
 وشق على قريش أن يهجر عثمان دين آبائه الأولين وأن يكون مؤمنا فى السابقين الأولين ، ولكن عثمان رأى أن ينعم بإيمانه بعيدا عن قومه المعاندين . فهاجر مع قرب عهده بالعرس بزوجته رقية إلى الحبشة مع من هاجر حين اشتد بهم الأذى وحركت الرأفة بالمؤمنين الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ، فقال لأصحابه : لو خرجتم إلى الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه . ورحم الله أمير الشعراء شوقى إذ يقول :

فحقت الهجرة وهى مرة	ما وصفت إلا لنفس حره
سبيل موسى فى الزمان الأول	ومذهب الروح <sup>١</sup> ولما يحول <sup>٢</sup>
ومركب الأفراد والأعلام	وخصماء الظلم والظلام

<sup>١</sup> - الروح : سيدنا عيسى عليه السلام .

<sup>٢</sup> - ولما يحول : أى ولم يمض عليه حين حول هاجرت به أمه عليها السلام إلى مصر .

ما أجمل الهجرة بالأحرار  
تأمل الرسل الكرام واعتبر  
إن ضنت الأوطان بالقرار  
أن العظيم للعظيم يصطبر

### حذاء الإيمان :

وتحركت بالمهاجرين القافلة ، وفارقوا أرض مكة موطنهم ، وهانت التضحية مع صعوبتها في  
سبيل الله والحفاظ على العقيدة الصحيحة . وتغنى حادى الركب ، وردد بصوته الشجى على  
أسماعهم وقلوبهم كلمات زادتهم إيمانا مع إيمانهم :

الأهل والأوطان فراقهم صعب  
لكنه الإيمان فداؤه القلب  
والروح والأبدان فليقبل الرب  
فليقبل الرب

وإذا كان عرض الدنيا الفانى لا ينال إلا بشق الأنفس ، فكيف لا يتحملون المشقة للفوز  
بالنعيم المقيم والسعادة الأبدية . ويقول إمامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه : عجبت  
لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء .

إن القرآن الكريم بشر المهاجرين فى سبيل الله ، وأنذر المتخلفين عن الهجرة بغير عذر فقال  
تعالى :

" إن الذين توافاهم الملائكة ظالمة أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا

مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا \* إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا \* فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرة وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيفا " .

#### الحبشة ترحب بالمهاجرين :

وقد رحبت الحبشة بالمهاجرين الأولين وكانوا عشرة ، ثم استقبلت أفواجا أخرى حتى بلغت عدة المهاجرين ثلاثة وثمانين غير أبنائهم الذين خرجوا بهم صغار ، أو ولدوا فى المهجر . وكان فى العشرة الأوائل من أخوال السيدة رقية الزبير بن العوام ابن خويلد ، ومن أبناء عمومتها مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف ، ومن أخوال أبيها عبد الرحمن بن عوف الزهرى .  
وسر السيدة رقية أن ترى فىمن وفدوا عليهم بعد ذلك جعفر بن أبى طالب ابن عم أبيها ومعه امرأته أسماء بنت عميس .  
وحدثوا أن النبى صلى الله عليه وسلم افتقد أبناء ابنته السيدة رقية ، حتى أتت امرأة فأخبرته أنها رأتها هى وزوجها عثمان ، فقال صلى الله عليه وسلم :

(منحهما الله أن عثمان أول من هاجر بأهله ) .

والحديث يفيد أن عثمان رضى الله عنه تشبه بسيدنا لوط حين هاجر بأهله أمتثالاً لأمر ربه حين قالت الملائكة ما حكاه الله فى سورة هود " قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل . . . " . وها هو عبد الله بن الحارث بن قيس يشجع - وهو بالحبشة - على الهجرة إليها فيقول :

انا وجدنا بلاد الله واسعة تنجى من الليل والمخزاة والهون  
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز فى الممات وعيب غير مأمون

الحنين والعودة :

على أن الشوق إلى الأحباب المقيمين بمكة كان ينازع نفوس المهاجرين بالحبشة وقد وردت إليهم الأنباء من مكة أن قريشا رفعت الحصار الذى ضربته على بنى هاشم واستمر سنوات ثلاثا صبر فيها بنو هاشم على شظف العيش فى سبيل الله حتى كانوا يأكلون الخبط<sup>١</sup> وورق الشجر . وكان لا يصل إليهم شئ من الطعام إلا سرا ، ولقد قال سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه يصف ما عانوه من الجوع بعد محنة الحصار بسنتين :

<sup>١</sup> - الخبط - بفتحين : ما تسقط من ورق الشجر .

لقد جعت حتى أنى وطئت ذات ليلة على شئ رطب فوضعتة فى فمى وبلعته وما أدرى ما هو إلى الآن .

وحركت أنباء فك الحصار حنين بعض المهاجرين إلى مكة ، فرأوا أن يعودوا إليها ، وآثر آخرون أن يبقوا فى المهجر حتى تتأكد لهم أخبار مطمئنة .

وكان فى الركب العائد إلى مكة عثمان بن عفان وزوجته السيدة رقية رضى الله عنهما ، حتى إذا وصل الركب إلى أطراف البلد الأمين ، رأو غير ما توقعوا ، فقد رأو نفر من إخوانهم المستضعفين تسومهم قريش سوء العذاب .

فدخل بعض الركب فى جوار الوليد بن المغيرة المخزومى ، والبعض فى جوار أبى طالب بن عبد المطلب الهاشمى ، ودخل الباكون مستجيرين بالحرم الشريف .

أين أبى وأين أمى ؟

وحين دخلت السيدة رقية إلى بيت أمها رحبت بها أختها أم كلثوم وفاطمة يغالبها الدمع على أمها الراحلة الغالية ، فداخلت السيدة رقية الريبة ، وأخذت تسألها : أين أبى وأين أمى ؟ فأجابتها : أبوك بخير وقد ذهب للقاء العائدين معك من مهاجرة الحبشة ، فقالت السيدة رقية : وأمى أين هى ؟

فأطرقت أم كلثوم صامتة ، ومن السكوت خطاب ، وأما فاطمة فغلبها البكاء . وجاء الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم فخفف بحنانه الأبوى ذلك الألم المضى . ولم يظل مقام الأسرة المحمدية بمكة المكرمة بعد ذلك . فقد هاجر الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة . وهاجر عثمان بن عفان حيث هاجرت معه زوجته السيدة رقية ؛ وفي دار الهجرة الجديدة وضعت طفلها عبد الله بن عثمان . وما كادت تأنس به حتى ابتليت فيه فقد نقره ديك فمات طفلا ، ورقدت هي صريعة الحمى . وأقام زوجها عثمان إلى جوارها يمرضها ، وتخلف بسبب مرضها عن غزوة بدر الكبرى على كره منه .

#### تفارق الحياة :

وحين جاء البشير إلى المدينة المنورة بانتصار المسلمين في غزوة بدر الكبرى فارقت السيدة رقية الحياة . ودخل عليها أبوها صلى الله عليه وسلم يودعها فوجد أختها فاطمة تبكيها ، فأخذ صلى الله عليه وسلم يمسح دموع ابنته فاطمة بطرف ثوبه . وأجهش النساء خارج الغرفة بالبكاء ، فأغضب ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه فزجرهن ، لكنه صلى الله عليه وسلم كفه عنهن قائلا :

(( مهما يكن من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، ومهما يكن من اليد ومن اللسان فمن الشيطان )) .

وصلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم على ابنته الراحلة ؛ وشيع المسلمون جثمانها الطاهر إلى أرض البقيع التي دفن فيها الشهداء والصالحون من الصحابة الكرام .  
 وأسهم الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم لعثمان فى غنائم بدر حيث تخلف عنها اضطراراً لتمرير زوجته الحبيبة رقية ذات الهجرتين .

السيدة أم كلثوم بنت النبى :

بعدهجرة السيدة رقية إلى الحبشة مع زوجها عثمان بن عفان كان فى بيت النبوة فاطمة الزهراء ، وهى صغرى بناته الطاهرات من السيدة خديجة رضى الله عنها . وانضمت إليها السيدة أم كلثوم التى أكرمها الله حين فارقتها بالطلاق قرين السوء عتيبة بن أبى لهب ، كما أكرم أختها رقية حين فارقتها أخوه عتبة بن أبى لهب .

وهكذا عاصرت السيدة أم كلثوم محنة الحصار مع أسرتها الكريمة ، وتحملت مع الأسرة شدتها . وبعد السنين الثلاث فشل الحصار . واضطرت قريش أن تفكه من تلقاء نفسها حين صمد

له وصبر عليه المؤمنون ، فلم تهن عزائمهم ، ولم تلن قناتهم ، بل صبروا وصابروا حتى

التمست قريش يعد سنوات ثلاث صحيفة المقاطعة التى كانوا قد علقوها

فى جوف الكعبة ليمزقوها ، فوجدوا أن الأرضة قد أكلتها فلم تدع منها إلا : " باسمك اللهم " .  
خبر الصحيفة الظالمة :

وقد روى ابن إسحاق خبر تلك الصحيفة فقال : إنه لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بالحبشة وأصابوا هناك أمنا وقرارا ، وأن النجاشى قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وجعل الإسلام يفسوا فى القبائل ، اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا صحيفة يتعاقدون فيها على بنى هاشم وبنى عبد المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعون منهم .

فلما اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة . ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك . ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم .

قال : فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا حتى جهدوا لا يصل إليهم شئ إلا سرا مستخفيا به من أراد صلتهم من قريش .

وقال ابن هشام : ذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى طالب : يا عم ، إن ربي الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش فلم تدع فيها اسما هو الله إلا أثبتته فيها ، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان . فقال : أربك أخبرك بهذا ؟ قال : نعم . قال : فوالله ما يدخل

عليك أحد ، ثم خرج إلى قريش فقال : يامعشر قريش ، إن ابن أخى أخبرنى بكذا وكذا ، فهلم إلى صحيفتكم ، فإن كان كما قال ابن أخى فانتهاوا عم قطيھتنا ، وانزلوا عما فيها ، وإن يكن كاذبا دفعت لكم ابن أخى . فقال القوم : رضينا . فتعاقدوا على ذلك ، ثم نظروا فإذا هى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزادهم شرا ، فعند ذلك تحالف رهط من قريش بدافع النخوة والعصبية وقام المطعم بن عدى إلى الصحيفى ليشقھا ، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم .

عودة وتوديع :

وبعد ذلك الحصار عادت الأسرة المحمدية من شعب أبى طالب إلى البيت النبوى المبارك سعيدة بذلك الفرج الذى أعقب الشدة ، إلا أن السيدة العظيمة خديجة مرضت مرض الموت ، ثم ما لبثت أن لقيت ربها راضية مرضية فى اليوم العاشر من رمضان ستة عشر من مبعثه صلى الله عليه وسلم . وحمل جثمانها الطاهر حيث وورى فى أرض الحجون ، إلى روح وريحان وجنة نعيم .

وحين أذن الله بالهجرة لرسوله الأكرم صلى الله عليه وسلم ودع بناته ثم ذهب فى ضحوة النهار إلى بيت صاحبه أبى بكر الصديق ليرتب الهجرة إلى المدينة المنورة . تلك الهجرة التى سعد الصديق بصحبته فيها وخلده بها قول الله تعالى : " إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين

كفروا ثانی اثین إذ هما فی الغار إذ یقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا " .  
 وحنیما رجعت السیده زینب إلى بیت زوجها بعد موت أمها ، وهاجر الرسول الأكرم صلی الله  
 علیه وسلم مع صاحبه الصدیق إلى المدینة المنورة بقیت أم کلثوم وأختها فاطمة وحیدتین فی  
 البیت المهجور .

#### الأختان المهاجرتان :

ولما وصل الرسول الأكرم إلى دار الهجرته ، أرسل یستقدم بنتیه الحبیبتین أم کلثوم وفاطمة  
 إلى المدینة المنورة . فقضتا آخر أيامهما بمكة مع أختیهما السیده زینب امرأة العاص بن  
 الربیع ، والسیده رقیة امرأة عثمان بن عفان ، ثم مضتا إلى حیث كان ینتظرهم مولی أبیهما  
 زید بن حارثة رضی الله عنه ، فصحبهما إلى أبیهما صلی الله علیه وسلم .  
 وفی السنة الثانیة من الهجرة شهدت السیده أم کلثوم انتصار المسلمین فی غزوة بدر ،  
 وشهدت موت أختها السیده رقیة . وهذه هی الحیاة عسر ویسر ، رخاء وبلاء .

#### ذو النورین :

وفی مستهل العام الثالث وفی یوم من أيام شهر ربیع جاء عمر بن الخطاب غضبان یشکو  
 إلى الرسول الأكرم صلی الله علیه وسلم صاحبه أبا بكر وعثمان ، حیث قد عرض علیهما  
 واحد بعد واحد

أن يزوجه حفصة بنت عمر التي كان قد مات عنها زوجها حصن بن حذافة فسكت أبو بكر ، وأجاب عثمان ما أريد أن أتزوج اليوم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله عنه :

( يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة ) . وكان أن تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفصة وهو خير من عثمان . وتزوج عثمان من السيدة أم كلثوم وهي خير من حفصة . ولم يقع لغير عثمان من البشر أن تزوج بابنتين لرسول كريم من رسل الله الكرام ، ولذلك قيل له " ذو النورين " .

وعاشت السيدة أم كلثوم مع زوجها عثمان فى خير ، ورأت الإسلام ينتصر وينتشر . وكان زوجها عثمان سفيرا للرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة حين أحصر المسلمين فى عمرة الحديبية عن دخول البيت الحرام ، ليقول لهم ما أمره أن يقوله لهم : إنا لم نأت لقتال أحد ، وإنما جأنا زوار لهذا البيت معظمين لحرمة ، معنا الهدى ننحرفه وننصرف .

الزوج السفير :

وقد أسعده ولا شك أن ترى زوجها الكريم سفيرا لأبيها الأكرم صلى الله عليه وسلم ، كما أسعدها أن يكون له عند أبيها تلك المنزلة التى

رأتها حين أشيع أن أهل مكة قتلوا زوجها عثمان فبايع أبوها - صلى الله عليه وسلم - بيعة الرضوان من أجله . وكان عدد الصحابة نحو ألف وخمسمائة رجل ، وقال صلى الله عليه وسلم عن عثمان إنه ذهب في حاجة لله وحاجة رسوله . وكان لعثمان شرف آخر حيث بايع عنه في غيبته رسول الله صلى الله عليه وسلم وضرب بيده اليسرى على يده اليمنى وقال : وهذه يد عثمان يسراى خير من يمين عثمان . وما أسعد عثمان رضى الله عنه بهذا الشرف .  
صلح الحديبية وانتشار الإسلام :

ورفض أهل مكة أن يدخل المؤمنون مكة معتمرين . وتم بين الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة صلح الحديبية الذى تضمن أن تقوم هدنة بين الفريقين لمدة عشر سنوات ، كما تضمن أن من يأتى من أهل مكة إلى المدينة يرده الرسول صلى الله عليه وسلم ومن يأتى من المسلمين إلى مكة لا يردهه وكان بعض الصحابة كارها لهذا الشرط ، ولكن رأى فيه صلى الله عليه وسلم بنوره وثاقب فكره ما لم يره الصحابة . فإن من جاء من أهل مكة إلى المدينة أعجبه الإسلام فأسلم ، ولما رده رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة دعا إلى الإسلام . ومن جاء مكة من المسلمين أبقوه فيها ولم يردهه ، فكام يدعوا إلى الإسلام بينهم .  
 فازدوجت الدعوة فى مكة للإسلام فدخل الناس

فى دىن الله أفواجا حتى بلغ عدد من أسلم بعد ذلك الصلح عشرة أضعاف من أسلموا قبله .  
 وكم من آيات بينات ساقها الله إلينا على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم .  
 وعلى أثر إبرام الصلح تحلل رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمرته فنحر الهدى وحلق  
 رأسه ، وحلق أكثر الصحابة وقصر الأقلون شعورهم وكان من هؤلاء المقصرين عثمان بن  
 عفان .

وحينما سمعت السيدة أم كلثوم أباه صلى الله عليه وسلم يقول : رحم الله المحلقين ثلاث  
 مرات ، خافت ألا تنال الرحمة المقصرين شعورهم وفيهم زوجها عثمان ، فما لبثت أن سمعته  
 صلى الله عليه وسلم يقول : والمقصرين فاطمأن قلبها .

#### فتح مكة :

كان صلح الحديبية فى السنة السادسة وكانت الهدنة فيها عشر سنوات ، ولكن قريش نقضت  
 شروط الصلح بعد سنتين . فأذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يفتح مكة عنوة .  
 فسار إليها فى عشرة آلاف مقاتل . وفتحت مكة فى السنة الثامنة وتم للمسلمين النصر على  
 أهل مكة . وقد فرحت بذلك الفتح المبين السيدة أم كلثوم كما فرح سائر المؤمنين والمؤمنات .  
 وفى السنة التاسعة ، وفى شهر شعبان وفى بيت زوجها عثمان بن عفان

بالمدينة المنورة ، فاضت روح السدة أم كلثوم إلى بارئها فدفنت بالبقيع إلى جانب شقيقتها السيدة رقية . ووقف صلى الله عليه وسلم على قبرها دافع العينين ، ولم يبق له بعد ذلك إلا صغرى بناته فاطمة الزهراء .

السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها

مولد السيدة فاطمة :

أقبل العام العاشر من زواج الأمين - صلى الله عليه وسلم - بالسيدة خديجة والزوجان يستعدان لاستقبال ثمرة حمل مبارك . وكانت تلك الثمرة الطيبة هي ابنتهما فاطمة الزهراء التي شاء الله أن تكون من سلالتها الطاهرة ذرية رسوله الأكرم ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الكرام البررة .

وكان ذلك الميلاد السعيد قبل المبعث بخمس سنوات ، وكان بشير سلام وأمن للقرشيين جميعا . ذلك بأن قريشا كانت تبنى الكعبة بعد أن تصدعت بحريق أصابها وبسيل صدع جدرانها . وشارك الأمين معهم فى بنائها ، فكان ينقل الحجر مع الناقلين . وقد قامت الخصومة بين قبائل قريش وتنافست القبائل فى رفع الحجر الأسود إلى موضعه من الكعبة ، واشتدت تلك الخصومة حتى أنذرت بحرب شعواء .

التحكيم :

ودام هذا الخصام أربعة ليال أو خمسا حتى قام فيهم أسن قريش يومئذ ، وهو أبو أمية بن المغيرة المخزومي يهدئ نفوس الفروع المتخاصمة :

يامعشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه .

فقبلوا ذلك الاقتراح ، وبينما هم فى انتظار أول داخل ، إذ لمحووا شابا تام الفتوة ، متزن الخطا ، رزين الحركة ، بهى الطلعة ، ذا جد ووقار ، فنهضوا جميعا لمرآه وقالوا :

هذا الأمين محمد بن عبد الله الهاشمى ، رضينا بحكمه .

وعرضوا عليه الخلاف ، فهداه الله إلى الرأى الصائب الذى حسم الخلاف ومنع من قيام الحرب . فقد طلب الأمين ثوبا ، ثم تناول الحجر فوضعه بيده الكريمة وسط الثوب وقال :

( لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ) .

ففعلوا حتى إذا بلغوا به مكان الحجر أخذه بيده الشريفة ووضعه مكانه .

شبيهة بأبيها :

وكان الأمين يومئذ فى الخامسة والثلاثين .

وعندما عاد الأمين من البيت الحرام إلى داره بشر بمولد ابنته الطاهرة

فاطمة الزهراء . فاقترن ميلادها بنجاة قريش من شر الحرب والاختلاف ، حتى تردد على  
ألسنة الرواة قول الشاعر القرشى هبيرة بن أبى وهب المخزومي :

تشاجرت الأحياء فى فصل حطة	جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقوا بها ، فالبغض بعد موددة	وأوقد نارا بينهم شر موقد
فلما رأينا الأمر قد جد جسده	ولم يبقى منا غير سل المهند
رضينا وقلنا ، العدل أول طالع	يجئ من البطحاء من غير موعد
ففاجأنا هذا الأمين محمد	فقلنا رضينا بالأمين محمد

ورأت السيدة خديجة فى وليدتها فاطمة الزهراء صورة من أبيها العظيم ، فسرها ذلك الشبه  
ورأته بركة من بركات الله عليها وعلى آل البيت الكرام .

وقد نشأت الوليدة المباركة فى عطف من أبويها الكريمين وتدليل من أخوتها البنات الثلاثة ،  
وخاصة كبرهن زينب التى احتضنتها معاونة لأمها الجليلة فى تربيتها .

وشاء الله أن يموت شقيقاها القاسم وعبد الله طفلين قبل البعث أو فى مستهله . وكان الأمين  
قد ضم إليه ابن عمه على بن أبى طالب ليخفف عن كاهل عمه بعض النفقة إذ كان أبو  
طالب كثير العيال قليل المال .

نبوغ الصبا :

وكان على بن أبى طالب يكبر فاطمة بنحو أربع سنين ، فاتخذته أختا ،

وسرها منه أنه أول من آمن من الصبيان ، ودل بمسارحته إلى الإسلام صغيرا دون الحلم على عقل راشد وقلب طاهر ثابت .

وكان دخوله فى الإسلام عجيبا حقا . فقد شاهد مرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ، ساجدا بين يدي ربه ، كما رأى السيدة خديجة ساجدة معه . فسأل عن ذلك السجود فأخبره صلى الله عليه وسلم خبر الإسلام ، فرغب فى اتباع الدين الجديد . فأشار عليه الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ، أن يستشير أباه فى ذلك الأمر . فعاد يطلب الإسلام ، فسأله الرسول صلى الله عليه وسلم عما ' إذا كان قد استشار أباه ؟ فقال فى عبقرية باكرة :

أنى فكرت فى الأمر فوجدت أن الله حين خلقنى لم يستشر أبى ، فلماذا أستشير أبى فى أمر دينى الذى يربطنى بربى .

وقال فيما تحدث به من نعمة ربه عليه بإسلامه وهو صبى لم يبلغ الحلم<sup>١</sup> :

سبقتموا إلى الإسلام طرا

صغيرا ما بلغت أوان حلمى

وصليت الصلاة وكنت فردا

فمن منكم له يوم كيومى

<sup>١</sup> - قال ابن إسحاق : إنه كان فى سن العاشرة حين أسلم .

### نشأة الزهراء فى النور :

وقد تفتح قلب فاطمة الطاهر على نور الإسلام ، فما كادت تميز حتى رأت ذلك النور يشرق على العالمين بادئا بالعشيرة الأقربين حتى شملها وهى طفلة فى مدارج الصبا واللعب .  
 فها هو ذا أبوها الأكرم صلى الله عليه وسلم يصدع بأمر ربه حين نزل عليه قوله تعالى ( وأنذر عشيرتك الأقربين ) فينادى بصوته الشجى عشيرته الأقربين :  
 ( يا معشر قريش ، اشترؤا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا بنى عبد مناف ، لا أغنى عنكم من الله شيئا ،  
 يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئا ويا فاطمة بنت محمد ، سلينى ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئا ) .  
 فكانت ابنته الحبيبة فاطمة الزهراء فى أهله الأقربين ، بل كانت أقربهم إلى قلبه الكبير ، فهمست مستجيبة لندائه الصادق : لبيك يا أحب والد وأكرم داع .  
 وهى بذاتها فاطمة التى ذكرها صلى الله عليه وسلم حين جاء صاحبه وحبيبه وابن حبيبه أسامة بن زيد شافعا فى امرأة من قريش كانت سرقت بعد أن أسلمت . فلما شفع لها أسامة ، قال له صلى الله عليه وسلم :

" لا تكلمنى يا أسامة ، فإن الحدود إذا انتهت إلى فليس لها مترك ، ولو كانت بنت محمد فاطمة لقطعت يدها " .

وهو ما يدل على شدة تعلقه صلى الله عليه وسلم بابنته الحبيبة فاطمة .

مكانت أسامة وأبيه :

ومكانة أسامة بن زيد من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة . وقد ولاه قيادة الجيش ليثأر لأبيه زيد بن حارثة أمير اللواء الذى استشهد فى غزوة مؤتة . وكان فى جيش أسامة مشيخة قريش ، وفيهم أبو بكر وعمر . ويسير الجيش إلى وجهته ، وعندما استخلف المؤمنون أبا بكر رضى الله عنه ، رغب الأشياخ أن ينحى الخليفة أبو بكر أسامة لصغر سنه ويقدم أحد الشيوخ ، وأنابوا عنهم فى ذلك عمر رضى الله عنه . فقال الخليفة الراشد أبو بكر الصديق معاتبا عمر : لو غيرك قالها يا عمر ، كيف لا أؤمره وقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فكان عمر بعدها لا يلقى أسامة إلا قال له : السلام عليك يا أمير .

أما زيد بن حارثة فهو أبو أسامة ، وأول أمراء اللواء فى غزوة مؤتة . وهو الصحابى الوحيد الذى ذكر اسمه فى القرآن الكريم " فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا " . وهو عربى من قبيلة كلب ، وقد سبته خيل تهامة مسيبا من

الشام . وكان فى نحو العاشرة من عمره فاشتره حكيم بن حزام بن خويلد لعمته السيدة خديجة رضى الله عنها . فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له . وجاء أبوه وعمه إلى مكة حين علموا بمكانه وعرضوا على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن يفتدوا منه زيدا بالمال ، وقالوا له : جئناك فى ولدنا زيد عبدك ، فامنن علينا وأحسن فداءه .

قال : وما ذاك ؟ قالوا زيد بن حارثة ، نريد شراءه .

قال : أوغير ذلك ، ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارتى فوالله ما أنا الذى أختار على من اختارنى فداء .

قالوا وهم مرتاحون : لقد زدتنا على النصف<sup>٢</sup> .

وجاء زيد فسأله الرسول صلى الله عليه وسلم : هل تعرف هؤلاء ؟

قال : نعم ، هذا أبى ، وهذا عمى .

قال : فأنا من علمت ، وقد رأيت صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهم .

فقال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحد ، أنت منى بمكان الأب والعم .

<sup>٢</sup> - النصف : الأنصاف .

فقال له : ويحك يا زيد ، أتختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟  
قال : نعم ، إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً .  
فلما آثر زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبيه وعمه وأهله ، ذهب به صلى الله  
عليه وسلم إلى قريش بالمسجد ، فقال : اشهدوا أن زيدا ابني يرثني وأرثه . وبهذا تبناه  
رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار يدعى زيد ابن محمد .  
ولما رأى أبوه وعمه ذلك ، طابت نفسيهما وعادا إلى بلادهما .  
وظل زيد يدعى زيدا بن محمد حتى نزل قوله تعالى : (( ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله ))  
فرجع زيد إلى اسم أبيه حارثة .  
وأحب مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا ، فبادلته حباً بحب . وقيل له : الحب ،  
وقيل لابنه أسامة : الحب ابن الحب .  
ونشأ زيد في كنف الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ، وفي رعاية السيدة خديجة رضي الله  
عنها مع علي بن أبي طالب الذي ضمه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى كنفه تخفيفاً عن  
عمه أبي طالب . فكان زيد خامس من دخل في الإسلام . وقد رأس عدداً من السرايا والغزوات  
لم يكن لأحد آخر من الصحابة . وكان قائداً مظفراً وفارساً منصوراً في كل غزواته حتى  
استشهد في غزوة مؤتة إلى روح وريحان وجنة نعيم .

فضل الزهراء :

ونعود إلى السيدة فاطمة فنقول : إن الصحاح روت عن ابن جريج (( قال لى غير واحد : كانت فاطمة صغرى بنات النبى صلى الله عليه وسلم وأحبهن إليه )) .  
كذلك سمعوه صلى الله عليه وسلم يقول لابنته فاطمة الزهراء ( إن الله ليرضى لرضاك ويغضب لغضبك ) .

وقد قالت السيدة عائشة متحدثة عن فضائل السيدة فاطمة الزهراء : (( فدخلت عليه ( أى فاطمة ) فى مرضه ( أى الرسول صلى الله عليه وسلم ) الذى توفى فيه ، فأسر إليها فبكت ، ثم أسر إليها فضحكت ، فقلت كنت أحسب لهذه المرأة فضلا على النساء فإذا هى واحدة منهن ، بينما هى تبكى إذ هى تضحك .

فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتها فأخبرتني أنه أسر إليها فقال : إن جبريل كان يعارضنى بالقرآن فى كل سنة مرة ، وإنه عارضنى العام مرتين ، وما أراه إلا وقد حضر أجلى ، وإنك أول أهلى لحوقا بى ، ونعم السلف أنا لك ، فبكيت ، فقال ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء العالمين ، فضحكت )) .

أقول ولا يتعارض هذا مع ما ورد فى القرآن الكريم من أن الله

اصطفى مريم على نساء العالمين ؛ فصطفاء مريم على نساء زمانها ، واصطفاء فاطمة على جميع النساء .

ومما عقب به العلامة العقاد على كلام السيدة عائشة قوله رحمه الله :  
 (( وما قالته السيدة عائشة عن المشابهة بين الزهراء وأبيها قيل على أسنة الثقة جميعا ،  
 ويزاد عليه في حديث السيدة عائشة أن امرأة في فضلها واعتزازها بنفسها كانت ترى للزهراء  
 فضلا على سائر النساء في حلمها ورسانتها )) .

الزواج بالإمام على :

لما بلغت الزهراء رضى الله عنها سن الزواج خطبها أبو بكر وعمر فأحسن صلى الله عليه وسلم ردهما وقال لكل منهما : أنتظر بها القضاء ، أو قال أنها صغيرة كما جاء فى سنن النسائي .

وجاء فى أسد الغابة أنه لما خطبها أبو بكر وعمر وردهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ردا جميلا قال عمر (( أنت لها يا على )) .

فقال على : (( ما لى من شىء إلا درعى أرهنها )) .

فزوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة ، فلما بلغ ذلك فاطمة بكت ، ثم دخل عليها صلى الله عليه وسلم فقال : مالك تبكين يا فاطمة ، فو الله لقد انكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما . وفى رواية أخرى أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : يا فاطمة إن عليا يذكرك ،

فسكتت . وكان من عادته صلى الله عليه وسلم أن يستشير كل بنت من بناته فى تزويجها كما جاء فى مسند الإمام أحمد ؛ فإن سكتت أمضى الزواج .

ويعلق العلامة العقاد على بكاء السيدة الزهراء فى روعة ظاهرة : فإذا كان الخبر الذى جاء فى أنساب الأشراف للبلاذرى أصل يعول عليه فأصله فيما هو مألوف عليه ومعقول أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم قد وجد الزهراء باكية وليس فى ذلك غرابة ، لأننا لا نتخيل فتاة فى مثل موقفها لا يبكيها ما تثيره فى نفسها ذكرى أمها ووداع بيت أبيها . وقد فارقتها أمها وهى صبية تدرك ما فقدته من عطفها وبرها وإطافها لها فى رخائها وعسرها ، ثم يكون يوم الفصل فى غرابة من الأم . من البيت الذى لزمته فيها ومن البلد الذى يحتويه .

فإن جهدنا أن نتخيل أن فتاة لا تبكى حين تحوم بنفسها تلك الذكريات وتقترب من اليوم الفاصل بين معيشتها فى كنف أبيها ومعيشتها فى غير كنفه ، فموضوع الغرابة أن نتخيلها بعد الجهد غير باكية وغير آسية ، ولا سيما من كانت مثل الزهراء مجبولة على مزاج حزين وأسى دفين على أمها العزيرة لم يفارقها مدى السنين .

ومثل النبى صلى الله عليه وسلم ، الذى كانت كبرى فضائله أنه إنسان عظيم ، ولن يسكت عنه إلا عمدا عالما بما يلعبه فى النفس من الحزن والشجن . فمن اللطف بالفتاة الحزينة أن يتحاشاها وأن يجعل

عزاه لها ما قاله عليه السلام مالك تبكين بافاطمة ، فوالله أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما .

جوار قريب :

ويعلل العلامة العقاد تعليله المتقدم ، وهو تعليل منطقي ، فيقول : إنه بعد أن تحولت الزهراء بعد زواجها عن دار أبيها لم تمض أيام حتى ذهب إليها فقال لها أنى أريد أن أحولك إلى فقالت : فكلم حارثة بن النعمان أن يتحول عنى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد تحول حارثة بن النعمان عنا حتى استحييت منه ، فبلغ ذلك حارثة فتحول وجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ، إنه بلغنى أنك تحول فاطمة إليك ، وهذه منازلى ، وهى أصعب بيوت بنى النجار بك ، وإنما أنا ومالى لله ورسوله ، والله يارسول الله للمال الذى تأخذ منى أحب إلى من الذى تدع . فقال رسول الله : صدقت ، بارك الله عليك ، فحولها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت حارثة .

روايات أخرى :

وفى رواية أخرى عن المهر أن عليا لما سأله النبي صلى الله عليه وسلم ( هل عندك شئ ؟ ) قال كلا ، فقال له : ( وأين درعك الحطمية ) ؟

<sup>١</sup> - أقرب .

( أى التى تحطم السيوف ) وكان صلى الله عليه وسلم أهدها أياها ، فباعها على وبيع أشياء غيرها كانت عنده ، فاجتمع لع منها أربعمائة درهم .

وفى رواية أخرى أنه بعد دخول الرسول صلى الله عليه وسلم بزوجه عائشة رضى الله عنها فكر على كرم الله وجهه أن يخطب فاطمة رضى الله عنها ، لكنه لم يكن فى يده مال فأحجم عن مخاطبة أبيها صلى الله عليه وسلم ، وزاد إحجامه حين بلغه أنه صلى الله عليه وسلم رد كلا من أبى بكر وعمر فى رفق بالغ .

ولكن أحباب على - كرم الله وجهه - ألحوا عليه فى خطبتها ، فقال لهم : بعد أبى بكر وعمر ؟ فأجابوه :

ولم لا ، ووالله ما بين المسلمين - وفيهم أبو بكر وعمر - من له مثل قرابتك من رسول الله ، وقد كفله أبوك ورعته أمك ، ثم نشأت فى كنفه وربيت فى بيته وكنت أسبق رجل فى الإسلام به " .

وأخذ طريقه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا جاءه حياها بتحيةة الإسلام ، ثم جلس قريب منه على استحياء ، لا يذكر حاجته .

وأدرك صلى الله عليه وسلم أنه جاء لحاجة لا يجرؤ على الإفصاح عنها ، فتلطف معه ليفصح عنها وسأله :

ما حاجة ابن أبى طالب ؟

أجاب بصوت خفيض ، وهو غاض البصر :

ذكرت لى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال الرسول الأكرم فى بشر ولطف : مرحبا وأهلا .

ثم أمسك صلى الله عليه وسلم لا يزيد .

ولما رجع على - كرم الله وجهه - إلى أصحابه سألوه عما تم فقال : ما أدرى والله شيئا ،

تحدثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر ، فما زاد على قوله مرحبا وأهلا .

فنهضوا جميعا : يكفيك من رسول الله إحداهما .

وفى اليوم الثانى وقف غير بعيد من رسول الله الأكرم صلى الله عليه وسلم ، وقال حيث

يسمعه عليه الصلاة والسلام : أردت أن أخطب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبنته ،

فقلت مالى من شئ ، ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها إليه .

فما راعه إلا أن التفت إليه صلى الله عليه وسلم مترفقا : وهل عندك شئ ؟

أجاب : لا يا رسول الله .

لكن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ذكر أن عليا أصاب درعا من مغنم بدر ، فعاد يسأله :

أين درعك التى أعطيتك يوم كذا .

أجاب وقد غلبه التأثر لما لقى من بره صلى الله عليه وسلم ورعايته : هى عندى يا رسول

الله. . .

قال عليه الصلاة والسلام : ( فأعطها إياها ) .

فانطلق على مسرعا وجاء بالدرع ، فأمره صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ليجهز العروس بثمنها .

وتقدم عثمان بن عفان ، فاشتري الدرع بأربعمائة وسبعين درهما حملها على ووضعها أمام الرسول - صلى الله عليه وسلم - فتناولها بيده الكريمة ثم دفعها إلى بلال ليشتري ببعضها طيب وعطر ، ثم يدفع الباقي إلى زوجته أم سلمة لتشتري جهاز العروس .  
وجهزت العروس وما كان لها من جهاز غير سرير مشروط ووسادة من آدم<sup>٢</sup> حشوها ليف وإناء يغسل فيه وسقاء ومنخل ومنشفة وقدر وروحين وجرتين .

#### حفلة الزواج :

قيل إن عقد الزواج تم في شهر رجب من السنة الأولى للهجرة ، وقيل إنه كان بعد الهجرة وبعد غزوة بدر . وكانت السيدة فاطمة عندئذ في الثامنة عشر من عمرها وكان على كرم الله وجهه في نحو الثانية والعشرين .

وعن أنس ابن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : انطلق وادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدهم من الأنصار ، قال فانطلقت فلما أخذوا مجالسهم قال صلى الله عليه وسلم :

( الحمد لله المحمود بنعمته ، والمعبود بقدرته ، المطاع بسلطانه ، المهروب

<sup>٢</sup> - جلد .

إليه من عذابه ، النافذ أمره فى أرضه وسمائه ، الذى خلق الخلق بقدرته ونورهم بأحكامه ، وأعزهم بدينه ، وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم . إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسبا لاحقا ، وأمرا مفترضا ، وحكما عادلا ، وخيرا جامعا ، وأوشج به الأرحام ، وألزمها الأنام ، فقال عز وجل : " وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا " وأمر الله يجرى إلى قضائه ، وقضائه يجرى إلى قدره ، " لكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب " .

ثم إن الله تعالى أمرنى أن أزوج قاطمة من على .

وأشهدكم أنى زوجت فاطمة من على ، على ربعمائة مثقال فضه إن رضى بذلك ، على السنة القائمة والفريضة الواجبة ، فجمع الله شملهم وبارك لهم وأطاب نسلهم وجعل نسلهم مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ) .

قال أنس : وكان على عليه السلام غائبا فى حاجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه فيها ، ثم أمر لنا بطبق فيه تمر فوضع بين أيدينا فقال : انتبهوا فبينما نحن كذلك إذ أقبل على فتبسم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا على ، ن الله أمرنى أن أزوجك فاطمة ، وأنى زوجتكها على أربعمائة مثقال من الفضة .

فقال على : رضيت يا رسول الله ، ثم أن عليا خر ساجدا شاكرا

لله . فلما رفع رأسه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب .

قال أنس : والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب " .

واحتفلوا بنو عبد المطلب بهذا الزواج كما يليق به ، وجاء حمزة بن عبد المطلب بشارفين<sup>٣</sup> فنحرهما وأطعم الناس بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولما تم الحفل وانصرف القوم مهئين ، دعا الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم زوجته أم سلمة فطلب إليها أن تمضى بالعروس إلى بيت زوجها وتنتظره هناك .

#### البناء بالعروس :

وأذن بلال لصلاة العشاء فصلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم بالمسلمين في المسجد ،

ثم مشى إلى دار علي حيث دعا بماء فقرأ عليه بعض آي الذكر الحكيم ، ثم أمر العروسين

أن يشربا منه ، وتوضأ بالباقي ونثره على رأسيهما ، وهم بعد ذلك بالأنصراف وهو يقول :

( اللهم بارك فيهما ، وبارك عليهما ، وبارك لهما في نسلهما ) .

وفى مناسبة قول الرسول الأكرم صلى

الله عليه وسلم : إن الله أمرني أن أزوجه فاطمة : أقتبس بعض ما قال العارف بالله سيدي

الشيخ أحمد

<sup>٣</sup> - الشارف : الناقة المسنة .

الحوانى - والد شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحوانى رضى الله عنهما وعن  
ذويهما - قصيدته ( الحلواء فى مدح بنى الزهراء ) مشيرا إلى ذلك الوحى وإلى فضل  
العروسين وإلى شرف ذريتهما :

أليس على كرم الله وجهه

كما جاءنا عنه بطرق السما أدرى

سل الشمس عنه فهى تعرف قدره

مذ استرجعت حتى غدا ففضى العصر

وسل جنة الفردوس يوم ازدهت وقد

بنى بالتي سادت نساء الورى

أتى الوحى أن تجلى عروسا لحيدر

فيا شرف أضحى به الكون مفترا

ليهن بنى المجد نظم هكذا

بنى الهدى فاطرب وحيدر والزهرا

بنفسى أهل البيت من مثلهم علا

وهم فى عيون المجد تور قد افترا

ومنذا يدانى أو يقارب بضعة

لهم تنتهى العلياء والرتبة الكبرى

ألستم نثارا من نظام محمد

فمن مثله نظما ومن مثلكم نثرا

## محبتهم باب الرضا ورضاهمو

يسام بأرواح المحبين لو يشرى

### المسكن الجديد وعيشة الكفاف :

يصف لنا العلامة العقاد مسكن الزوجية الجديد فيقول رحمه الله : انتظمت الحياة فى المسكن الجديد الذى أواى إلى ظل النبى صلى الله عليه وسلم ، على مثال من حياة النبى صلى الله عليه وسلم فى بيته : عيشة كفاف وخدمة يتعاون عليها رب البيت وربته ، إذ كان رزق على من وظيفته الجندى ، ووظيفته من فى الجهاد ، وقد كان قليلا فى حياة النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو مقصور على الجزيرة العربية ، فكان نصيب على منه أقل من أن يتسع لأجرة الخدم ، وكلما رزق وليدا جاءت حصته على قدره ، شأن كل أب من المسلمين .

### تعويض عن عيشة الكفاف :

أقول : ولا شك أن الزوجين الكريمين قد وجدا فى التقوى ، والاسترواح بنفحات الملائكة الأعلى العوض عن متاع الدنيا الذى يتلهى بها عامة الناس . وشتان بين الخاصة فى عزوفهم عن الدنيا ، والعامة فى حرصهم عليها " منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة " ولقد زار الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم الزهراء يوما فوجدها تطحن بالرحا وعليها كساء من وبر الأبل فبكى وقال ( تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة ) . وهذا لا ريب تربية عالية ، وقد ربى الله

تعالى بها نساءه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى (( يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً \* وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً )) .

برهان النبوة :

ويعلق العلامة العقاد على تخبيره صلى الله عليه وسلم زوجاته بين الصبر على عيشة الكفاف والتسريح لينعمن بالحياة الدنيا وزينتها ( وقد اخترن رضى الله عنهن الصبر أسوة بصبره صلى الله عليه وسلم على تلك المعيشة ) ، فيقول فى روعة :

الله أكبر . . .

مثل محمد يعلو على إشفاق المشفقين ، ومن كان فى قدرته أن ينعم من الدنيا بما يقطع قلوب الحاسدين حسداً ، ثم يرضى لنفسه وآله منزلة الإشفاق ، فذلك هو الإعظام ، وذلك هو المرتقى الذى قيل فيه :

وبعيد بلوغ هاتيك جدا                      تلك عليا مراتب الأنبياء

إن محمداً يبكى لأنه يرى أحب الناس إليه وأقربهم منه جائعة مرهقة ( يقصد السيدة الزهراء رضى الله عنها ) ثم لا يملك لها ما يشبعها ويعفيها من عنائها ، وهو يملك كل شىء فى الجزيرة العربية . ويسأل السائلون من زعانفة المعطلين والمتعصبين أعداء كل دين : ما برهان النبوة عند محمد ؟ الله أكبر ، إن لم يكن هذا برهان النبوة فبرهان أى شىء يكون ؟

زهد النبوة :

وإنى أضيف إلى ما قاله العلامة العقاد أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم فوق أنه كان يملك الجزيرة العربية ، عرض عليه ربه أن يحول له جبال مكة ذهباً ، فأبى وقال : لا يا ربي أجوع يوماً وأشبع يوماً ، أجوع فأذكرك وأشبع فأحمدك ، وهو ما يؤكد زهده في الدنيا وعزوفه عن متاعها الفانى . والزهد هنا ليس معناه فقر اليد ، بل خروج الدنيا من القلب الذى امتلأ بمحبة الله وآثر الله تعالى على ما سواه ، وهذا هو الغنى الحق . ولذلك قال العارفون : ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك ، بل الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك . وإلى هذا يشير الإمام البوصيرى فى برده المباركة بقوله :

و شد من سغب<sup>١</sup> أحشاءة وطوى

تحت الحجارة كشحا<sup>٢</sup> مترف الأدم<sup>٣</sup>

ورودته الجبال الشم من ذهب	عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته	إن الضرورة لا تعدو على العصم
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من	لولا له لم تخرج الدنيا من العدم

<sup>١</sup> السغب : الجوع .

<sup>٢</sup> كشحا : البطن .

<sup>٣</sup> الأدم : الجلد .

### الزهرء فى الءىاء العامة :

رزق الله السىءة ءءىءة من رسول الله . صلى الله عليه وسلم . فاطمة الزهراء قبل البعثة بءمسة أعوام . وقء شاركت أسرتها الءصار فى شعب أبى طالب ، ذلك الءصار الءائر الذى ءام ثلاث سنوات ؛ كما هاءرت مع أءتها أم كلثوم إلى المءىنة المنورة ءىن أرسل إليهما أبوهما صلى الله عليه وسلم مولاه زىءاً بن ءارئة .

وقء صءبت أباهما صلى الله عليه وسلم فى غزوة أءء ، ورؤىء هناك بىن الءرءى ءضمء جراحهم وءقوم على ءءمءهم وءسقى الشهداء وهم ىءءضرون ، لا ءبغى بذلك إلا رضاء الله ورسوله .

### عىشة الزهراء وأءواتها :

و شاء الله أن ءبلى الزهراء رضى الله عنها بعىشة الكفاف ءون أءواتها الءلاث . فإن السىءة زىنب رضى الله عنها كانت مءزوءة من العاص بن الربىع ، وكان ءاآراً ذا مال فعاشء فى سعة . أما السىءءان رقىة وأم كلثوم فكانءا فى بىء أبى لهب عنء زواءهما من أبنىه عءبة وعءىبة ، وكان أبو لهب ذا مال . وعنءما فارقا زواءهما ءزوءءا واءءة بعء الأءرى من عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وكان واسع الءراء فعاشءا فى بسطة من العىش .

### الزهرء فى خدمة البيت :

اختلفت حياة السيدة الزهراء عن حياة أخواتها الثلاث ، اللواتى أتاحت لهن عيشة الثراء ، وقد احتملت مع زوجها الإمام على عيشة الشظف ، فكانت تخدم بيتها بيدها . وجاء فى وصف العباء الذى وقع عليها فى تلك الخدمة : أنها جرت بالرحى حتى أثرت فى يدها ، وحملت القربة حتى أثرت فى نحرها ، وكنست البيت حتى اغبرت ملابسها .

وذات يوم عاد أبوها من إحدى غزواته الظافرة بغنائم وسبايا ، فانتهاز الإمام على تلك الفرصة ليهون على زوجته متاعب البيت ، فقال لزوجته الزهراء فى إشفاق عليها ورحمة بها : لقد جهدت يا فاطمة حتى آذيت صدرى ، وجاء الله بسببى فاذهبى فالتمسى واحدة تخدمك . أجابته وهى تنحى الرحى جانباً وهى متعبة : أفعل إن شاء الله .

وقد ذهبت إلى بيت أبيها على استحياء ؛ فلما رآها صلى الله عليه وسلم هس لها وسألها : ما جاء بك يا بنية ؟

أجابت جأت لأسلم عليك ، ومنعها حياؤها أن تطلب حاجتها ، ثم عادت فأخبرت زوجها بما كان من حياؤها . فقام كرم الله وجهه وصحبها إلى بيت أبيها صلى الله عليه وسلم وتولى عنها إبداء حاجتها .

فأجابه صلى الله عليه وسلم :

( لا والله ، لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكن أبيع وأنفق عليهم بالثمن ) .

ومعلوم أن الله تعالى أوصى نبيه صلى الله عليه وسلم بأهل الصفة هؤلاء وكانوا من المهاجرين العابدين المتبتلين بالمسجد النبوي ، فقال سبحانه : (( واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه )) . وسره صلى الله عليه وسلم أن يكون في أمته هذا الفريق من المؤمنين الذين نظر الله إلى قلوبهم نظرة الرضا ، فقال صلوات الله وسلامه عليه : (( الحمد لله الذي لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع ناس من أمتى )) ، وقد اعتنى بشأنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى آثرهم على أبنته بالسبى كما ترى .  
على أن الرسول الرؤف ، وقد مست قلبه حاجة ابنته الغالية ، ذهب يزورها على الأثر ، ثم قال لها ولزوجها :

ألا أخبركما بخير مما سألتمانى ؟

فأجابا معا : بلى يا رسول الله .

قال : كلمات علمنيهن جبريل : تسبحان الله فى دبر كل صلاة عشرا ، وتحمدان عشرا ، وتكبران عشرا ، وإذا آويتما إلى فراشكما تسبحان ثلاثا وثلاثين ، وتكبران ثلاثا وثلاثين .  
وفى رواية أخرى أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : اتقى الله يا فاطمة وأدى فريضة ربك واعملى عمل أهلك ؛ وإذا أتيت مضجعك فسبحى ثلاثا

وثلاثين ، واحمدى ثلاثا وثلاثين ، وكبرى أربعاً وثلاثين ، فتلك مائة فهو خير لك من خادم .  
قالت : رضيت عن الله وعن رسول الله .

ثم ودعهما ومضى ، بعد أن زودهما بهذه النصيحة ذات العدد والمدد التى تشرح الصدر  
وتخفف العبء ، ولقد حرصا عليها وعملا بها ، حتى لقد قال الإمام على كرم الله وجهه :  
فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن ، فقال له رجل من أصحابه : ولا ليلة صفين فأجاب الإمام :  
ولا ليلة صفين .

#### كرم الزهراء :

ومع عيشة الكفاف التى صبرت عليها السيدة الزهراء ، فإنها كانت كريمة تجود بما عندها  
وتؤثر المحتاجين على نفسها ابتغاء مرضاة الله حتى نزل فيها وفى زوجها : ( يوفون بالندر  
ويخافون يوماً كان شره مستطيراً . ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً .  
إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ) .

وقد جاء فى تفسير البيضاوى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الحسن والحسين رضى الله  
عنهما مرضاً . فعادهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ناس ، فقالوا : يا أبا الحسن ، لو  
نذرت على ولديك ، فنذر على وفاطمة وفضة وهى جارية لهما صوم ثلاث إن برئاً ، فشفيا وما  
معهم شىء فاستقرض على من شمعون الخيبرى ثلاثة أصع من شعير ، فطحنت فاطمة  
صاعاً وخبزت خمسة أقراص فوضعوها بين أيديهم ليفطروا ، فوقف

عليهم مسكين فآثروه وباتوا ولم يذقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً ، فلما أمسوا ووضعوا الطعام وقف عليهم يتيم فآثروه ، ثم وقف عليهم فى الثالثة أسير ففعلوا مثل ذلك ، فنزل جبريل عليه السلام بهذه السورة وقال : خذها يا محمد هناك الله فى أهل بيتك .

ونوه الشاعر العبقري السيد محمد إقبال بهذا الشرف فيقول فى قصيدته ( الزهراء ) التى ترجمها إلى العربية صديقى الشيخ الصاوى شعلان :

ولزوج فاطمة بسورة هل أتى تاج يفوق الشمس عند ضحاها

ثم يقول فى السيدة الزهراء :

لما شكا المحتاج خلف رحابها رقت لتلك النفس فى شكواها

جادت لتنقذه برهن خمارها يا سحب أين نذاك من جدواها

الزهراء تشهد فتح مكة :

خرجت السيدة الزهراء من مكة مهاجرة وعادت إليها عند فتحها فى السنة الثامنة من الهجرة ، حين سير أبوها صلى الله عليه وسلم جيشاً من عشرة آلاف مقاتل ليأخذ بحقه من أهلها الظالمين الذين أكرهوه وأصحابه على الهجرة منها ونقضوا صلح الحديبية .

وعسكر الجيش النبوى الظافر فى " مر الظهران " انتظاراً للمعركة الفاصلة ، فإذا بقائد لواء المشركين ، أبو سفيان بن حرب ، يسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلقى السلم ويؤمن بالدعوة المحمدية .

وعندئذ نظم الرسول صلى الله عليه وسلم دخول جيشه إلى البلد الأمين ، فقسمه فرقاً على رأس كل منها أحد كبار الصحابة ، وكانت الراية مع سعد بن عبادَةَ الأنصاري فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عمه وزوج الزهراء على بن أبي طالب : (( أدركه فخذ الراية منه ، فكن أنت الذى تدخل بها )) .

ولم تكن هذه أول راية يحملها زوج الزهراء ، بل حمل قبلها رايته " العقاب " فى خيبر ، وكانت أول راية للرسول ، وقد أستشرف إلى حملها أصحابه حين قال فى خيبر : (( لأدفعن الراية إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ويفتح عليه )) حتى لقد قال عمر : ما تمنيت الإمارة إلا يومئذ ، فكانت من نصيب أبى الحسنين الإمام على كرم الله وجهه .

وكذلك حمل أبو الحسنين كرم الله وجهه الراية فى غزوة بنى قريظة ، كما حمل راية المهاجرين فى غزوة أحد ، وحمراء الأسد ، ويوم حنين ، وجهاد أبو الحسنين فى نصر الإسلام معروف ، فقد شهد أبو الحسنين المشاهد كلها مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقاد سرايا الرسول إلى فدىك فى شعبان من السنة السادسة للهجرة وإلى اليمن فى السنة العاشرة .

وصدر فى فتح مكة الأمر النبوى للصحابة الفاتحين ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، واستثنى من هذا الأمر نفرأ سماهم بأسمائهم وفيهم الحويرث بن منقذ الذى نخس راحلة الزهراء وهى مهاجرة من مكة فألقت بها على

الأرض وشاء الله أن يقتله زوجها على بن أبي طالب ليكون أخذ ثأرها على يده لا على يد غيره ، فذلك أدخل لسرورها ، وقد سجد أبوها صلى الله عليه وسلم شكراً لله على قتل ذلك النذل .

ولقد شهدت السيدة الزهراء ذلك الفتح المبين والنصر الحاسم ، وظافت بها ذكريات الصبا ، وعاودها الحنين إلى أمها خديجة الكبرى وهي تبارك من عالم الملكوت الخالد ذلك الظفر ، ظفر الحق على الباطل ، والهدى على العمى ، وتلك كانت غايتها التي جاهدت من أجلها بالنفس والمال عندما ظهرت الدعوة المحمدية وأشرق نورها على العالمين ، فاستضاءت به القلة الكرام ، وتوارت منه الخفافيش في ليل الكفر حتى فضح الصبح فحمة الدجى ، وبهرت الشمس مواطن الظلام ودخل الناس في دين الله أفواجاً وأذن مؤذن الحق في السنة التاسعة : ( يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ) .

وقد لحظ الإمام على كرم الله وجهه أن زوجته الزهراء لم تبت ليلتها بل ظلت ساهرة يقظى تنتشى فرحاً بفتح مكة ، فقال وهو يتهيأ لصلاة الصبح في البيت العتيق بعد أن ظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوثان التي كانت حوله :

أم نمت يا أم الحسن ؟

أجابته وهي فرحة بالنصر :

بل أردت أن استمتع بعودتنا الظافرة وأنا كاملة اليقظة ، وكأني أشفق إذا نمت أن يكون الأمر كله حلما في الكرى .

ثم قامت تصلى ، ثم نامت بعد سهر طويل .

ودام مقام السيدة الزهراء بمكة المكرمة شهرين وبعض الشهر ، فقد دخلتها في شهر رمضان من العام الثامن للهجرة ، وغادرتها مع أبيها إلى المدينة المنورة في أخريات ذى القعدة من العام نفسه ، بعد أن زارت قبر أمها خديجة الكبرى .

وزاد في سرور الزهراء أن تسمع بأذنيها ضجيج آلاف من المسلمين الفاتحين وهم يهتفون :

الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله والله أكبر .

ثم أوى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قبته حيث كانت تنتظره ابنته الزهراء ، واستراح قليلا ثم جاء البيت الحرام وسط الجموع الزاحفة فطاف به سبعا على راحته ، فلما قضى طوافه فتحت له الكعبة ثم وقف على بابها فخطب في الناس خطبة الفتح ثم قال :

(( يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ، قالوا خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال اذهبوا فأنتم الطلقاء )) .

يا للسماحة والخلق العظيم ، عفو عند المقدرة ، على أعدائه الآثمين الفجرة ، الذين أخرجوه وأصحابه من ديارهم بغير ذنب إلا أن يقولوا : ربنا الله .

وكانت تتم لهؤلاء الأعداء من قومه سعادة الدارين لو أنهم أطاعوه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، ولكنه الحسد يعمى ويصم ، وقد سبقهم إلى تلك السعادة المهاجرون والأنصار عليهم جميعاً رضوان الله .

يا سبحان الله ، هذا أبو سفيان بن حرب صاحب لوائهم يأتى مذعناً ومسلماً ، وقد كان الحسد ينأى به عن سبيل الحق ، ويقف به على سبيل الغى .

وها هو ذا يحدث عن نفسه وأحاسيسها . بعد أن أسلم وصحب الرسول صلى الله عليه وسلم . فيفصح عن دخيلة نفسه قبل إسلامه ، فيما رواه الإمام البخارى بسدنه عن ابن عباس قال : إن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام فى المدة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>١</sup>

<sup>١</sup> يشير إلى صلح الحديبية الذى تم فى السنة السادسة من الهجرة وكانت مدة الهدنة عشر سنوات إلا أن قريشاً نقضت شروط الصلح ، فسار صلى الله عليه وسلم إلى مكة غازياً وفتحاً حيث أحل الله له قتالهم فيها ولم تحل مكة لأحد قبله صلى الله عليه وسلم .

ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش ، فأتوه وهم بايلىاء ، فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا بترجمانه ، فقال : أياكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان فقلت أنا أقربهم نسباً ، فقال : أدنوه منى ، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه :

قل لهم إنى سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبنى فكذبوه . فوالله لولا الحياء من أن يا ثروا على كذباً لكذبت عنه . ثم كان أول ما سألتنى عنه أن قال :

كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب .

قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قبله ؟ قلت : لا .

قال : فهل كان من آباءه من ملك ؟ قلت : لا .

قال : فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤه ؟ فقلت : بل ضعفاؤه .

قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون .

قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا .

قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا .

قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا . ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها . قال : ولم تمكنى

كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة ،

قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم .

قال : فكيف كان قتالكم أياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه .

قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : أعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول  
آبائكم ، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

فقال للترجمان : قل له سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تبعث في  
نسب قومهم ،

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله  
، فقلت رجل يأتي بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آباءه من ملك ؟ فذكرت أن لا ، قلت  
فلو كان من آباءه ملك ، قلت رجل يطلب ملك أبيه ،

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم  
يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ،

وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم أتبعوه وهم أتباع الرسل ،

وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ، فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ،

وسألتك : أيرتد أحد منكم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين  
تخالط بشاشته القلوب ،

وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ،

وسألتك : بم يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه .

ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه :

(( بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين <sup>١</sup> :

(( يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون )) .

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب فقلت لأصحابي حين أخرجنا : لقد أمر أمر ابن أبى كبشة إنه يخافه ملك بنى الأصفر ، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام .

<sup>١</sup> أتباعه من الفلاحين وغيرهم .

ومعنى أمر أمر ابن أبي كبشة أى عظم شأن محمد . وأبو كبشة احد أجداده صلى الله عليه وسلم ، وكان من عادة العرب إذا أرادوا انتقاص شخص نسبوه إلى جد غامض غير مشهور ، وقيل هو أبوه من الرضاعة .

وحديثه واضح فى أنه كان يود أن يكذب فى شأنه صلى الله عليه وسلم لولا أنه خاف أن يكذبه من كانوا معه . وهو واضح كذلك فى أنه أراد أن يغمز فى أمر الهدنة التى كانت بينهم وبينه صلى الله عليه وسلم . وأخيراً تحدث عن حسده لعظم شأنه حتى لقد خافه ملك الروم ، وروى عنه بجد غير مشهور انتقاصا لحقه وهو سيد قريش واعترافه أقوى دليل عليه كما أنه لم يبادر بتصديقه بعد ذلك اللقاء مع يقينه بظهوره على أعدائه حتى أسلم عند فتح مكة مغلوبا على أمره ، والله العزة ولرسوله وللمؤمنين .

#### عطف نبوى كريم :

أما عن العطف الذى حبا به الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم السيدة الزهراء وزوجها فحدث ولا حرج . فقد كان يزورهما عند صلاة الصبح كل يوم ويأخذ بعضادتى الباب ويقول : السلام عليكم أهل البيت ويقول : الصلاة ثلاث مرات ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا .

كما أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم يثنى بفاطمة رضى الله عنها ثم يأتى بيوت نسائه .

#### سحب الصيف :

ومضت العشرة فى جملتها بين السيدة الزهراء وزوجها فى مودة ورحمة وكان ما يقع بينهما من خلاف كسحب الصيف لا تكاد تظهر حتى تختفى ، وكان الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم يحرص أن يدوم بينهما الصفاء ، وكان يتدخل بنفسه لإصلاح ما يقع من خلاف بينهما ، فكان يدخل بيتها مهموما ويخرج مسروراً ، فيسأله أصحابه فى ذلك السرور فيجيبهم : ولم لا وقد أصلحت بين أحب الناس إلى .

وحدث مرة أن ضاقت السيدة الزهراء من شدة زوجها فقالت له : والله لأشكونك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وخرجت إلى دار أبيها صلى الله عليه وسلم ، وخرج زوجها فى أثرها فشكت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ما أنكرت من زوجها ، فتلطف صلى الله عليه وسلم فى ترضيتها وحملها على احتمال زوجها ، فقال لها زوجها وهو يصحبها راجعة : والله لا آتى شيئاً تكرهينه أبداً .

#### غيرة محمودة :

ولعل أهم ما وقع بينهما أنها سمعت أن زوجها يهيم بالزواج من بنت

عمرو بن هاشم بن المغيرة المخزومي ، فذهبت إلى أبيها باكية وقالت له : يزعمون أنك لا تغضب لبناتك .

وجاء بنو هاشم بن المغيرة ليستأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم في تزويج على بابنتهم ، فصعد صلى الله عليه وسلم المنبر والغضب باد عليه وقال على مسمع من الحاضرين : (( إن بنى هاشم بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب ، فلا آذن لهم ، ثم لا آذن لهم ، ثم لا آذن لهم ، إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فإنما ابنتى بضعة منى يربىها ما رابها ويؤدبها ما آداها ، وإنى أتخوف أن تفتن فى دينها )) . ثم ذكر صلى الله عليه وسلم صهره أبا العاص ( زوج السيدة زينب ) وهو من بنى عبد شمس ، لا من بنى عبد المطلب ، فأثنى فى مصهارته إياه أحسن الثناء وقال : (( حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فأوفى لى ، وإنى لست أحرم حلالاً ولا أحل حراماً ؛ لكن الله لا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله بيتاً واحداً )) .

وعمر بن هاشم والد تلك الفتاة التى أراد أن يتزوجها الإمام على كرم الله وجهه ، وهو عدو الله ورسوله أبو جهل الذى طالما آذى الرسول صلى الله عليه وسلم فى شخصه وفى رسالته وفى أصحابه .

وكانت تلك الفتاة قد أسلمت وبايعت النبى صلى الله عليه وسلم وحفظت عنه ، ففعل الإمام خاف عليها الفتنة فى دينها ، وقد كان تعدد الزواج مألوفاً ، كما أن الشرع لا يأباه .

ولكن اجتماع تلك الفتاة فى بيت واحد مع السيدة الزهراء يؤذيها أيما إيذاء من الناحيتين الشخصية والنفسية ، فإنه وإن كانت الفتاة قد أسلمت وبايعت والإسلام يجب ما قبله ، لكنها بنت عدو الله أبى جهل الذى حارب الإسلام بكل ما يملك من نفوذ ومال وسيف إلى أن قتل فى غزوة بدر الكبرى ، ولعله لو كان حياً لمنع ابنته من الإسلام ، فكيف تطيق السيدة الزهراء أن تعيش مع ابنته ، فتجتمع فى بيت واحد بنت أحب أحباب الله وبنت أعدى أعداء الله ؟ ! فضلاً عما فى العيش مع الضرة من أذى ومضايقة .

وأبو جهل كان أحد السبعة الذين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، وظل صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه اطلبوه حتى قتل كافراً ملعوناً ، وهو الذى نزل فيه قوله تعالى : ( إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ؛ كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم ) . والإمام على كرم الله وجهه كان ينظر إلى السيدة الزهراء نظرتين . أولاً أنها زوجته الحبيبة ، وثانيتها أنها بنت الرسول الذى آثره بها على أبى بكر وعمر ، ومعاذ الله أن يقصد بزواجه الثانى إيذائها ومضايقتها ، لذلك نراه كفى عنه عندما تكشف له غضبها وغضب الرسول صلى الله عليه وسلم .

### أخلاق الكرام :

وإنك لتعجب من رقة شعور الإمام ومن سماحة زوجته الزهراء رضى الله عنهما ، فإنه حين رجع الإمام إلى داره بعد أن سمع الكلام المتقدم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأى زوجته الزهراء تبكى ، اعتذر إليها قائلاً :

هيبنى أخطأت فى حقك يا فاطمة ، فمثلك أهل للعفو والمغفرة .

فأجابته : غفر الله لك يا ابن العم .

أتراها فى قولها ذلك أردت أن تقول له إنك لست زوجاً فحسب بل إنك زوج وابن عم تربطنى بك قرابة قريبة باللحم والدم ، فضلا عن صلة الإيمان والزوجية .

ما أعظم هذه النفوس الكريمة التى تحلى بها ساداتنا وسيداتنا آل البيت المحمدى ؛ فحملتهم على الاعتذار عند الإساءة والعفو عند التسامح ، ولم لا يكون ذلك والإمام على نفسه يدعو إلى العفو ويقول :

أجعل عفوك عن المسئء إليك شكراً لنعمة قدرتك عليه .

ومثل إمامنا على لا يغامر بمضايقه الزهراء الأثيرة عند أبيها الذى حباه بعطفه من صباه ، ورباه فى كنفه ، وأنزله منزلة الابن ، ولقنه الإسلام قبل أن يبلغ الحلم ؛ وأعزه بذلك كله أيما إعزاز ؛ فهو يذكر ذلك الفضل ولا ينساه ؛ ويعتز به ولا يخذشه ؛ ويعلم حق العلم أن الرسول

صلى الله عليه وسلم حموه وابن عمه ؛ وفوق هذا وذاك فالرسول الذى اصطفاه الله على العالمين أقرب الناس إلى قلبه وأحب إليه من والده وولده والناس أجمعين بل ومن نفسه التى بين جنبيه .

كياسة نبوية :

وكذلك كان الإمام على كرم الله وجهه واثقاً من منزلته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع وثوقه أراد أن يطمئن قلبه على تلك المنزلة فوجه سؤالاً للرسول صلى الله عليه وسلم :  
أيهما أحب إلى رسول الله ؛ ابنته الزهراء أو زوجها على ؟  
فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم فى ابتسام ولباقة : فاطمة أحب إلى منك ؛ وأنت أعز على منها . . .

يا روعة الجواب ؛ فهو جواب صدق فى كياسة وحفاظ على شعور الزوجين الأثيرين .

صدق الوعد :

ونعود لما كنا فيه فنقول أنه بعد تلك الحادثة العارضة التى انصرف عنها الإمام على عاش الزوجان حياة سعيدة بر فيها الإمام بوعدده لزوجته فلم يغضب الزهراء فى شئ .

بر وحنان :

وبعد العودة إلى المدينة بعامين وقليل ، مرض صلى الله عليه وسلم فى أخريات صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة .

فأقامت السيدة الزهراء إلى جانب أبيها براً وحناناً ، وكيف لا تفعل وهى التى قامت بعبء بيته بعد موت أمها خديجة الكبرى ؛ وعنيت أياً عناية بتوفير الراحة له صلى الله عليه وسلم حتى لقت بأم أبيها .

ولما اشتد الوجع بالرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم استأذن نساءه أن يمرض فى بيت السيدة عائشة حتى لا يتحمل مشقة الانتقال إلى كل زوجة فى دورها وهو مريض ، وقد رآته السيدة الزهراء فى ذلك البيت يأخذ الماء بيده ويضعه على رأسه وهو يقول : وا كرىاه .

فخنقت العبرات أم أبيها وقالت وهى محزونة : وا كرىبى لكرىك يا أبتاه ؛ فرد عليه فى عطفه المعتاد وحنوه الأبوى : لا كرىب على أبىك بعد اليوم .

فتذكرت ما كان قاله لها قبل ذلك حين جاءته زائرة فلما رآها مقبلة أشبهه أحد به سمتا وهدايا ؛ على ما وصفت السيدة عائشة هشا للقائها قائلاً : مرحباً يا ابنتى .

ثم قبلها وأجلسها إلى يمينه وأسر إليها أن قد حان أجله ؛ فلما بكت هون عليها بقوله : وإنك أول أهل بيتى لحوقاً بى . ثم أضاف : ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء هذه الأمة ؟ !

فسرها ما سمعت ، وضحكت بعد بكاء ، فعجبت السيدة عائشة وقالت : ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب إلى حزن ، ثم سألت الزهراء عما أسره الرسول إليها ، فأجابت أم أبيها : ما كنت لأفشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم سره .

ربطت بين حديثه السابق وقوله صلى الله عليه وسلم لا كرب على أبيك بعد اليوم ، وفعلا قدر الله أن يلحق صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى .

فلما مضى صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى قالت : وا أبتاه ، أجب رباً دعاه ، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه .

أقول : وهذا ما يدل على مدى بلاغتها حتى في أشد مواطن الحزن .

وقال الإمام ابن كثير : لا يعد ما قالت نياحة من المنهى عنها ، بل هو من باب ذكر فضائله الحقّة عليه الصلاة والسلام .

وقد قال سيدنا أبو بكر لسيدنا عمر بعد وفاته صلى الله عليه وسلم : أنطلق بنا إلى أم أيمن ( حاضنة الرسول صلى الله عليه وسلم ) نزورها ، فلما انتهيا إليها بكت ، فقالا لها : ما يبكيك ؛ ما عند الله خير لرسوله . قالت : والله ما أبكى إلا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ؛ ولكن أبكى أن الوحي انقطع من السماء . قال : فهيجتهما على البكاء فجعلتا يبكيان ؛ وعجب الناس من قولها .

ولقد قال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يعزى السيدة الزهراء :

أفاطم إن جزعت فذاك عذر وإن لم تجزعى ذاك السبيل

فقبر أبيك سيد كل قبر وفيه سيد الناس الرسول

فجمعت السيدة الزهراء كيائها المتصدع لهول ذلك المصاب الكبير ، وسعت إلى قبر الحبيب ،  
فقبضت قبضة من تراب القبر الشريف وأدنتها من عينيها اللتين قرحهما البكاء ، ثم راحت  
تشمها وتقول فى لوعة وحزن عميق :

ماذا على من شم تربة أحمد ألا يشم مدى الزمان غواليا

صبت على مصائب لو أنها صبت على الأيام عدن لياليا

واستعبرت باكية ، فبكى الناس لبكائها ، حتى إذا عادت إلى دارها ، استأذن عليها أنس بن  
مالك خادم الرسول صلى الله عليه وسلم وراح يسألها الصبر الجميل ، فقالت له معاتبة : كيف  
مكنك قلبك أن تسلم للأرض جثة رسول الله ؟ !

فشهق أنس وذرفت عيناه الدموع وترك الكلام فى الصبر والعزاء ، وكان ثابت البنانى إذا حدث  
بهذا الحديث بكى حتى تختلف أضلاعه .

موت الزهراء :

ولم تجد السيدة الزهراء عزاء عن صدمتها إلا الرجاء فى أن تلحق

بأبيها صلى الله عليه وسلم ، فقد بشرها أنها أول أهل بيته لحوقاً به ، ولا خير فى عيشها بعده .

وما أسرع ما تحقق قوله صلى الله عليه وسلم ، فقد أصبحت يوم الاثنين الثانى من رمضان سنة إحدا عشرة فعانقت أهلها ، وملأت عينيها منهم ، ثم دعت إليها أم رافع مولاة أبيها صلى الله عليه وسلم ، فقالت لها بصوت منخفض :  
يا أمه أسكبى لى غسلا .

واغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل ، ثم لبست ثياباً لها جدداً كانت قد نبذتها حداداً ، ثم قالت : قد اغتسلت فلا يكشف لى أحد كنفنا .

ثم قالت لأم رافع : اجعلى فراشى فى وسط البيت ، فلما فعلت أم رافع اضجعت عليه السيدة الزهراء واستقبلت القبلة وتهيات للقاء ربها ، لتلحق بأبيها صلى الله عليه وسلم فى دار النعيم ، وتبسمت ولم تر مبتسمة بعد وفاة أبيها إلا ساعتها ، ثم أغمضت عينيها وأسلمت روحها لبارئها .

وقام زوجها فاحتملها باكياً ، ودفنها بالبقيع ثم ودعها ، وعاد إلى صغاره محزوناً ، وقد أوحشت الدار من الزهراء التى كانت نورها وجمالها ، وقد أحن المصلمين أن يشيعوا إلى القبر رابع بنات الرسول صلى الله عليه وسلم وآخرهن فى الحياة ، ولما تمض على وفاته صلى الله عليه وسلم ستة أشهر .

وكانت وفاتها على القول الأشهر ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان

سنة إحدى عشرة للهجرة ، ودفنت ليلا حسب وصايتها ، كما دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قال إمامنا على رضى الله عنه يعزى نفسه :

وإن افتقادی فاطما بعد أحمد      دليل على ألا يدوم خليل

وخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال فيما قال :

السلام عليك يا رسول الله عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك السريعة اللحاق بك ، قل يا رسول الله عن صفيتك صبرى ، ورق عنها تجلدى ، إلا أن لى فى التأسى بعظيم فرقتك ، وفادح مصيبتك موضع تعز .

ويقول العلامة العقاد تعقيباً على وفاتها رضى الله عنها :

(( فى كل دين صورة للألوثة الكاملة المقدسة يتخشع بتقديسها المؤمن كأنما هى آية الله فيما خلق من نكر وأثنى .

(( فإذا تقدست فى المسيحية مريم العذراء ، وفى الإسلام لا جرم أن تتقدس صورة فاطمة البتول )) .

وفى مناسبة ما يقوله العلامة العقاد العبرى العربى نثراً فى المقارنة بين السيدة " فاطمة الزهراء " والسيدة " مريم العذراء " نمتع القراء بما قاله فى قصيدته " الزهراء " الشاعر العبرى الأعجمى وفيلسوف باكستان العظيم السيد محمد إقبال أوسع الله له فى رضوانه ، فيما ترجمه عنه إلى العربية صديقى الشيخ الصاوى شعلان مد الله فى عمره وزاده توفيقاً: َّ

نسب المسيح نبى لمريم سيرة      بقيت علطول المدى ذكراها

فى مهد فاطمة فما أعلاها  
من ذا يدانى فى الفخار أباه  
هادى الشعوب إذا تروم هداها  
آمال فى الدنيا وفى آخرها  
وكأنه بعد البلى أحياءها  
مثل العرائس فى جديد حلاها

\* \* \*

تاج يفوق الشمس عند ضحاها  
ت بصيقل يحو سطور دجاها  
سيف غدا بيمينه تياها

\* \* \*

ينجبهما فى النيرات سواها  
ثرة الوئام والاتحاد ابناها  
أمسى تفرقها يحل عراها  
ر إمام ألفتها وحسن علاها  
أزكى شمائله وما أنداءها  
ن إذا الحوادث أظلمت بدجاها  
صبر الحسين وقد أجاب نداها

والمجد يشرق من ثلاث مطالع  
هى بنت من هى زوج من هى أم من  
هى ومضة من نور عين المصطفى  
هو رحمة للعالمين وكعبة ال  
من أيقظ الفطر النيام بروحه  
وأعاد تاريخ الحياة جديدة

ولزوج فاطمة بسورة هل أتى  
أسد بحصن الله يرمى المشكلا  
إيوانه كوخ وكنز ثرائه

فى روض فاطمة نما غصنان لم  
فأمير قافلة الجهاد وقطب دا  
حسن الذى صان الجماعة بعدما  
ترك الخلافة ثم أصبح فى الدنيا  
وحسين فى الأحرار والأبرار ما  
فتعلموا رى اليقين من الحسيد  
وتعلموا حرية الإيمان من

الأمهات يلدن للشمس الضياء  
ما سيرة الأبناء إلا الأمها  
و للجواهر حسنها و صفاها  
ت فهم إذا بلغوا الرقى صداها

\* \* \*

هي أسوة للأمهات و قدوة  
لما شكا المحتاج خلف رحابها  
يترسم القمر المنير خطاها  
رقت لتلك النفس في شكواها  
جادت لتتنقذه برهن خمارها  
نور تهاب الناس قدس جلاله  
ومنى الكواكب أن تنال ضياها  
جعلت من الصبر الجميل غذاءها

و رأيت رضا الزوج الكريم رضاها

\* \* \*

فمها يردد آى ربك بينما  
بلت و سادتها لآلى دمعها  
يدها تدير على الشعير رجاها  
من طول خشيتها و من تقواها  
كاطل يروى فى الجنان رباها  
وحدود شرعته و نحن فداها  
وغمرت بالقبلات طيب تراها  
لمضيت للتطواف حول ضريحها

السيدة الزهراء فى فلك السياسة :

لم أرد أن أقدم هذا الموضوع على الوفاة ، بحسب الترتيب التاريخى ، إشفاقاً على قلب القارئ  
إذا وقفت بسيرتها عند وفاتها بعد وفاة أبيها

بقليل ، تاركة صغارها فى طفولتهم الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم عليهم أجمعين رضوان الله .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، رأيت أن حياة أبنائها إنما هو إمتداد لحياتها ، وقد كان لدورانها ودورانهم فى فلك السياسة أثر تغير به مجرى التاريخ فى المشارق والمغرب كما سترى ، وأقصد بأبنائها وذريتها الأولين منهم والآخرين .

والذى حمل السيدة الزهراء على الدخول فى السياسة اعتقادها فى أن الإمام على كان أحق بالخلافة بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما تمت البيعة لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، رأت رضى الله عنها أن تطالب بحق زوجها كما تعتقده ، وترد الخلافة إلى آل البيت ولا تألو جهداً فى ذلك .

وحملها الإمام على . كرم الله وجهه . على دابة وخرج بها ليلاً فطافت بمجالس الأنصار مجلساً مجلساً تسألهم أن يؤيدوا أبا الحسن فى حقه الذى ترى أنهم جحدوه . فأجابوها جميعاً : يا بنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لأبى بكر ، ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا لما عدلنا به أحداً .

فكان الإمام على يعقب قائلاً : أفكنت أدع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته ولم أدفنه وأخرج أنازع فى سلطانه ، وكان كرم الله وجهه هو الذى تولى بنفسه غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت الزهراء رضى الله عنها ترد عليهم : ما صنع أبو الحسن إلا ما ينبغى ، ولقد صنعوا ما  
الله حسيبهم وطالبهم .

الخلافة بعد رسول الله :

ولأهمية هذه المسألة التي امتدت جذورها في تاريخ الإسلام ، وكانت سبباً في إسقاط دول  
وإقامة أخرى في الشرق والغرب ، واستمدت من السيدة الزهراء قوتها التي غيرت مجرى التاريخ  
، نعطي القارئ فكرة سريعة عما كان في خطوط عريضة ، تاركين التفاصيل ليطلع عليها من  
شاء في مراجعها الواسعة .

يوم السقيفة :

لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع الأنصار في سقيفة بنى ساعدة واتجهوا إلى  
إستخلاف سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي ، ولما علم سيدنا عمر أسرع ومعه سيدنا أبو  
بكر رضى الله عنهما إلى سقيفة بنى ساعدة خشية أن تقوم فتنة بين المهاجرين والأنصار  
بسبب الخلافة ، وكان المهاجرين يرون أنها من حقهم لا من حق الأنصار لأن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم قال : (( قريش ولاة هذا الأمر )) .

وعندما واجه سيدنا أبو بكر الأنصار بما قاله رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال له سعدة بن عبادة صدقت : نحن الوزراء وأنتم الأمراء ، وفى رواية أخرى قالت الأنصار منا أمير ومنكم أمير .

استخلاف أبى بكر :

فقال سيدنا عمر : يا معشر الأنصار أستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر أبو بكر أن يؤم الناس ، فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر ( مشيرا إلى أنه لما شتد المرض بالنبي صلى الله عليه وسلم قال : ( مروا أبا بكر فليصل بالناس ) .

فقالت الأنصار : نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر .

قال سيدنا عمر : ثم أخذت بيده وبدرنى رجل من الأنصار فضرب على يده قبل أن أضرب على يده ، ثم ضربت على يده وتبايع الناس ( قالوا إن هذا الأنصارى هو بشير بن سعد والد النعمان بن بشير ) .

ويقول سيدنا عمر فى تعقيبه على ما وقع فى أمر البيعة :

أما والله ما وجدنا فيما حضرنا أمرا هو أوفق من مبايعة أبى بكر ، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة ، فإما أن نتابعهم على ما لا نرضى ، وإما أن نخالفهم فيكون الفساد .

وبعد بيعة السقيفة هذه بايعه عامة الناس فى المسجد .

وفى رواية البيهقى : أنه حين صعد الخليفة الأول المنبر نظر فى وجوه القوم فلم ير الزبير قال : فدعا بالزبير فجاءه فقال : قلت ابن عمه رسول الله

وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين؟ فقال لا تثريب يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام وبايعه .

ثم نظر الخليفة في وجوه القوم فلم ير عليا ، فدعا بعلي بن أبي طالب فجاءه ، فقال قلت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه علي بنته ، أردت أن تشق عصا المسلمين؟ قال : لا تثريب يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام فبايعه .

ويقول الإمام ابن كثير : وفي هذا الحديث فائدة جليلة وهي مبايعة علي بن أبي طالب ، إما في أول يوم أو في اليوم الثاني من الوفاة ، وهذا حق فإن عليا بن أبي طالب لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات ، ولم ينقطع في صلاة من الصلوات خلفه ، وخرج معه إلى ذي الفضة لما خرج الصديق شاهرا سيفه يريد قتل أهل الردة .

#### الإمام علي وتجدد البيعة :

ثم يستطرد ابن كثير فيقول : ولكن لما حصل من فاطمة رضي الله عنها عتب على الصديق ، بسبب ما كانت متوهمة أنها تستحق ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تعلم بما أخبرها به أبو بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : (( لا نورث ما تركناه فهو صدقة )) فحجبها وغيرها من أزواجه وعمه عن الميراث بهذا النص الصريح . . . ثم قال واحتاج علي ان يراعى خاطرها بعض الشيء ، فلما ماتت بعد ستة أشهر

من وفاء أبيها صلى الله عليه وسلم رأى على أن يجدد البيعة لأبى بكر رضى الله عنه ، مع ما تقدم له من البيعة قبل دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

دهاء أبى سفيان :

ويتعرض العلامة العقاد إلى موقف الدهاء الذى وقفه أبو سفيان فى أمر البيعة حين أراد أن يبيث فتنة بين الإمام على وعمه العباس وبين بنى هاشم وسائر بطون قريش ، حين كان يعد قوماً بنصرة بنى أمية ونصرة قريش من ورائها ، ويوسوس لقوم آخرين بمثل هذا الوعد أو بمثل هذا الوعيد ، وما كان من همه أن ينصف بنى هاشم ولا أن يؤيد الأنصار ، وإنما أراد الوقية التى يخذلهم بها جميعاً ، ويخرج فيها بالسيادة الأولى التى كانت له على قريش فى الجاهلية . ويقول العلامة العقاد فى ذلك :

اجتماع الكلمة :

(( وكانت السيدة فاطمة ترى حق على فى الخلافة ، أو ترى أن قرابة النبى أحق المسلمين بخلافة ، وأن بلاء على فى الجهاد وعلمه المشهور به يؤهلانه لمقام الخلافة ، وكان هذا رأى طائفة من الصحابة الصالحين ،

وأدهشهم أن يجرى الأمر على غير هذا المجرى فاجتمعوا عندها واجتمعوا في غير بيتها يتشاورون فيما بينهم ، أبايعون أم يتخلفون ، ولم نطلع على رواية واحدة ذات سند يعول عليه ترمى أحدهم بشق عصا الجماعة أو بالسعى في تأليب الناس على نقض البيعة .

(( وبعد مساجلات بينهم ، وبين أبي بكر وعمر ، سمرت الفتنة عن مقصدها وتكشفت الدسيمة التي بيثها أبو سفيان بعرض مبايعته على علي ويتحفز للوقية فصدده على وعرض له بذكر الغشقة والمخادعين ثم قال له : إنك تريد أمراً لسنا من أصحابه .

(( فلما يأس من هذا الباب طرق باباً آخر لعله يلج منه إلى مأربه ، وذهب إلى العباس يقول : إنك والله لأحق بميراث ابن أخيك ، فردده العباس كما رده علي )) .

ويقول العلامة العقاد بحق :

(( ولقد تمت البيعة على الوجه الذي عرفه التاريخ ، فإن يكن هناك جدال فلا جدال بين المنصفين في فضل الأئمة الذين أدركوا الفتنة قبل مسعاها من السقيفة ومسعاها من دار أبي سفيان . ولا جدال بين المنصفين فيما ابتغوه من خير وحكمة ، فما ابتغى أبو بكر ولا عمر ولا أبو عبيدة نفعاً لأنفسهم وما قصروا بعد البيعة في نصرة دينهم .

(( وما كان في وسع أحد أن يبلى أجمل من بلاتهم في دفع الغائلة عن

الإسلام من فتنة الردة ، ومن غارة الفرس والروم ، ولا أن يفتح للإسلام فى العراق والشام وفارس ومصر فتحا أعظم مما فتحوه )) .

الإمام على والزبير يعتبان :

وأورد ابن كثير بسنده : وقال على و الزبير : ما غضبنا إلا لأنا أخرنا عن المشورة ، وأنا نرى أن أبا بكر أحق الناس بها ، إنه لصاحب الغار ، وأنا لنعرف شرفه وخيره ، ولقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلى بالناس وهو حى .

إرضاء خاطر :

وقد يقول القارئ : كيف يتفق أن يبايع الإمام على عقب الوفاة أبا بكر بينما خرج مع زوجته ليلا فى طوافها على الأنصار ؟ ! أقول : من الجائز أنه أرضى خاطرها فى خروجه معها ؛ وهو يعلم أن البيعة فى السقيفة مضت لأبى بكر ؛ وبايع فى اليوم الثانى عندما دعاه أبو بكر للبيعة .

وإذا فرضنا أنه لم يبايع أبا بكر فى أول الأمر ، وبايعه بعد أن ماتت زوجته ؛ فإننا لا ننكر عليه التصاقه به وصلاته خلفه ومعاونته فى خدمة الأمة ؛ ولم يخرج عليه أو يناوئه ، كما خرج معاوية على الإمام على رضى الله عنه وحاربه فيما بعد .

استخلاف عمر :

وقد خاف الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه أن يقوم الخلاف بين الصحابة من بعده كذلك الخلاف الذى كاد أن يقوم يوم السقيفة . ، فاستخلف فى آخر أيامه عمر بن الخطاب ، وارتضى الناس استخلافه ، وكان عمر أول من لقب بأمر المؤمنين .

أهل الشورى :

ولما طعن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه جعل الخلافة شورى ، وحصرها فى واحد من الستة الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ : على ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف .

استخلاف عثمان بن عفان واستشهاده :

وانتهى أمر الشورى باختيار عثمان أميراً للمؤمنين ، ثم كانت الثورة عليه فى أخريات أيامه ، وقد حركها فى خبث عبد الرحمن بن سبأ اليهودى ( الذى كان يقول هو وأصحابه بألوهية الإمام على ) تلك الثورة المشؤمة التى وفد ثوارها من مصر والكوفة والبصرة ، وحاصروا الخليفة فى داره أربعين يوماً ثم قتلوه ، ولم يرحموا شيخوخته ، ولم يذكرها

أياديه على الإسلام والمسلمين من جهاد بالنفس والمال ، وغزو في البر والبحر ، وصيانة هيبة الدولة بعد مقتل أمير المؤمنين عمر ، وجمع الأمة الإسلامية على مصحف واحد بترتيبه الحالي ، وعلى القراءة الغالبة في زمانه . وكان هذا عملاً مجيداً وجريئاً بشهادة الباحثين المحققين ؛ فقد تفادى به أن يختلف المسلمون فيما بينهم ؛ فيقول هؤلاء قرآننا ويقول أولئك قرآننا .

موقف الإمام على من الخليفة عثمان :

وكان من رأى إمامنا على أن يقاتل دفاعاً عن الخليفة المحصور ؛ ولبس عدة القتال فتعمم بعمامة الرسول صلى الله عليه وسلم وتقلد سيفه وأمامه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر في نفر من المهاجرين والأنصار . وحملوا على الناس وفرقوهم ، واستأذن أمير المؤمنين عثمان في حربهم . لكن أمير المؤمنين عثمان خشى أن تقوم بسببه حرب أهلية بين المسلمين ؛ وآثر أن يقتديهم بنفسه .

وكان فيما قاله الخليفة : أنشد الله رجلاً رأى لله حقاً ؛ وأقر أن لى عليه حقاً ؛ أن يهريق في سبيلي ملء محجمة من دم ؛ أو يهريق دمه في ؛ فأعاد الإمام على القول ؛ فأعاد الخليفة عليه ذلك الجواب .

ثم خرج الإمام على من عنده إلى المسجد ؛ وحضرت الصلاة فنادوه :

يا أبا الحسن ؛ تقدم فصل بالناس ؛ فقال : لا أصلى بكم والإمام محصور ؛ ولكنى أصلى وحدي ؛ ثم صلى وحده وانصرف إلى منزله .

وأمر الإمام على كرم الله وجهه ولديه الحسن والحسين رضى الله عنهما أن يقوموا بسيفهما على باب أمير المؤمنين عثمان مع زمرة من أبناء الصحابة حتى لا يقتحمه الثوار ، وحين منع الثوار الماء عن الخليفة أرسل إليه الإمام على قرب الماء على عجل .

ثم وقع ما قدره الله من استشهاد أمير المؤمنين عثمان ، حيث تسور الثوار الدار من الخلف ، ولم يدخلوها من الباب ، ولما قتلوه حزن لقتله الإمام على ، ولطم ابنه الحسن على وجهه ظنا منه أن الثوار دخلوا من باب الدار وهو في حراسته .

وبقيت المدينة المنورة خمسة أيام بعد استشهاد الخليفة يحكمها الغافقي بن حرب زعيم الثوار ، وهم يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالخلافة .

وكان هوى أهل مصر مع الإمام على ، وهوى أهل البصرة مع طلحة ابن عبيد الله ، وهوى أهل الكوفة مع الزبير بن العوام .

وكان المصريون يلحون على الإمام على ، وهو يهرب منهم إلى البساتين ، ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه ، ويطلب البصريون طلحة فلا يجيبهم .

### بيعة الإمام على بالخلافة :

ثم انتهى رأى الثوار إلى مبايعة الإمام على ، وأرادوا أن يبايعوه فى داره ، فأبى وطلب أن تكون البيعة علانية فى المسجد ، واشترط أن يبايعه المهاجرون والأنصار وأهل بدر ، ولم يتخلف عن بيعته واحد منهم .

فلما كان يوم الجمعة وصعد المنبر ، بايعه من لم يبايعه بالأمس ، وكان أول من بايعه طلحة ثم الزبير .

وأنت ترى مما تقدم أن الخلافة جاءت منقادة راغمة ، وكم كان كرم الله وجهه صادقاً حين قال :

(( إن العامة لم تبايعنى لسلطان غالب ولا لعرض حاضر )) .

وبراءة الإمام على من دم أمير المؤمنين عثمان واضحة ، وتوضيح الواضحات من المشكلات كما يقولون ، ولو كان أمير المؤمنين عثمان شاكاً فى إخلاصه لما كان يفرع إليه كلما تخرجت عليه الأمور أيام الثورة كما كان يفعل .

فضائل الإمام على كرم الله وجهه :

وقد يود القارئ أن يقف على أوجه الاعتزاز النبوى الكريم بالإمام

على ، ذلك الإمام العظيم الذى ولد فى الكعبة يوم الجمعة الثالث عشر من رجب سنة ثلاثين من عام الفيل ، وتوفى شهيدا قبل فجر ليلة الجمعة أحدى وعشرين من رمضان سنة أربعين من الهجرة ، وهو ابن ثلاث وستين .

كان إمامنا على أصغر إخوته ، وأكبر منه جعفر وعقيل وطالب ، وبين كلا منهما وأخيه عشر سنين ، ولما أصاب القحط قريشا ، أهاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعميه حمزة والعباس أن يخفوا عن أبى طالب ، عبء المعيشة ، فأخذ صلى الله عليه وسلم عليا ، وأخذ العباس طالبا ، وأخذ حمزة جعفرا ، وبقي عقيل فى كنف أبيه .

وفضائل الإمام على كرم الله وجهه فى الإسلام أشهر من أن تذكر ، فقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا فى الناس وقد شكوه إليه فقال :

" أيها الناس لا تشكوا عليا ، فوالله إنه لجيش فى ذات الله .

أنت أخى :

وحين أخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة بين المهاجرين والأنصار ( أى يوأخى بين فلان من المهاجرين وفلان من الأنصار ) قال للإمام على : أنت أخى ، وما أركاه من شرف على الزمان .

نائب عن الرسول :

وحين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لغزوة تبوك خلف الإمام

عليا فى أهل بيته بالمدينة ، فبكى كرم الله وجهه وقال : يارسول الله ، تخلفنى على النساء والصبيان ؟ وكان كرم الله وجهه يود أن يقاتل معه أعداء الله ، فطيب الرسول صلى الله عليه وسلم خاطره ، وقال له :

" أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدى " .

وقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها : أى الناس أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت فاطمة ، فقيل : من الرجال ؟ قالت : زوجها ، كان كما علمت صواما قواما .

صاحب الراية :

وفى خيبر قال صلى الله عليه وسلم : لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فتناول لها الصحابة الأجلاء حتى إن عمر رضى الله عنه قال : ما أحببت الإمارة إلا ذلك اليوم .

فقال صلى الله عليه وسلم ادعوا لى عليا ، فأتاه وبه رمد ، فبصق فى عينيه فشفيتا ، ودفع الراية إليه ، ففتح الله عليه .

عون الله ومدده :

وكانت له كرم الله وجهه فى خيبر كرامة كبيرة ، فقد استعصى على المسلمين آخر حصن ، فاشتد القتال حتى كسروا للإمام درقته ، فخلع باب

الحصن وترس به عن نفسه وقاتل حتى فتح الله الحصن على يديه ، فاجتمع عشرة ، وقيل أربعون ، ليرفعوا باب الحصن فثقل عليهم ، فسألوه كيف حمله هو بيد واحدة وقاتل باليد الثانية ، فابنسم كرم الله وجهه وقال إنما هو عون الله ومدده .

لولا سيفه :

وروى أبو بكر الأنهارى فى أماليه أن عليا جلس فى المسجد لإبى عمر رضى الله عنهما ، وعنده ناس ، فلما قام عرض واحد يذكره ، ونسبه إلى التيه والعجب ، فقال عمر : حق لمثله أن يتيه ، والله لولا سيفه لما قام عمود الإسلام ، وهو بعد أفضى الأمة وذو سابقتها وذو شرفها .

لولا على :

وكان عمر رضى الله عنه ، وهو أمير المؤمنين ، يعتد ويعتز بفتوى الإمام على ، حتى لقد قال : لولا على لهلك عمر ، كما قال له : لا أبقانى الله فى بلد لست بها يا أبا الحسن .

قطرة إلى جانب البحر :

وكان ابن عباس رضى الله عنهما ، يأخذ العلم من الإمام على ، وعرف ابن عباس بتبحره فى العلم حتى سمي البحر ، كما سمي حبر الأمة وترجمان القرآن ، ولما سئل ابن عباس : ما علمك إلى علم ابن عمك ؟ قال : كقطرة

إلى جانب البحر المحيط ، كما قال : لقد أعطى على بن أبى طالب تسعة أعشار العلم وأيم الله  
لقد شارككم فى العشر العاشر .

#### تسع كلمات :

وقد قال ، أبو عبيدة رضى الله عنه ، ترك الإمام على كرم الله وجهه تسع كلمات ، قطع  
الأطماع عن الألتحاق بواحدة منهن ، ثلاث فى المناجاة ، وثلاث فى العلم ، وثلاث فى الأدب .

فأما التى فى المنجاة فهى قوله : كفانى عزا أن تكون لى ربا ، وكفى بى فخرا أن أكون لك  
عبدا ، أنت لى كما أحب فوفقنى لما تحب .

وأما التى فى العلم فهى قوله : المرء مخبوء تحت لسانه ، فتكلموا تعرفوا ، ما ضاع امرؤ  
عرف قدره .

وأما التى فى الأدب فهى قوله : أنعم على من شئت تكن أميره واستغن عن من شئت تكن نظيره  
، واحتج إلى من شئت تسكن أسيره .

#### صفات بنى هاشم :

وكان الإمام على كرم الله وجهه ، أول هاشمى من أبوين هاشميين ، كما كان ابناه السبطان  
كذلك ، فاجتمع له ولهما صفات بنى هاشم التى اشتهروا بها من الشجاعة والكرم والوفاء ،  
والمروءة والذكاء والعفة والترفع عن الدنيا والعفو عند المقدرة الخ ، ذلك إلى القوة

الجسدية التي كانت تميزهم واختص بها إمامنا على وأبناؤه ، ولا تنس أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : لو ولد الناس كلهم أبو طالب لكانوا شجعانا .

وكان ذلك القول الكريم من الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم حين ذهبت إليه السيدة أم هانئ تشكو له أذاها عليا حيث كانت في فتح مكة أجارت رجلين استجارا بها فأراد أخوها أن يقتلها ، فطيب الرسول صلى الله عليه وسلم خاطرها وقال لها قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ . وقال لإمامنا عليا : لا سبيل لك عليهما . فقال يا رسول الله لقد قبضت أم هانئ على يدي فلم استطع منها فكاكا حتى أفلت الرجلان ! ! فقال قولته المتقدمة " لو ولد الناس كلهم أبو طالب لكانوا شجعانا " . وإلى جانب الصفات المتقدمة ، خص الله إمامنا عليا بنفح إلهي ، وإلهام رباني ، فتفجرت عيون العلم والحكمة من قلبه ، وجرت في بلاغة تلي بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والكلام على الإمام على يطول ، ولا يتسع المجال هنا لاستيفائه ، فأكتفى بموجز من كلام ابن أبي حديد جاء في شرح نهج البلاغة ، وقد يغنى عند الضرورة القليل عن الكثير ، قال رحمه الله :

" اجتمع للإمام على بن أبي طالب من صفات الكمال ، ومحمود الشمائل والخلال ، وسناء الحسب ، وباذخ الشرف ، مع الفطرة النقية ، والنفس المرضية ، ما لم يتهيا لغيره من أفاضال الرجال .

" تحدر من أكرم المناسب ، وانتمى إلى أطيب الأعراق ، فأبوه أبو طالب ، عظيم المشيخة من قريش ، وجده عبد المطلب أمير مكة وسيد البطحاء ، ثم هو قبل ذلك من هامات بنى هاشم وأعيانهم .

" وبنو هاشم ، كانوا كما وصفهم الجاحظ " ملح الأرض " وزينة الدنيا ، وحلى العالم ، والسنام الأضخم ، والكاهل الأعظم ، ولبات كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم .

" واختص بقربته القريية من الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكان ابن عمه ، وزوج ابنته ، وأحب عترته إليه ، كما كان كاتب وحيه ، وأقرب الناس إلى فصاحته وبلاغته ، وأحفظهم لقوله ، وجوامع كلمه .

" أسلم على يديه صبيا ، قبل أن يمس قلبه عقيدة سابقة ، أو يخالط عقله شوب من شرك موروث ، ولازمه فتيا يافعا ، فى غدوة ورواحه ، وسلمه وحريه ، حتى تخلق بأخلاقه ، واتسم بصفاته ، وفقه عنه الدين ، وثقف ما نزل به الروح الأمين ، فكان من أفقه أصحابه وأقضاهم ، وأحفظهم وأوعاهم ، وأدقهم فى الفتيا ، وأقربهم إلى الصواب حتى قال فيه عمر : لا بقيت لمعضلة ليس فيها أبو الحسن .

" وكانت حياته كلها مفعمة بالأحداث ، مليئة بجلائل الأمور ، فعلى عهد الرسول عليه السلام ، ناضل المشركين واليهود ، فكان فارس الحلبة ومسعر الميدان ، صليب النبع ، جميع الفؤاد .

" وفى أيام خلافته كانت له أحداث أخرى ، لقي فيها ملقى ، من تفرق الكلمة ، واختلاف الجماعة ، وانفصام العروة ، ما طوى أضلاعه على الهم والأسى ، ولاع قلبه بالحزن والشجن .

" وفى كل ما لقي من أحداث وأمور ، وما صادف من محن وخطوب ، بلى الناس وخبرهم ، وتفتن لمطاوى أنفسهم ، واستشف ما وراء مظاهرن فكان العالم المجرب الحكيم ، والناقد الصيرفى الخبير .

" وكان لطيف الحس ، نقى الجوهر ، وضاء النفس ، سليم الذوق ، مستقيم الرأى ، حسن الطريقة ، سريع البديهة ، حاضر المخاطر ، عارفا بمهمات الأمور إصدارا وإيرادا .

" بل كما كان وصفه الحسن البصرى : سهما صائبا من مرامى الله على عدوه ، وربانى هذه الأمة ، وذا فضلها وسابقتها ، وذا قرابتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يكن بالننومة عن أمر الله ، ولا بالملومة فى دين الله ، ولا بالسروقة لمال الله ، أعطى القرآن عزائم ، ففاز منه برياض موقنة ، وأعلام مشرقة ، ذاك على بن أبى طالب .

كيد معاوية للإمام على :

لكن الهوى يعمى عن الحق ويصم ، فقد أوقد معاوية بن أبى سفيان وكان واليا لعثمان بالشام ، نار فتنة يصلى المسلمون نار حرها من أيام أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى زماننا هذا وإلى

ما شاء الله تعالى ، فقد تفرقت كلمتهم بعد أن كانت متحدة ، وما أوجههم إلى الاتحاد .

### بين طلحة ومعاوية :

كتب معاوية من الشام لطلحة ولقبه بأمرير المؤمنين ، ولم يكن ذلك جائز منه ، لأن بيعة المهاجرين والأنصار وأهل بدر بالمدينة كانت ملزمة لسائر الأمصار ، فهؤلاء هم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، والتزم معاوية ببيعتهم فما باله هذه المرة لا يلتزم بها ، ولا يريد أن يلتزم بها .

تعلى معاوية بقتل عثمان ، ورمى الإمام عليا بدم عثمان زورا وبهتانا ، فحرض طلحة على مناواته .

واستأذن طلحة والزبير أمير المؤمنين عليا في الخروج إلى مكة وقالوا له : نريد العمرة ، فقال لهما في فطنة : إنكما لا تريدان العمرة ، ولكن تريدان الغدرة ، وكان طلحة قد طلب أن يوليه الإمام علي ولاية البصرة ، وكان الزبير أيضا قد طلب ولاية الكوفة ، فلم يستجب الإمام لرغبتهما .

ونقل أمير المؤمنين علي مركز الخلافة من المدينة المنورة إلى الكوفة لأنه كان يتوقع وثبة من معاوية ، وكانت العراق موطن المال

والرجال ، كما كانت بعيدة عن مقدسات مكة والمدينة التي لا يود أن تنتهك حرمتها فى عهد خلافته .

وخرج طلحة والزبير بجيش إلى البصرة ، واستطاعا أن يقنعا السيدة عائشة أم المؤمنين بالخروج معهم ليتم الصلح بين المؤمنين على يديها وهى أم الجميع ، وحاولت السيدة أم سلمة أن تثنيها عن الخروج لكنها خرجت ، وكان معها عبد الله بن الزبير ، وهو ابن أختها أسماء ، فلما اختلفا طلحة والزبير فى الطريق على الأمامة ، قدمت هى عبد الله صلى بالناس .

### كلاب الحوآب :

وفى الطريق إلى البصرة تحققت معجزة نبوية ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مرة لأزواجه : أيتكن صاحبة الجمل الأحذب تنبجها كلاب الوآب ، ثم نظر إلى السيدة عائشة وقال لها : أخشى أن تكونيها يا حميراء !! ؟

وفعلا نبحتها كلاب الحوآب ، وهمت رضى الله عنها بالعودة ، إلا أنهم أتوا لها بجماعة من البدو فشهدوا أن تلك الجهة ليست الحوآب وكانت تلك أول شهادة زور وقعت فى الإسلام . فسارت أم المؤمنين عائشة مع الجيش مكذوبة مخدوعة ، وكان ما قدر الله من أن يلتقى الجيش بالبصرة ، جيش طلحة والزبير وجيش أمير المؤمنين على فى المعركة التى عرفت بمعركة الجمل ، نسبة إلى الجمل الذى كانت تركبه أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

### أمير المؤمنين على ينصح خصومه :

وكان من عادة أمير المؤمنين أن يبدأ بإقناع خصومه قبل أن يحاربهم ، تفاديا لأرأقة دماء المسلمين ، فعل ذلك حتى مع الخوارج ، كما يشهد التاريخ ، فإن استنفذ النصيحة ولم يجد بدا من القتال ، قاتل صيانة لحقه وسلطانه .

### بين الإمام والزبير :

ولما التقى الجيشان ، نادى أمير المؤمنين ابن عمته الزبير ، فخرج من بين صفوفهم يسمع من أمير المؤمنين كلامه ، فقال له : أتذكر يا زبير أنك يوما صافحتنى فى حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعانقتنى فقال لك : أتحبه ؟ قلت : كيف لا أحبه وهو أذى وابن خالى ، فقال لك : أما إنك ستقاتله وأنت قظالم له ؟

فقال الزبير : أستغفر الله ، لقد أذكرتني ما أنسانيه الدهر ، ولو ذكرت ذلك لى ما خرجت ، والله لا أقاتلك أبدا ، وانسحب من المعركة ، فقال له ابنه عبد الله بن الزبير : يا أبت تعيرنا نساء قريش ؟ فقال يابنى لقد ذكرنى ما أنسانيه الدهر ، والعار ولا النار .

ثم قال شعرا :

اخترت عار على نار مؤججة

ما إن يقوم لها خلق من الطين

نادى على بأمر لست أجهله

عار لعمرك فى الدنيا والدين

فقلت حسبك من عدل أبا حسن

فبعد هذا الذى قلت يكفينى

ثم مضى الزبير منسحبا من المعركة ، فقتله غدرا ابن جرموز وهو فدا الصلاة وأتى بسيفه وخاتمه لأمير المؤمنين فحزن وقال : سيف طالما جلا الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنه الحين ومصارع السوء ، " وقاتل ابن صفية فى النار " ( أى قاتل الزبير لأن أمه صفية بنت عبد المطلب وهو حديث شريف ) .

بين الإمام وطلحة :

ونادى أمير المؤمنين طلحة حين رجع الزبير ، وقال لطلحة : يا أبا محمد ما الذى أخرجك ؟ قال : الطلب بدم عثمان ، قال على : قتل الله أولنا بدم عثمان أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ( أى فى حق الإمام على ) : " اللهم وال من والاه وعاد من عاداه " وأنت أول من بايعنى ثم نكث ، وقد قال عز وجل : ( فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ) .

فقال طلحة : أستغفر الله ، ثم رجع .

فقال مروان بن الحكم : رجع الزبير ويرجع طلحة ، ما أبالي رميت ها هنا أو ها هنا ، فرماه فى أكحله فقتله ، ولم يستكف أن يقتل حليفه ، فمر عليه أمير المؤمنين على بعد المعركة فوجده مقتولا ، فنقض التراب عن وجهه وقال : أعزز على بأن أراك مجدلا<sup>١</sup> أبا محمد ، إنا لله وإنا إليه راجعون والله كنت كارها لهذا .

وشاء الله أن يلتحم برغم ذلك الجيشان المسلمان فى قتال مرير راح ضحيته نحو عشرين ألفا ، فأمر أمير المؤمنين أصحابه فعقروا الجمل ، ورد أم المؤمنين إلى المدينة المنورة معززة مكرمة ، وكانت الغلبة فى المعركة لجيش أمير المؤمنين على كرم الله وجهه .

وقد قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها لأمير المؤمنين على كرم الله وجهه : يا بن أبى طالب ، ملكت فأسجج<sup>٢</sup> ، فقال لها غفر الله لك ، فقالت : وغفر لك .

ندم أم المؤمنين عائشة :

وقد ندمت السيدة عائشة أشد الندم لخروجها إلى البصرة ، وقالت :

١ - ملقى على الأرض .

٢ - أى اصفح .

لو لم أسرى مسيرى ذلك لكان أحب إلى من أن يكوت لى ستة عشر ذكرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عبد الرحمن بن عوف بن الحارث بن هشام ، ( فقيه المدينة المنورة ) .  
 كما قالت ياليتنى مت قبل هذا اليوم بعشرين عاما . . وكانت رضى الله عنها تبكى وتقول : ( وقرن فى بيوتكن ) .  
 وجاء فى ربيع الأبرار للزمخشري أنها رضى الله عنها جزعت حين احتضرت ، فسئلت عن سبب جزعها ، فقالت : اعترض فى حلقى يوم الجمل .  
 وها أنت ذا قد رأيت نفوس هؤلاء الكرام : طلحة والزبير وعائشة ، كانت نفوسا طيبة ، رجاعة إلى الحق ، فقد انسحب طلحة والزبير من المعركة حين تذاكر معهم إمامنا على ، وندمت أم المؤمنين عائشة ، وودت لو لم تسر مسيرها ذاك إلى البصرة . وقد حزنت حين رأت قرابة عشرين ألفا من أبنائها المؤمنين صرعى فى تلك المعركة التى اقتتل فيها طائفتان من المؤمنين ، ولا يخافك أن طلحة والزبير من العشرة الكرام المبشرين بالجنة ، وأم المؤمنين عائشة نزلت براءتها من السماء حين شاع حديث الإفك كما هو ثابت فى سورة النور من كتاب الله الكريم .

بين سعد بن أبي وقاص ومعاوية :

وأرجوا أن ينظر القارئ الكريم فى الكتابين المتبادلين بين معاوية وسعد بن أبى وقاص . وكانت الخلافة بعد استشهاد أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، قد آلت كما سبق القول إلى الإمام على ، وانعقدت له بالمدينة المنورة بيعة شرعية من المهاجرين والأنصار وأهل بدر ، وهم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، والتزمت جميع الأمصار ببيعتهم .

إلا أن معاوية بدل أن يلتزم بها تنكر لها ، وحرص أهل الشام على مطالبة الإمام على بدم عثمان ، وحرك طلحة والزبير على الطلب بدم عثمان فسارا بجيشهما إلى البصرة ، ووقعت بين ذلك الجيش وجيش الإمام على موقعة الجمل ، على الرغم من انسحاب طلحة والزبير من المعركة ، وقد انتصر فيها الإمام عليهم .

وقد أراد معاوية أن يحرص سعدا بن أبى وقاص كما حرص طلحة والزبير على الطلب بدم عثمان ، وراسل سعدا فى هذا الأمر ، فأجابه سعد إجابة شافية تفرق بين الحق والباطل كما سترى .

جاء فى العقد الفريد وكتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة : أن أهل الشام لم يبايعوا معاوية بالخلافة حين خرج ، وإنما بايعوه على الطلب بدم عثمان ، فلما كان الأمر من أمر الحكيم ما كن بايعوه بالخلافة ، فكتب

إلى سعد بت أبي وقاص ، رضى الله عنه ، يدعو معه فى الطلب بدم عثمان ، ويقول له :  
 " سلام عليك ، أما بعد ، فإن أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى من قريش الذين أثبتوا  
 حقه واختاروه على غيره ، ونصره طلحة والزبير وهما شريكاك فى الأمر ، ونظيراك فى الإسلام  
 ، وخفت لذلك أم المؤمنين فلا تكره ما رضوا ، ولا ترد ما قالوا ، وإنما نريد أن نردها شورى  
 بين المسلمين ، والسلام " .

فأجابه سعد رضى الله عنه فى صدق وحزم قائلاً :

" أما بعد ، فإن عمر لم يدخل فى الشورى إلا من تحل له الخلافة ، فلم يدخل أحدا أولى بها  
 من صاحبه إلا بجماعنا عليه ، غير أن عليا كان فيه ما فينا ، ولم يكن فينا ما فيه ، ولو لم  
 يطلبها ولزم بيته لطلبه العرب وهم بأقصى اليمن وهذا الأمر قد كرهنا أوله كما كرهنا آخره . .

وأما طلحة والزبير فلو لزمنا بيوتهما لكان خيرا لهما ، والله يغفر لأم المؤمنين ما أتت " .

أهل الحق مع الإمام :

قال العلامة الزرقانى فى نهج المسالك .

أتى على فى أهل العراق فى سبعين ألفا ، فيهم تسعون بدريا ، وسبعمائة من أهل بيعة  
 الرضوان ، وأربعمائة من سائر المهاجرين والأنصار ،

وخرج معاوية فى أهل الشام فى خمسمائة وثمانين ألفا ، ليس فيهم من الأنصار إلا النعمان بن بشير ومسلمة بن مخلد .

بين محمد بن أبى بكر ومعاوية :

ولذلك كان فيما كتب محمد بن أبى بكر لمعاوية ، كما جاء فى مروج الذهب للمسعودى :  
" . . . فكان على أول من أجاب وأناب ، وآمن وصدق ، وأسلم وسلم .

صدقه بالغيب المكتوم ، وآثره على كل حميم ، ووقاه بنفسه كل هول وحارب حربيه ، وسالم سلمه . . .

وقد رأيتك تساميه ، وأنت أنت ، وهو هو ، أصدق الناس نية ، وأفضل الناس ذرية ، وخير الناس زوجة ، وأفضل الناس ابن عم . . .

أخوه الشارى بنفسه يوم مؤته<sup>٣</sup> ، وعمه سيد الشهداء يوم أحد<sup>٤</sup> ، وأبوه الذاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن حوزته . . .

والشاهد لعلى ، مع فضله المبين القديم ، أنصاره الذين معه . . . الذين

<sup>٣</sup> - يقصد ذى الجناحين جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه .  
<sup>٤</sup> - يقصد سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه .

ذكرهم الله بالفضل ، وأثنى عليه من المهاجرين والأنصار ، وهم معه كتائب وعصائب ، يرون الحق في اتباعه ، والشفاء في خلافه . .

فكيف - يا لك الويل ! - تعدل نفسك بعلي ، وهو وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصيه ، وأبو ولده ، وأول الناس له اتباعا ، وأقربهم به عهدا ، يخبره بسره ، ويطلع على أمره ، وأنت عدوه وابن عدوه . . ؟ ؟ " .

القتال بين معاوية والإمام علي :

كانت معركة الجمل أول المآسى التي لقيها إمامنا علي ، وقد جاءت من الحجاز على يد طلحة والزبير بتدبير معاوية ، وانتهت بانتصار أمير المؤمنين ، لكنه ما كاد يفرغ من واقعة الجمل حتى تعرض لمأساة أكبر منها وأفدح ، وتلك هي التي جاءت من الشام على يد معاوية ، فقامت بينهم واقعة صفين التي راح ضحيتها عشرات الألوف من الفريقين .

كنت ترى الرجل في صف معاوية ، وولده في صف الإمام علي ، وترى الأخوين أحدهما في هذا الصف والآخر في ذلك ، ونعوذ بالله من الفتن ومثيبيها .

وقد حاول أمير المؤمنين علي أن يعالج الأمر - كعادته - بالإقناع والمراسلة ، ولكن أبا معاوية إلا عنادا ونفورا ، وشد أزره في موقفه ،

بكل أسف ، مستشاره عمرو بن العاص لقاء ولاية مصر إن تم الأمر لمعاوية ، فلم يجد أمير المؤمنين على رضى الله عنه مفرا من القتال ، حفظا لحقه ، وصيانة لسلطانه . وكان القتال مريرا ، رجحت فيه كفة النصر لأمير المؤمنين على خصومه ، وهم معاوية بركوب فرسه ليفر من المعركة ، ولكن عمرا أشار عليه بحيلة رفع المصاحف على الرماح ° ، رمزا لتحكيم كتاب الله بين الفريقين .

#### خدعة التحكيم :

وقد بصر أمير المؤمنين على جيشه بهذه الخدعة وبين لهم أنه لا يحتاج أكثر من ساعة واحدة ليكسب النصر الحاسم ، ولكن منى بتمرد مغرض فى جيشه من رجال كنده وكان على رأسهم الأشعث بن قيس ، الذى تمسك بقبول التحكيم ، لحاجة فى نفسه ، قد تكون تواطئا مع الخصوم لمنفعة ، وقد تكون منافسة للأشتر النخعى الذى قاتل بجمية لصالح أمير المؤمنين ودخل معسكر معاوية بالفرار ، وقد تكون طمعا فى الملك بعد الإمام على ، ولكل امرئ ما نوى .

° - فكرة وضع المصحف على الرماح كانت فكرة الإمام على فى واقعة الجمل ، وقلدها عمرو بن العاص بعد ذلك فى صفين .

ولا تعجب من هذا الموقف ، فإن لأبنته حعدة بن الأشعث موقف مخزياً ومحزناً مع زوجها الإمام الزكى الحسن السبط رضى الله عنه ، فقد دست له السم لقاء مبلغ من المال أعطى لها ، ومات رضى الله عنه شهيدا بخيانتها تلك ، وقد عرفها أبوها من قبل طريق الخيانة والغدر فى موقعة صفين كما رأيت ، وقد تزوجت بعد الإمام الحسن فكان الناس يعيرون أولادها ويقولون للواحد منهم : يابن مسممة الأزواج .

وعندما بصر أمير المؤمنين جيشه بخدعة التحكيم بين لهم أن خصومه ليس أهل دين مأمون ، ولكنهم أبو إلابول التحكيم ، أو يقتلون الإمام كما قتل عثمان من قبل ، أو يسلمونه إلى معاوية فقبل التحكيم مكرها ، وليتهم وقفوا من عصيانهم عند هذا الحد ، بل أبو عليه أن يختار الحكم الذى يمثله ، فحين اختار معاوية عمرا بن العاص ممثلا له ، أراد الإمام أن يقابله بعبد الله بن العباس ، فأبوا على الإمام اختيار ابن العباس وقالوا : إنه ابن عمك ، فعرض أن يمثله فى التحكيم الأشتر النخعى ، فقالوا : نريد أن يكون الحكم أبو موسى الأشعري ، ولم يكن الإمام يراه كفننا لمقابلة عمرو فى دهائه .

وهكذا ركب أنصار الإمام رءوسهم ، واستحوذ عليهم الشيطان فغلبهم هوى النفوس فكان منهم عصيان ولى الأمر ، فقال الإمام افعلوا ما بدا لكم .

### أبو موسى وعمرو :

واجتمع الحكمان عمرو وأبو موسى في دومة الجندل ( بين العراق والشام ) وتشاوروا ، وبعد جدال وأخذ ورد اتفقا على خلع علي ومعاوية ، وقدم عمرو أبا موسى ليعلن القرار الذي اتفقا عليه ، وكان ابن عباس حذره من كيد عمرو وغدره ، فقال له إن اتفقتما على شئ فليعلنه عمرو أولا ، ولكنه لم يسمع نصح ابن عباس ، وتقدم أبو موسى فقال بعد التمهيد :

" . . . أيها الناس ، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة ، فلم نرى أصلح لأمرها ، ولا ألم لشمليها من أمر قد اجتمع رأيي ورأي عمرو عليه ، وهو أن نخلع عليا ومعاوية ، ونستقبل الأمة بهذا الأمر ، فيولوا منهم من أحبوا عليهم ، وإنى قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم ، وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا " .

وتلاه عمرو فقال بعد تمهيد :

" . . . إن هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه ، الطالب بدمه وأحق الناس بمقامه " .

فصاح أبو موسى في غضب وقال : مالك لا وفقك الله ، غدرت وفجرت ، إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث .

فابتسم عمرو وهو يقول مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا .

المأساة والمهزلة :

وانتهت المأساة ، كما قال العلامة العقاد ، بهذه المهزلة أو انتهت المهزلة بهذه المأساة .

الخلافة والملك :

ولا تستغرب أن تنتهي المأساة بهذه المهزلة ، وقد كان موقف معاوية هازلا في مبدئه ومنتهاه ، وكان يطلب ملكا يتشبه فيه بالقيصرة والأكاسرة وكان مسلحا بأسلحة الغدر والخديعة والرشوة وكلها لازمة لتأسيس الملك ، ولو أنه كان يطلب خلافة الراشدين لوجدها مستوفاة في الإمام على الذي بايعه المهاجرون والأنصار وأهل بدر عن تقوى من الله .

وكان الإمام ناصح له في إحدى الرسائل التي كتبها إليه يقول فيها :

" . . . وأما تلك التي تريدها - يعنى الخلافة - فهي خدعة الصبي عن اللبن ، ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك ، لتجدنى أبرأ قريش من دم عثمان واعلم أنك من الطلقاء<sup>٦</sup> الذين لا تحل لهم الخلافة ، ولا يدخلون فى الشورى " .

<sup>٦</sup> - يشير إلى أن معاوية وأباه أطلقا من الأسر يوم فتح مكة ، حين قال لهم رسول الله بعد أن تم له فتح مكة : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا فى مسكنة : أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال فى عفو عن قدرة : أذهبوا فأنتم الطلقاء ، وكان ذلك فى السنة الثامنة من الهجرة .

فانظر بماذا غلط بل كذب معاوية في رده :

أما بعد : فلعمري لو بايعك الذين ذكرت وأنت برئ من دم عثمان ، لكنت كأبي بكر وعمر  
وعثمان ، ولكنك أغريت بدم عثمان ، وخذلت الأنصار ، فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف

" وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإن فعلت كانت شورى بين  
المسلمين ، وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم ، فلما فارقوه كان الحكام  
على الناس أهل الشام ، ولعمري ما حجتك على أهل الشام كحجتك على طلحة والزبير ، إن  
كانا بايعاك ، فلم أبايحك أنا .

" فأما فضلك في أسلام ، وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلست أدفعه " .

ولا تظن أيها القارئ العزيز أنى دمغت معاوية بالكذب ظلما وزورا ، بل أنى قلت حقا ، فمن  
قال أن أهل الشام كانوا أولى بالرأى من عدول المهاجرين والأنصار من أهل المدينة ، وإذا  
كان الحق فارق أهل الحجاز ، فلماذا اختار الحق ديار الشام بعدهم ، ولماذا لم يختار أهل  
مصر أو أهل اليمن ؟ ومن قال أن بيعة الإمام على كانت تحتاج بعد المهاجرين والأنصار  
وأهل بدر العدول إلى بيعة معاوية ، وهو لا من هؤلاء ولا من هؤلاء بل هو من الطلقاء ؟ !

وإذا كان معاوية صادقا في اعترافاته بفضل الإمام على وسبقته في الإسلام وفي قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي قوله لست أدفعه ، فلماذا كان اعترافه قولا ، لا فعلا ، فقد قال بالفضل والسبق والقرابة بقلمه وحارب بسيفه وتمرده ، وكيف يرمى الإمام باطلا بدم عثمان وقد مر عليك ما يثبت بطلان قوله ؟ وقد تولى معاوية الخلافة عشرين سنة فما فعل شيئا لقتلة عثمان ، فهي دعوة باطلة ليس لها أساس من الصحة .

#### الانتصار للحق :

أعوذ بالله أن أتحمّل على الصحابة الكرام ، أو أنسى وصاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم ، ولكنى فى تقرير الحق أقيم الشهادة لله ، فالصحابه عدول ككل ، ولكن إذا دعنا الظروف التاريخية إلى تحليل موقف واحد مثل موقف معاوية فيجب أن تشهد بالحق كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أخذنا عنه الغيرة على الحق ، دون مجاملة فيه أو محاباة لأى سبب فى طريقه ، فقد قال صلى الله عليه وسلم لأسامة حين أراد أن يشفع لسارقة : لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها .

ثم أن الله تعالى لم يجعل الصحابة بمنزلة واحدة فقد قال تعالى ( لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى ) وقد أسلم معاوية بعد الفتح كما أنه تعالى قال ( منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ) .

لا مجاملة ولا محاباة إذن في إقامة الحق على دعائمه السليمة ، وإلا ضاع الحق في الأكاذيب والمغالطات ومات بموته أهله ، وإذا جارينا المحاباة أو جانبنا الصواب ، كان ذلك من هوى النفس الذى يحيد بنا عن طريق الحق، بل كان من النفاق الذى يجب أن يبرأ منه المؤمن الخالص .

#### عمار والفئة الباغية :

أخرج الإمام البخارى فى صحيحه عن عكرمة قال : قال لى ابن عباس ولابنه على : انطلقا إلى سعيد فاسمعا من حديثه ، فانطلقنا فإذا هو فى حائط ( بستان ) يصلحه ، فأخذ رداءه فاحتبى ثم أنشأ يحدثنا حتى أتى على ذكر بناء المسجد فقال : كنا نحمل لبنة لبنة وعمار ( عمار بن ياسر رضى الله عنه ) لبنتين ، فرآه النبى صلى الله عليه وسلم ، فجعل ينفض التراب عنه ويقول : ويح عمار تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار . أقول : وقد قتل عمار شهيدا فى صفين ، قتله فريق معاوية ، وفى قتله على أيديهم معجزة ، فقد كشف الرسول صلى الله عليه وسلم بحديثه الغيب قبل أن يقع ، وبين لهم من الفئة الباغية .

#### مغالطة :

وقد حاول معاوية التملص من ذلك الحديث الشريف بتأويل يتفق مع هواه لأنه لم يستطع إنكار الحديث ، حيث هو من أصح الأحاديث ،

فقال خوفا من أن ينفذ الناس من حوله : " إنما قتله من أخرجه . . " ( أى للقتال ) .  
فأجابه الإمام على : قتل النبي صلى الله عليه وسلم عمه حمزة حيث أخرجه لقتال المشركين .  
!! . .

وهو جواب من الإمام مسكت كما ترى .

ابن عمر يندم :

وقد ندم ابن عمر أشد الندم على عدم قتال معاوية وفريقه ، فقد روى أبو حنيفة عن عطاء  
عن رباح عن ابن عمر رضى الله عنهما قال ك ما آسى على شئ إلا على أنى لم أقاتل الفئة  
الباغية .

وروى الحاكم والبيهقى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال ما وجدت فى نفسى من شئ ما  
وجدت من هذه الآية أنى لم أقاتل الفئة الباغية كما أمرنى الله ، يعنى ( فإن بغت إحداهما  
على الأخرى فقاتلوا النى تبغى حتى تفى إلى أمر الله ) .

خزيمة بن ثابت يقاتل :

وكان خزيمة بن ثابت ، ذو الشهادتين رضى الله عنه ، كافا سلاحه حتى قتل عمار بصفين ،  
فسل سيفه وذكر حديث عمار ، ثم قاتل عسكر معاوية حتى قتل شهيدا ، رضى الله عنه .

معركة النهروان مع الخوارج : وبعد التحكيم زاد الطين بلة ، فقامت بسبب التحكيم فئة الخوارج ، حيث قال الخوارج فيما بينهم : إن هذين الحكيمين قد حكما بغير ما أنزل الله وقد كفر إخواننا حين رضوا به ، وحكموا الرجال في دينهم ، ونحن على الحق بين هذا الخلق .

وحاول أمير المؤمنين كعادته أن يسالمهم ويقنعهم بالتي هي أحسن ، لعلمهم يرشدون ، لكنهم كانوا متهوسين ، وبلغ بهم الهوس أنهم كفروا بالإمام وأصحابه ، ورأوا أن يعاملوهم في الحرب والسلم على أنهم كفار . وصاحوا صيحتهم : " لا حكم الا لله ولو كره المشركون " وهي الصيحة التي عقب عليها الإمام كرم الله وجهه بكلمته المشهورة : " كلمة حق أريد بها باطل "

وعندئذ لم يجد أمير المؤمنين مفرًا من قتالهم . فقاتلهم في موقعة النهروان فما هي إلا ساعة حتى قتل منهم نحو أربعة

آلاف ، وبقي منهم نحو أربعمئة أصيبوا بجروح وعجزوا عن القتال . فأمر بهم أمير المؤمنين فحملوا إلى عشائهم .

وماذا بعد قتال الخوارج :

وأراد أمير المؤمنين على أن يسير إلى الشام ليلقى جيش معاوية ،

فتصدى له الأشعث بن قيس مرة أخرى ( كما تصدى له من قبل فى صفين ) وقال له على مسمع من أصحابه : " يا أمير المؤمنين ، نفدت نبالنا ، وكلت سيوفنا ، ونصلت أسنة رماحنا ، فارجع بنا إلى مقرنا ، لنستعد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا عدة من هلك منا ، فإنه أوفى لنا على عدونا " وتسلى الجند من معسكرهم ، ولاذ من لاذ بالمدن القريبة منهم ، وأيقن أمير المؤمنين أن القوم مرقوا من يده ، ولا طاعة له عليهم إذا ما دعاهم للقتال .

وعلى عكسه كان جند معاوية ، كانوا فى طاعنه ، وأعانه الخوارج غير عامدين ، حين حاربوا الإمام ولم يحاربوا معاوية ، وطلبوا التوبة من أمير المؤمنين ولم يطلبوها من معاوية . واستمر معاوية فى إرسال بعوثة وسراياه ، ولم تمض سنتان حتى كانت تحت سلطانه مصر والمدينة ومكة ، وبقي الإمام على فى قطاع الكوفة منعزلا عن الناس ، ويوجس شرا من أقرب المقربين إليه ، وله عذره ، فقد خذله أنصاره من أهل العراق ، فكان كالذى يغص بالماء ، وقد صدق كرم الله وجهه حين قال ك

" أخلاقكم دقاق ، وماؤكم زعاق ، ودينكم نفاق ، وعهدكم شقاق ، القائم بين أظهركم مرتهن بذنبه ، والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربه " .

قيس بن سعد ومعاوية :

وجاء في ربيع الأبرار للزمخشري :

دعا معاوية قيسا بن سعد بن عبادة إلى مفارقة علي بن أبي طالب حين تفرقت الناس عنه ، فكتب قيس إلى معاوية :

" . . . تدعوني لمفارقة علي بت أبي طالب والدخول في طاعتك ، وتخوفتي بتفرق أصحابه عنه وانثيال الناس عليك وإجفالههم إليك ، فوالذي لا إله غيره ، لا سالمك أبدا وأنت حربيه ، ولا دخلت في طاعتك وأنت عدوه ، ولا اخترت عدو الله على وليه ، ولا حزب الشيطان على حزبه "

استشهاد الإمام علي :

ثم كان ما قدره الله من استشهاد الإمام علي كرم الله وجهه ، غدرا بيد أحد الخوارج ، فمات شهيدا راضيا مرضيا .

وذلك بأن ثلاثة من الخوارج هم : عبد الرحمن بن ملجم ، والبرك بن عبد الله ، وعمر بن بكر التميمي ، وهم من غلاة الخوارج الموتورين اجتمعوا وتذكروا القتلى من المسلمين عامة ، وألقوا وزر هذه الدماء كلها على ثلاثة من الكفار ، أو أئمة الضلال ( في رأيهم السفیه ) وهم : علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص .

فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم عليا بن أبي طالب . . وقال البرك : أنا : أكفيكم معاوية ابن أبي سفيان . وقال عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عمرو بن العاص . .  
فأما عمرو بن العاص ، فقد مرض فلم يخرج من ليلته تلك ، وأمر صاحب الشرطة خارجة بن حذافة أن يصلى بالناس ، فقتله عمرو بن بكر وهو يحسبه عمرا بن العاص ، فقال عمرو بن العاص : أردتني وأراد الله خارجة . . . وأمر بقتله .  
وأما معاوية فضربه البرك بن عبد الله ، فوقعت الضربة على إتيته ، فعولج وشفى .  
وأما أمير المؤمنين على فضربه ابن ملجم فى جبينه بسيف مسموم وهو خارج لصلاة الفجر ، فمات بعد أيام .

#### أبناء الزهراء

رزق الله السيدة الزهراء وزوجها أطيّب ذرية من الذكور والإناث ، وذلك بدعوته صلى الله عليه وسلم .  
أما الذكور فهم السادة : الحسن ، والحسين ، والمحسن ، وقد مات المحسن صغيراً ؛ وحفظ الله السبطين : الحسن والحسين رضى الله عنهما ، حتى لعبا دورهما فى تاريخ الإسلام ، وصان سبحانه بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحياة .

وأما الإناث فزينب وأم كلثوم .

وأسماء الحسن ، والحسين ، والمحسن ، من اختياره صلى الله عليه وسلم ولم يكن للعرب عهد بتلك الأسماء ، وأما زينب وأم كلثوم فسميتا باسم خالتيهما إحياء لذكرى الراجلتين العزيزتين زينب وأم كلثوم ، اللتين فقدتهما الزهراء رضى الله عنها دون أن تنسى عطفهما عليها حين كانت طفلة فى مدارج الصبا .

وكان صلى الله عليه وسلم يغمر سبطيه الحسن والحسين بعطفه الكبير وقال فيهما : (( إنهما ابناي وابنا ابنتى ، اللهم إنى أحبهما وأحب من يحبهما )) ولذلك كان كل منهما يهتف بجده فيقول : يا أبت ، وإذا هتف الحسن بأبيه على قال : يا أبا الحسين وإذا هتف الحسين بأبيه على قال : يا أبا الحسن . ولما انتقل جدهما إلى الرفيق الأعلى كانا يهتفان بالإمام على ويقولان : يا أبت .

وكانت السيدة الزهراء تهتف بابنيها فتقول مرة : يا حسنان ، ومرة أخرى : يا حسينان ، من باب المزج بين اسميهما .

وكان الطفل منهما يعلو بقدمه الصغيرة حتى يبلغ بها صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيرقصه جده ويقول : حزقة<sup>١</sup> ، ترق ترق ،

<sup>١</sup> حزقة : الصغير .

عين بقة<sup>١</sup> . وقد يلفهما فى برد واحد فيقول : (( أنا وأنتم يوم القيامة فى مكان واحد )) ، كما أنه صلى الله عليه وسلم قال : (( إنهما سيدا شباب أهل الجنة )) . وقد كان الإمام على يرضن بهما فى الحرب ، ويقول : إنى أخشى أن ينقطع بموتهما نسل رسول الله . أما الصحابة الكرام فقد أجلوا الحسن والحسين كل الإجلال حتى كانوا يقولون لكل منهما : يا ابن المصطفى .

#### آل البيت الكرام :

ومن الإمام على وزوجته السيدة الزهراء كان أهل البيت المنسوبون للرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم .

وقد ذكر الفقهاء من خصائصه صلى الله عليه وسلم أنه ينسب إليه أبناء بناته ، ولم يذكروا ذلك فى أولاد بنات بناته ، فالخصوصية للطبقة العليا فقط ، فأولاد فاطمة عليها السلام الأربعة ينسبون إليه صلى الله عليه وسلم .

وأولاد الحسن والحسين ينسبون إليهما ، فينسبون إليه صلى الله عليه وسلم ، أما أولاد أختيهما زينب وأم كلثوم فينسبون إلى أبيهم عبد الله بن جعفر وعمر بن الخطاب على التوالي ، لا إلى الأم ولا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنهم أولاد بنت بنته .

---

<sup>١</sup> عين بقة : صغير .

وإنما خرج أولاد فاطمة وحدهما للخصوصية التي ورد الحديث بها ، وهو مقصور على ذرية الحسن والحسين عليهما السلام ، فقد أخرج الحاكم في المستدرک عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (( كل بنى أم عصبه إلا ابني فاطمة أنا وليهما وعصبتهما )) . فانظر إلى لفظ الحديث الشريف ، كيف خص الانتساب والتعصيب بالحسن والحسين دون أختيهما ، لأن أولاد أختيهما ينسبون لأبائهم . ولهذا جرى السلف والخلف على أن ابن الشريفة لا يكون شريفاً ، ولو كانت الخصوصية عامة في أولاد بناته صلى الله عليه وسلم وإن نزلن ، لكان ابن كل شريفة شريفاً تحرم عليه الصدقة وإن لم يكن أبوه كذلك كما هو معلوم . ولهذا حكم صلى الله عليه وسلم لابني فاطمة دون غيرها من بناته ، لأن أختها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تعقب ذكراً حتى يكون كالحسن والحسين في ذلك ، وإنما أعقبت بنتاً<sup>١</sup> هي أمامة بنت أبي العاص بن ربيع ، فلم يحكم لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الحكم مع وجودها في زمنه ، فدل على أن أولادها لا ينسبون إليه لأنها بنت بنته ، وأما هي فكانت تنسب إليه بناء على أن أولاد بناته ينسبون

<sup>١</sup> كان لأمامة أخ اسمه " على " مات ناشئاً .

إليه ، ولو عاش لزينب ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد ذكر لكان حكمه حكم الحسن والحسين فى أن ولده ينسبون إليه .

وشرف ذرية السبطين الحسن والحسين عليهما السلام عام لا فرق فيه بين أولاد ذكورهما وأولاد إناثهما ، لأبوة النبى صلى الله عليه وسلم كتابا وسنة وإجماعاً .

وقد فرق الفقهاء بين من يسمى ولدا للرجل وبين من ينسب إليه ، ولهذا قالوا : وقفت على أولادى دخل ولد البنت ، ولو قال وقفت على من ينسب إلى من أولادى لم يدخل ولد البنت ، لأن أولاد بنات الإنسان ينسبون إليه وإن كانوا معدودين فى ذريته حتى لو أوقف لأولاد أولاده فلا يدخل فيه ولد البنت .

وإليك ما وقع بين الحجاج والشعبى فى بنوة السبطين للرسول صلى الله عليه وسلم ونسبتهما إليه :

جاء فى مطالب السؤل فى مناقب آل الرسول امحمد بن طلحة قال : قد نقل أن الشعبى كان يميل إلى آل النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان لا يذكره إلا وهو يقول : هم أبناء الرسول صلى الله عليه وسلم وذريته فنقل عنه ذلك إلى الحجاج بن يوسف الثقفى ، وتكرر ذلك عنه ، فأغضبه ذلك من الشعبى ، ونقم عليه .

فاستدعاه الحجاج يوما ، وقد اجتمع لديه أعيان المصرين ( الكوفة والبصرة ) وعلماؤهما وقراؤهما ، فلما دخل الشعبى لم يهش له ولا وفاه حقه

من الرد عليه ، فلما جلس قال له : يا شعبي ما أمر بلغنى عنك ، فيشهد عليك بجهلك ؟ !  
قال : ما هو يا أمير ؟

قال الحجاج : ألم تعلم أن أبناء الرجل إنما ينسبون إليه ؟ والأنساب لا تكون إلا با لأباء ، فما بالك تقول عن أبناء على أنهم أبناء رسول الله صلى الله عليه وسلم وذريته ، وهل لهم اتصال برسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بأمامهم فاطمة ، والنسب لا يكون بالبنيات ، وإنما يكون بالأبناء ؟ !

فأطرق الشعبي ساعة حتى بالغ الحجاج فى الإنكار عليه ، ووقع إنكاره فى مسامعه والشعبي ساكت . . .

فقال : يا أمير ، ما أراك تكلمنا بكلام من يجهل كلام الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم أو يعرض عنهما .

فازداد الحجاج غضبا وقال : ألمثلنى تقول هذا ، يا ويلك ؟ !

قال : نعم ، هؤلاء هم قراء ( فقهاء ) المصريين ، حملة الكتاب العزيز ، أليس قد قال الله تعالى : ( يا بنى آدم ) ، ( يا بنى إسرائيل ) وعن إبراهيم وعن ذريته عيسى ؟

وهل كان اتصال عيسى بالثلاثة إلا بأمامه ، وقد صح النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذا ابنى سيد شباب أهل الجنة " .

فخجل الحجاج ، وعاد يتلطف بالشعبي .

هذا وقد تعرض ابن أبي حديد عند شرحه لقول إمامنا على كرم الله وجهه في آل البيت :  
 " وكيف يتاه بكم ، وكيف تعمهون وفيكم عترة نبيكم ، وهم أئمة الحق وأعلام الدين ، وألسنة  
 الصدق ، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن ، وردوهم ورود الهيم العطاش )) .

إلى أن قال كرم الله وجهه مشيراً إلى فضله على رعيته :  
 (( وقد ركزت فيكم راية الإيمان ، ووقفتم على حدود الحلال والحرام ، وألبستكم العافية من  
 عدلى ، وفرشتكم المعروف من قولى وفعلى ، وأريتكم كرائم الأخلاق فى نفسى )) .  
 قال ابن أبي حديد فى شرحه :

وعترة رسول الله صلى الله عليه وسلم أهله الأذنون ونسله ، وليس بصحيح قول من قال إنهم  
 رهطه وإن بعدوا ، وإنما قال أبو بكر يوم السقيفة أو بعده : (( نحن عترة رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم وبيضته التى فقئت عنه )) على طريق المجاز ، لأنهم بالنسبة إلى الأمصار عترة  
 لا فى الحقيقة ، فأراد أبو بكر رضى الله عنه أنهم عترة أجداده على طريق حذف المضاف .  
 ثم استطرده ابن أبي حديد قائلاً :

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم عترته من هم لما قال : (( إنى تارك فيكم الثقليين ))  
 ، فقال : (( عترتى أهل بيتى )) وبين فى مقام آخر

من أهل بيته حيث طرح عليهما كساء ، وقال حين نزلت : ( إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ) : (( اللهم هؤلاء أهل بيتي ، فاذهب الرجس عنهم )) .  
وأضاف ابن أبي حديد يقول :

فإن قلت : فمن هي العترة التي عناها أمير المؤمنين بكلامه ؟ قلت : نفسه وولداه ، والأصل في الحقيقة نفسه لأن ولديه تابعان له ، ونسبتهما إليه مع وجوده كنسبة الكواكب المضيئة مع طلوع الشمس المشرقة ، وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم وآله على ذلك بقوله : (( وأبوكما خير منكما )) .

أقول : وقد قال الأعور الشنقى فى صفيين ، وكان من أنصار الإمام الصادقين ، شعراً يوافق ما ذهب إليه ابن أبي حديد فى كلامه المتقدم ، فقد قال يخاطب الإمام كرم الله وجهه :

أبا حسن أنت شمس النهار	وهذان فى الحادثات القمر
وأنت وهذان حتى الممات	بمنزلة السمع بعد البصر
وأنتم أناس لكم سورة	تقصر عنها أكف البشر
يخبرنا الناس عن فضلكم	وفضلكم اليوم فرق الخبر

أهل الكساء :

أدخل الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم فى كسائه أربعة

من أهل بيته ، رضى الله عنهم ، عرفوا بأهل الكساء ، أو أهل العباء ، أو أهل الخيمة . . .  
فقد روى أبو بكر الصديق رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خيم  
خيمة ، وهو متكئ على قوس عربية ، وفى الخيمة على ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين ،  
فقال :

(( معشر المسلمين ، أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة ، حرب لمن حاربهم ، ولى من ولاهم . .

(( لا يحبهم إلا سعيد الجد طيب المولد ، ولا يبغضهم إلا شقى الجد ردىء الولادة )) .  
ويدل على فضل أهل الكساء هؤلاء قول الله تعالى فى سورة آل عمران : ( إن مثل عيسى عند  
الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون \* الحق من ربك فلا تكن من الممترين \*  
فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم  
وأ أنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ) فقد جاء نصارى نجران فدعاهم  
صلى الله عليه وسلم إلى المباهلة <sup>١</sup> ، فاستمهلوه حتى ينظروا فى الأمر .

<sup>١</sup> أى ندعو الله أن يجعل لعنته على الكاذبين .

فلما خلوا قالوا للعاقب ، وكان ذا رأى فيهم ، ما ترى ؟ فقال : والله لقد عرفتم نبوته ، ولقد جاءكم بالفصل فى أمر صاحبكم ( سيدنا عيسى عليه السلام ) والله ما باهل قوم نبى إلا هلكوا ، فإن أبيتم إلا إلف دينكم فودعوا الرجل وانصرفوا ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضنا الحسين آخذ بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى رضى الله عنه خلفها وهو صلى الله عليه وسلم يقول : إذا أنا دعوت فأمنوا فقال أسقفهم يا معشر النصارى إنى لأرى وجوها لو سألتوا الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله ، فلا تباهلوا فتهلكوا ، فأذعنوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلوا له الجزية ألفى حلة حمراء وثلاثين درعاً من حديد ، فقال صلى الله عليه وسلم : (( والذى نفسى بيده لو تباهلوا لمسخوا قردة وخنازير ، ولا اضطرم عليهم الوادى ناراً أو لاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر )) .

وهذا دليل على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم وعلى فضل أهل الكساء فقد أكد الله أبوته صلى الله عليه وسلم للسبطين الحسن والحسين مؤيداً ما قاله صلى الله عليه وسلم (( إنما هما ابنائى وابنا ابنتى . . )) وقد مر عليك الحديث الشريف كما أن الآية رفعت من شأن إمامنا على كرم الله وجهه فجعلت نفسه الطاهرة منتسبة إلى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : ( وأنفسنا وأنفسكم ) ولم لا ، وقد قال له حين آخى بين المهاجرين والأنصار : (( أنت أختى )) .

فهنيئاً لسادتي أهل الكساء ذلك الشرف الذى اجتمع لهم من أطرافه ، وباركه الله فى عليائه ،  
وذلك فضل الله يؤتية من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ولا تنسى ان الله تعالى شرفهم بالطهارة فقال ( إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت  
ويطهركم تطهيراً ) فاستعارت الآية للمعاصى الرجس وللطاعات الطهارة ، فهم موفقون  
للطاعات ، منتهون عن المعاصى وكيف لا وقد سبقت لهم من الله الحسنى وألزمهم كلمة  
التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل شىء عليماً .

وقد روى الطبرانى عن جعفر بن محمد عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وسلم بايع الجسن  
والحسين وعبد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر وهم صغار لم يبلغوا ، ولم يبلغ صغيراً إلا  
منا .

ولا يخفاك أن الله جعل لهم لسان صدق فى الآخرين ، فهم المذكورون على ألسنتنا وعلى مر  
الزمان فى كل تشهد نتلوه فى صلاة الفرض أو فى النفل ونقول فيه : اللهم صلى على سيدنا  
محمد وعلى آل سيدنا محمد . . إلخ .

محبة آل البيت :

أخرج البخارى فى تاريخه عن الحسن بن على عليهما السلام قال قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لكل شئ أساس ، وأساس الإسلام حب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب آل بيته " .

وأخرج البخارى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه : " ارقبوا محمدا صلى الله عليه وسلم فى أهل بيته " .

وأخرج الترمذى وحسنه الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمه ، وأحبونى لىب الله وأحبوا أهل بيتى لىبى " .

وأخرج أحمد والترمذى وصححه والنسائى والحاكم عن المطلب بن ربيعة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والله لا يدخل قلب امرئ مسلم إيمان حتى يلىبكم الله ولىقربتى " .

وأخرج ابن المنذر وابن حاتم وابن مردويه فى تفاسيرهم والطبرانى فى المعجم الكبير عن ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت هذه الآية الكريمة ( قل لا أسألكم علىه ألىب إلا المودة فى القربة ) قالوا يا رسول الله : من قربتك هؤلاء الذين ولىبت علينا مودتهم ؟ قال : " على وفاطمة وولداهما " .

وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" يا بنى هاشم إنى قد سألت الله لكم أن يجعلم نجداء رحماء ، وسألته أن يهدى ضالكم ، ويؤمن خوفكم ، ويشبع جائعكم ، والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحبكم بجنبى ، أترجون أن تدخلوا الجنة بشفاعتى ، ولا يرجوها بنو عبد المطلب " .

ولأيجاز نكتفى بما تقدم من الأحاديث : أما القرآن الكريم فقد جاء فيه قوله تعالى : ( قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ومن يقترب حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور ) واقتراف الحسنة التى يزيدها الله حسنا هو مودة آل البيت إرضاء الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وما أبدع ما يقول سيدى محيى الدين بن عربى فى شعره الرقيق :

أرى حب آل البيت عندى فريضة

على الرغم أهل البعد يورثنى القربا

فما اختار خير الخلق منا جزاءه

على هديه إلا المودة فى القربى

عظماء الإسلام :

والسادة أهل البيت لم يقف ميراثهم من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

عند ميراث الدم الطاهر باعتبارهم ذريته ، بل ميراث الدم ورثهم خصاله الشريفة من الحفاظ على الدين والغيرة على مجد الإسلام وعلى كل ما فيه النفع العام للإسلام والمسلمين مهما كلفهم ذلك من تضحية وفداء .

فهم إذن عظماء الإسلام ، ويقول فيهم العلامة العقاد بحق :  
 (( فعظماء الإسلام عندى أعلام إنسانية باذخة تخولها مكان العظمة مناقب يكبرها المسلم وغير المسلم ، وليست غاية الأمر فيهم أنهم أضرحة للتبرك وقراءة الفاتحة والسلام )) .  
زهد آل البيت :

أقول وإنما الإسلام بالمسلمين ، الأولين منهم والآخريين ، وليس فى تاريخ البشرية كلها أسرة بذلت من أرواح أهلها فى سبيل صيانة العقيدة وحقوق الأمة الإسلامية كما بذل آل البيت الكرام ، والتاريخ خير شاهد على ذلك ، ولو أنهم طلبوا عرض الدنيا لجاهم سهلاً ذلولاً وهم ناعمون ، ولكن حاشاهم ان يستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير ، أو أن يشتروا الضلالة بالهدى أو العذاب بالمغفرة كما فعل غيرهم من أهل الدنيا . كذلك لم يعرف فى تاريخ البشرية أسرة أنجبت من أئمة الهدى الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر حسبة الله كما أنجب آل البيت ، وحقاً ما قال الفرزدق :

إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم

أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم

وما قاله سيدي الشيخ أحمد الحلواني الكبير :

هم الدين والدنيا لعمرى هو هو

فقل فيهم ما شأت لا ترهبن نكرا

بدور سمت عن شمس أكرم مرسل

أناروا دياجى الكون بالطلعة الغرا

وبالبر والتقوى وبالعلم والندى

وبالعلم والفتوى وبالذكر والذكرى

وما أصدق ما يقول إمامنا على فى السادة أهل البيت :

(( أين الذين زعموا أنهم الراسخون فى العلم دوننا ، كذباً وبغياً علينا ، أن رفعنا الله ووضعهم ، وأعطانا وحرّمهم ، وأدخلنا وأخرجهم ، بنا يستعطى الهدى ، ويستجلى العمى )) .  
وما أصدق كرم الله وجهه حين يقول مرة أخرى فى وصف آل البيت : هم عيش العلم وموت الجهل ، يخبركم حلمهم عن علمهم ، وظاهرهم عن باطنهم ، وصمتهم عن حكمة منطقتهم ، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه ، هم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام ، بهم عاد الحق إلى نصابه ، وانزاح الباطل عن مقامه ، وانقطع لسانه عن منبته ، عقلوا الدين عقل

وعاية ورعاية ، لا عقل سماع ورواية ، فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل )) . وصدق دعيل الخزاعى إذ يقول فى قصيدته المشهورة :

ملامك فى أهل النبى فإنهم      أحباى ما عاشوا وأهل ثقاتى  
تخيرتهم رشدا لأمرى فإنهم      على كل حال خيرة الخيرات  
قيارب زدى من يقينى بصيرة      وزد حبهم يارب فى حسناتى

وما أروع ما قال الإمام على " من هوان الدنيا على الله أنه لم يرضها ثوبا لأحيائه ولا عقابا لأعدائه " .

وما أروع ما أوصى به ابنه السبطين الحسن والحسين فقد قال لهما وهو يحتضر : " أوصيكم بتقوى الله ، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكم ، ولا تبكيا على شئ زوى عنكما ، وقولا الحق ، وارحما اليتيم ، وأعينا الضائع ، واصنعا لآخرة ، وكونا للظالم خصما ، وللمظلوم ناصرا ، واعملا فى كتاب الله ، ولا تأخذكما فى الله لومة لائم " .

ولذلك كان أبنة الأكبر الإمام الحسن السبط ، رضى الله عنه ، كثيرا ما يقول متمثلا :

يا أهل لذات دنيا لا يقاء لها      إن اغترارا بظل زائل حمق

أما أخوه الإمام الحسين السبط ، رضى الله عنه ، فكان يقول :

" الناس عبيد الدنيا والذين لعق<sup>١</sup> على ألسنتهم يحوطونه ما دارت

<sup>١</sup> - جمع لعقة .

به معاشهم فإذا حصوا بالبلاء قل الديانون " .  
 وأنت ترى من أقوالهم المتقدمة أن السادة أهل آل البيت رضوان الله عليهم نظروا إلى باطن  
 الدنيا حيث نظر الناس إلى ظاهرها ، وأهمهم آجالها حيث أهم الناس عاجلها ، كما قال فيهم  
 بحق الإمام على كرم الله وجهه .

كبار الصحابة وأهل الكساء :

كان لسادتي أهل الكساء مكانتهم عند أجلاء الصحابة ، فقد أحببهم بحب رسول الله لهم ،  
 وأنزلوهم منازلهم ، وذكرهم بما حباهم الله به من فضل عليهم ، وإليك بعض الوقائع الدالة  
 على ذلك وهي قليل من كثير .

بين أبي بكر والزهاء :

عندما تولى سيدنا أبي بكر الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طالبة السيدة فاطمة  
 الزهراء بميراثها من أبيها في أرض فدك<sup>١</sup> وفيما بقي من خمس خيبر . فقال الخليفة : أن  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : " إننا معشر الأنبياء لا نورث ، وما تركناه صدقة  
 " وإنى والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كان عليها .

<sup>١</sup> - قرية كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئ فيها بين آل بيته وفقراء المسلمين .

وقالوا أن السيدة الزهراء احتجت عليه بقوله تعالى عن دعاء سيدنا زكريا عليه السلام ( يرثني ويرث من آل يعقوب ) ، ويقواه تعالى : ( وورث سليمان داود ) .

فقال لها الخليفة : يا بنت رسول الله ، أنت عين الحجة ومنطق الرسالة لا يدلى بجوابك ولا أدفعك عن صوابك ، ولكن هذا أبو الحسن بيني وبينك هو الذى أخبرنى بما تفقدت ، وأنبأنى بما أخذت وتركت .

وجاء فى شرح ابن أبى حديد على نهج البلاغة : إن أبا بكر قال يا أبنة رسول الله ، والله ما ورثك أبوك ديناراً ولا درهما ، وإنه قال إن الأنبياء لا يورثون فقالت إن قدك وهبها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فمن يشهد بذلك فجاء على بن أبى طالب فشهد ، وجاءت أم أيمن فشهدت أيضاً ، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها .

فقال الخليفة رضى الله عنه وأجاده : صدقت يا أبنة رسول الله ، وصدق على ، وصدقت أم أيمن ، وصدق عمر ، وصدق عبد الرحمن بن عوف ، وذلك أن مالك لأبيك ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقي ويحمل منه فى سبيل الله ، فما تصنعين به ؟ قالت أصنع بها كما كان يصنع أبى .

قال : فلك على أن أصنع فيها كما كان يصنع فيها أبوك .

قالت : آله لتفعلن .

قال : آله لأفعلن .

قالت اللهم اشهد .

وأنتهى بذلك الخلاف الذى كان قائما بين السيدة الزهراء والخليفة أبى بكر فى هذه المسألة . وكان الخليفة يأخذ غلتها فيدفع إليهم منهم ما يكفيهم ويقسم الباقي ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك ، ثم كان على كذلك .

أبو بكر والزهراء :

وفى خلال الخلاف على هذه القضية قال عمر لأبى بكر . انطلق بنا إلى فاطمة فإننا قد أغضبناها ، فانطلقا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا عليا فكلموه ، فأدخلهما ، فلما قعدا عندهما حولت وجهها إلى الحائط ، فتكلم أبو بكر فقال : يا حبيبة رسول الله ، والله إن قرابة رسول الله أحب من قرابتي ، وإنك لأحب إلي من عائشة أبنتي ، ووددت يوم مات أبوك أنى مت ولا أبقى بعده ، أفترانى أعرفك وأعرف قدرك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ؟ إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورث ما تركناه فهو صدقة .

فقلت : أرايتكما إن حدثتكما حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تعرفانه وتعملان به ؟ قالوا نعم ، فقلت نشدتكما<sup>١</sup> الله ألم تسمعا رسول الله يقول : رضاء فاطمة من رضائي وسخطها من سخطي ؟ قالوا نعم سمعنا من رسول الله ، قالت فإن أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني ولئن لقيت النبي لأشكونكما إليه .

فقال أبو بكر : أنا عائد بالله من سخطه وسخطك يا فاطمة ، ثم انتحب يبكي حنى كادت نفسه تزهد ، ثم خرج فاجتمع إليه الناس فقال لهم : يبيت كل رجل منكم معانقا حليلته مسرورا بأهله ، وتركتموني وما أنا فيه ، لا حاجة لي في بيعتكم ، أقبلوني بيعنى .

فا نظر - رعاك الله - إلى أى مدى قدر الخليفة الأول من الخلفاء الراشدين مكانة السيدة الزهراء حتى هدد بترك الخلافة إن لم تكن هى راضية عنه .

#### الإمام على وأبناء الزهراء :

وكان للسيدة الزهراء منزلتها كذلك عند زوجها الإمام على ، ويدلنا على ذلك اعزازه بذريته منها ، وإيثارهم على أولاده الآخرين من غيرها حتى قال مرة فى مناسبة تزويج ابنته السيدة أم كلثوم من ابن أخيه

<sup>١</sup> - نشدتك الله : أى سألتك بالله .

عون بن جعفر عندما تأيمت بعد استشهاد أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه فقد قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : قد عرفتم منزلتكم عندي يا بنى فاطمة وأثرتكم على ثائر ولدى لمكانكم من رسول الله عز وجل ، فقالوا : صدقت رحمك الله فجزاك الله عنا خيرا .

أبو بكر وعمر فى معاملة الحسنين :

وفى صحيح البخارى أن أبا بكر رضى الله عنه صلى العصر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بليال ، ثم خرج من المسجد الحسن بن على يلعب مع الغلمان فاحتمله على عاتقه وهو يقول بأبى شبيهه النبى ليس شبيها بعلى ، وعلى يضحك .

وقد فرض أمير المؤمنين عمر للسبطين الحسن والحسين مثل فريضة أهل بدر ، فقد روى ابن الجوزى : أدخل عمر فى أهل بدر ممن لم يحضروا بدرا أربعة : الحسن والحسين وأبو ذر وسلمان ففرض لكل واحد خمسة آلاف .

وروى ابن عباس فقال : كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحب الحسن والحسين ويقدمهما على ولده وقد قسم يوما مالا ، فأعطى كل واحد منهما عشرة آلاف وأعطى ولده عبد الله ألف درهم ، فعاتبه ابنه وقال له : قد علمت سبقى فى الإسلام وهجرتى وأنت تفضل على هذين الغلامين ؟

فقال أمير المؤمنين عمر لأبيه : ويحك يا عبد الله : إيتنى بجد مثل جدكما ، وأب مثل أبيهما ، وأم مثل أمهما وجدة مثل جدتهما ، وخال مثل خالهما وخالة مثل خالاتهما ، وعم مثل عمهما ، وعممة مثل عمتها ، جدما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخالاتهما زيتب ورقية وأم كلثوم ، وعمهما جعفر بن أبي طالب وعمتهما أم هانئ بنت أبي طالب .

وأقول من قرأ تاريخ الإسلام يرى فى صحيفة ذلك النسب أعلام المجاهدين والمجاهدات ، أولئك الذين حموا بيضة الدين فى نشأته بالنفس النفيس حتى صارت كلمة الله هى العليا .

وقد من الله علينا فهدانا للإيمان الذى نادى به مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحماه بنفسه وأهله وصحبه ، فمن حق السابقين الأولين علينا أن نذكرهم بفضلهم علينا ، فقد ورثونا إيماننا يورثنا الجنة ويحول بيننا وبين النار ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله .

وكذلك قال أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه لقومه من بنى عدى : والله ما أدركنا الفضل فى الدنيا إلا بمحمد ، ولا نرجوا ما نرجوا من الآخرة وثوابها إلا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فهو شرفنا ، وقومه أشرف العرب ، ثم الأقرب فالأقرب .

### الإمام على وابن العباس يصفان الحسن السبط :

ووصف إمامنا على كرم الله وجهه ابنه السبط الحسن يوما فقال : وأما الحسن فصاحب جفنة وخوان ، فتى من فتیان قريش ، فوصفه كما ترى بالكرم والفتوة القرشية .  
وقد قال ابن عباس حين مات الإمام الحسن : أول ذل دخل على العرب موت الحسن عليه السلام . فدل ابن عباس على الفراغ الذى تركه موته فى المجتمع .

### أبو ذر والحسين السبط :

وقد قال أبو ذر رضى الله عنه ( وهو خامس رجل فى الإسلام ) لمولانا الإمام الحسين حين خرج معه يودعه وهو تارك المدينة إلى الربذة : رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة ، إذا رأيتم ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مالى بالمدينة سكن ولا شجن غيركم .

### عبد الله بن عمرو يصف الحسين السبط :

وإليك ما يصف به عبد الله بن عمرو بن العاص مولانا الإمام الحسين رضى الله عنه ، ومعلوم أن عبد الله بن عمرو كان فى صف معاوية فى صفين ، فقد روى ابن الأثير فى أسد الغابة فى ترجمة عبد الله بن عمرو بن العاص عن إسماعيل بن رجاء عن أبيه قال :  
كنت فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فى حلقة فيها أبو سعيد

الخدري وعبد الله بن عمرو فمر بنا حسين بن علي فسلم فرد القوم السلام ، فسكت عبد الله حتى فرغوا فرفع صوته وقال ، وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم أقبل على القوم فقال : ألا أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء ؟ قالوا : بلى ، قال : هو هذا الماشى ، ما كلمنى كلمة منذ ليالى صفيين ، ولأن يرضى عنى أحب إلى من أن يكون لى حمر النعم .

فقال أبو سعيد : ألا تعتذر إليه قال : بلى ، فتواعدوا أن يفدوا إليه فغدوت معهم ، فاستأذن أبو سعيد فأذن له فدخل ، ثم استأذن لعبد الله فلم يزل حتى أذن له . فلما دخل قال أبو سعيد يا ابن رسول الله ، إنك لما مررت بنا أمس وأخبره بالذى كان من قول عبد الله بن عمرو ، فقال الحسين : أعلمت يا عبد الله أنى أحب أهل الأرض إلى أهل السماء ؟ قال : أى ورب الكعبة ، قال : فما حملك على أن قاتلتنى وأبى يوم صفيين<sup>١</sup> ؟ فوالله لأبى كان خيرا منى .

قال : أجل ولكن عمرا شكاني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ، عبد الله يقوم الليل ويصوم النهار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله صل ونم وصم وافطر وأطع عمرا -

<sup>١</sup> - بلدة على البر الغربى من الفرات فى نهاية أطراف الشام ودار فيها القتال بين معاوية وجيش الإمام على .

قال فلما كان يوم صفين أقسم على فخرجت ، أما والله ما اخترت سيفاً ولا طعنت برمح ، ولا رميت بسهم . ويكفيك من وصف عبد الله بن عمرو أن الإمام الحسين كان أحب أهل الأرض إلى أهل السماء .

عبد الله بن جعفر يصف الحسين السبط :

ولينظر القارئ الكريم إلى الوصف الذي وصف به عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الإمام الحسين السبط ، فقد كتب إليه كتاباً يثنيه عن الخروج إلى العراق حين عزم على ذلك ، وقال فى كتابه للإمام الحسين : أما بعد : فإنى أسألك بالله إلا انصرفت حين تنظر فى كتابى ، فإنى مشفق عليك من الذى توجه له أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك ، إن هلكت اليوم طفئ نور الأرض ، فإنك علم المهتدين ، ورجاء المؤمنين ، فلا تعجل بالسير فإنى فى أثر الكتاب والسلام .

ويكفيك من ذلك الوصف أنه شهادة عدل بأن الإمام الحسين السبط رضى الله عنه كان علم المهتدين ورجاء المؤمنين .

عبد الله بن عمرو وأهل العراق :

وقد روى البخارى فى صحيحه فى كتاب الأداب عن ابن أبي نعيم قال : كنت شاهداً لابن عمر وسأله رجل عن دم البعوض فقال ممن

أنت فقال من أهل العراق ، فقال : انظروا إلى هذا يسألني عن دم البعوض وقد قتلوا ابن النبي صلى الله عليه وسلم ، وسمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : هما ريحانتي من الدنيا - يعنى الحسن والحسين - .

ونكتفى بالقدر المتقدم لئلا يطول بنا الكلام فى أمر لا مجال للشك فيه .  
الإمام الحسن رضى الله عنه .

نشأته : ولد رضى الله عنه بالمدينة المنورة فى النصف الأول من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة فاختر له أبوه اسم حرب فقال صلى الله عليه وسلم : بل هو حسن ، ولم يكن ذلك الإسم الجميل معروفا عند العرب بل هو من ابتكاره واختياره صلى الله عليه وسلم ، وقد علق<sup>١</sup> عنه كبشا وختنه<sup>٢</sup> لسابعه ، وكنيته " أبو محمد " وقد كناه بذلك جده صلى الله عليه وسلم كما جاء فى تهذيب الأسماء . أما ألقابه فكثيرة وهى التقى والطيب والزكى والولى والسبط والسيد وأمير المؤمنين ، وأشهرها السبط وأعلامها السيد .

<sup>١</sup> - العقيقة : ذبيحة يطعم بها الفقراء شكرا لله على المولود .  
<sup>٢</sup> - : الطهارة .

وروى البخارى ومسلم بسندهما عن البراء أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والحسن بن على على عاتقه يقول : " اللهم إني أحبه فأحبه " .  
 وجاء فى كتاب الأصابة عن عبد الله بن الزبير : أنا أحدثكم بأشبه أهله به وأحبهم إليه ، الحسن بن على ، رأيته يجئ به وهو<sup>١</sup> ساجد فيركب رقبته - أو قال ظهره - فما ينزل حتى يكون هو الذى ينزل ، وقال رأيته يجئ وهو راع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر .

وكان الإمام الحسن رضى الله عنه ذا هيبة ووقار ويحسب حسابهم صاحب السلطان فى عرشه حتى قال معاوية لجلسائه : والله ما رأيتك جالسا عندى إلا خفت مقامه .  
 وكان رضى الله عنه غزير العلم ، كثير الحلم ، شديد السخاء يعطى بسؤال وبغير سؤال ، بالغ الزهد ، ثابت الرأى ، قويا فى مواطن الجد .

#### جراً الإمام الحسن :

وحدث عن جرأته وفصاحته ما شئت من صغره ، حتى لقد دخل المسجد النبوى فى طفولته فرأى أبا بكر الصديق رضى الله عنه يخطب على

<sup>١</sup> - يشير إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

المنبر فهتف به : ليس هذا منبر أبيك ، انزل عن منبر أبي ، قالوا ولم يكن بلغ يومئذ الثامنة من عمره .

فابتسم الصديق رضى الله عنه وقال فى حنان يغمره : يا ابن بنت رسول الله ، صدقت والله ، ما كان لأبى منبرا ، وإنه لمنبر أبيك .

وسمع الإمام على بالخبر فأرسل إلى أبى بكر يقول له : أغفر ما كان من الغلام ، فإنه حدث ولم نأمره .

قال أبو بكر رضى الله عنه : إنى أعلم ، وما اتهمت أبا الحسن .

وقد هياه استعداداه لأن يشارك أباه الرأى فى المسائل العامة ، ومن ذلك أنه لما توجه طلحة والزبير ومعهما عائشة رضى الله عن الجميع إلى البصرة ، جاء الإمام الحسن إلى أبيه بعد صلاة الصبح فقال له :

قد أشرت إليك فعصيتنى ، تقتل غدا بمعضية لا ناصر لك فيها ، فسأله أبوه : وما الذى أشرت به فعصيتك ؟

قال الإمام الحسن : أشرت حين أحيط بعثمان رضى الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ، ثم أشرت يوم قتل الا تبايع حتى تأتئك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر فإنهم لن يقطعوا أمر دونك فأبيت .

ثم أشرت حين فعل هذان الرجلان ( أى طلحة والزبير ) ما فعلا أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحا ، فإن كان الفساد كان على يد غيرك ، فعصيتنى فى ذلك كله .

قلم يأنف أمير المؤمنين أن يساجل ابنه الإمام الحسن الرأى ليقدمه ويريح صدره ، فقال له :  
 أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان ، قوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به .  
 وأما قولك لا تباع حتى تأتي بيعة الأمصار ، فإن الأمر أمر أهل المدينة ، وكرهنا أن يضيع  
 هذا الأمر .

وأما قولك حين خرج طلحة والزبير ، فإن ذلك كان وهنا على أهل الإسلام .  
 وأما قولك اجلس قى بيتك فكيف لى بما قد لزمى ، ومن تريدنى ؟ أتريد أن أكون مثل الضبع  
 التى يحاط بها ، ويقال لها دباب ، دباب ، ليست هنا حتى يحل عرقوباها ثم تخرج ، وإذا لم  
 أنظر فيما لزمى من الأمر ويعينى فمن ينظر فيه ؟ فكف عنى أى بنى .  
 وهذا المثل يريك تقدير أبيه لرأيه واستماعه منه ، فولا أنه رأى وزنا لآرائه ما قارعه بحجته  
 العلوية القوية ، وفوق كل ذى علما عليم .

#### بيعة الإمام الحسن :

ولما طعن الإمام على ، قالوا له نباع الحسن من بعدك ، قال لا آمركم ولا أنهاكم ، أترككم كما  
 ترككم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأراد

كرم الله وجهه أن تكون الخلافة شورى بين المسلمين ويختاروا لأنفسهم .  
وروى أبو الفرج بسنده فى مقاتل الطالبين ويؤيده الطبرى وابن الأثير وابن حديد أن الإمام  
الحسن خطب بعد وفاة أبيه فقال :

" لقد قبض فى هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ، ولا يدركه الآخرون بعمل ، ولقد كان  
يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقيه بنفسه ، ولقد كان يوجهه برايته ، فيكنفه  
جبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، فلا يرجع حتى يفتح الله عليه ، وقد توفى فى هذه  
الليلة التى عرج فيها بعيسى بن مريم ، ولقد توفى فيها يوشع بن نون وصى موسى ، وما  
خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم بقيت من عطائه ، أراد أن يبتاع بها خادما لأهله "  
ثم خنقته العبرة فبكى وبكى الناس معه .

ثم قال " . . . أيها الناس ، من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن محمد  
صلى الله عليه وسلم ، أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الداعى إلى الله عز وجل بإذنه  
، وأنا ابن السراج المنير ، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ،  
والذين افترض الله مودتهم فى كتابه إذ يقول ( ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا ) فاقتراف  
الحسنة مودتنا أهل البيت " .

وتاريخه رضى الله عنه حافل بالكمارم ، ولى فى تاريخه كتاب مستقل تفضل المجلس الأعلى  
للشئون الإسلامية بطبعه ونشره فى سنة ١٣٨٦ هـ .

ثم قام ابن العباس بين يدي الإمام الحسن ، فدعا الناس إلى بيعته ، فاستجابوا له ، وقالوا ما أحبه إلينا ، وأحقه بالخلافة فبايعوه .

ثم نزل عن المنبر .

موقف معاوية :

ولكن معاوية ظل في موقف عناده ، لأنه كان يطلب ملكا تهيئة له نفوس المجتمع حين استشرفت لمتاع الدنيا الفانى ، ولو كان يريد الخلافة لوجد لها خلافة راشدة فى الإمام الحسن السبط وأبيه من قبله ، وصدق أمير المؤمنين عثمان بن عفان حين قال : إن فتنة الدنيا طغت على النفوس طغيانها الذى لا تجدى فيه الحيلة أو المحاولة .

ودس معاوية جاسوسا إلى الكوفة وآخر إلى البصرة واكتشف أمرهما وقتلا ، فكتب الإمام الحسن إلى معاوية يرشده ويدعوه للدخول فى السلم والطاعة ، ولا ينازع الأمر أهله ، وبين له أنه ليس أهلا للخلافة ، لا بفضل فى الدين معروف ، ولا أثر فى الإسلام محمود .

ورد معاوية مغالطا كعادته وقال إنه أطول ولاية وأقدم تجربة وأكبر سنا ، وطلب أن يدخل الإمام الحسن فى طاعته ويكون له الأمر من بعده .

وبعد أخذ ورد فى الرسائل المتبادلة ، سار معاوية بجنده إلى العراق ، وسار الإمام الحسن فى عسكر عظيم وعدة حسنة للقائه ، إلا أنه رضى الله

عنه تمرد عليه بعض جنوده وخانه بعض قواده ، فلم يطمئن لتماسك جيشه أو إلى عزوف الناس عن مفاتن الدنيا ، وخاف على دماء المسلمين أن تسفك من الفريقين ، فتم الصلح بينه وبين معاويه ، وسلم ولاية المسلمين لمعاوية على أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وسيرة الخلفاء الراشدين ، وعلى ألا يعهد معاوية لأحد من بعده عهدا ، بل يكون أمر الخلافة بعده شورى بين المسلمين ، وعلى ألا يبغى للحسن أو أخيه غائلة لا سرا ولا جهرا ، أو يسئ أحدا من آل البيت أو أنصارهم ، أو يخيف أحدا منهم فى أفق من الآفاق .

ويقول صدبقي الأديب الشاعر الأستاذ محمد جاد الرب فى تنازل الإمام الحسن عن الخلافة :

لا نثر يقضى له حقا ولا شعرا

ولا نظمت له القطبين والشعري

سبط النبي فما أعلاه عن كلمى

لو كانت الأحرف والياقوت والدر

فمن يكن جده طه ووالده

أبا تراب<sup>١</sup> وكانت أمه الزهرا

<sup>١</sup> - كنية الإمام على. وقد كناه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وجده نائما بالمسجد وقد لصق التراب به فأيقظه قائلا: قم أبا تراب. فكانت أحب الأسماء إليه كرم الله وجهه .

وسيد<sup>١</sup> الشهدا من بعض إخوته

فقد تسامى إلى كل الورى قدرا  
 فلنقصر القول ولنقصد رحابهمو  
 ونلثم الترب لا بل نلثم التبرا  
 من كل رجس تعالى الله طهرهم  
 وفى فضائلهم كم تنزل الذكر  
 أهل العباءة فالاعباء كم حملوا  
 من البلاء صنوفا تحطم الصخرا  
 جهادهم فى سبيل الحق ما طلبوا  
 دنيا كما طلب الباغون أو فخرا  
 ولو أراد ثراء المال جدهمو

لكان من كل أقيال الورى أثرى  
 لكنه لم يشأ عن هدى أمته  
 إلا المودة فى القرية له أجرى  
 والسيد الحسن الزاكي بحكمته  
 قد أثر الصلح صلحا جائرا مرا  
 ألقى الزمام إلى من لا ذمام لم  
 إذ كان فى رأيه حقن الدما أحرى  
 نبوءة رسول الله قد صدقت

وكان لابد من أن تصدق البشرى<sup>٢</sup>

<sup>١</sup> - الإمام الحسين .

<sup>٢</sup> - يشير إلى الحديث الشريف : إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح له بين فنتين من المسلمين .

عام الجماعة سموه ومن عجب لم يبق عهدهمو إلا كذا شهرا  
ملك عضوض أ ذا أيامه ملئت من الخداع وبالقتلى وبالأسرى  
ولو ببیت رسول الله قد بقیت

لم تفش فی الدين تلك الفتنة الكبرى  
مشيئت الله فی أحبابه سبقت لحکمت حيرة فی فهمها الفکرا  
فإن یکن ولی الدنيا مناوئهم

فقد ولوا المجد فی الدنيا وفى الأخرى

وطلب معاوية من الإمام الحسن أن یخطب الناس فی الكوفة بعد الصلح فأجاد الإمام الحسن  
وأفاد وقال فی خطبته :

" إنما الخليفة من سار بكتاب الله وسنة نبيه ، وليس الخليفة من سار بالجور ، ذاك رجل ملك  
ملكا تمتع به قليلا ، ثم تنخمه ، تنقطع لذته ، وتبقى تبعته ( وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع  
إلى حين ) " .

والمبدأ الذى أبرزه الإمام الحسن فى تلك الخطبة ، هو ذات المبدأ الذى أبرزه أبوه الإمام على  
من قبله حين قال فى تفصيله كرم الله وجهه :

" اللهم إنك تعلم أنه لم یکن الذى كان منا ، منافسة فى سلطان ، ولا التماس شئ من فضول  
الحطام ، ولكن لنرد المعالم من دينك ، ونظهر الإصلاح فى بلادك فیأمن المظلوم من عبادك ،  
وتقام المعطلة من حدودك .

" اللهم إنى أول من أناب ، وسمع وأجاب ، لم یسبقنى إلا رسول الله

صلى الله عليه وسلم بالصلاة وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الولي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وأمامة المسلمين البخيل فتكون أموالهم نهمته ، ولا الجاهل فيضلمهم بجهله ، ولا الجافى فيقطع بجفائه ، ولا الخائف للدول فيتخذ قوما دون قوم ، ولا المرتشى فى الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع ، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة " .

ومن ذلك ترى أن الإمام الحسن وأباه رضى الله عتهما كما يطالبان خلافة الراشدين ، وكان المجتمع قد انحط سريعا إلى الافتتنان بالدنيا ومتاعها فلم تتيسر أسباب الخلافة ، بل تيسرت أسباب الملك ، وكان معاوية يتطلع إلى الملك الذى توافرت فى شخصه وفى الناس أسبابه ، وقد قال عمرو بن العاص ، وهو أقرب أنصار معاوية : إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا رجل له ضرسان يأكل بأحدهم ويطعم بالآخر ، وذلك الذى قاله عمرو عمل به معاوية فأكل بضررس وطمع بالآخر ، وواحزنه على دين يرخص ودنيا تعلقو.

#### التنازل عن الخلافة :

وقد تنازل الإمام الحسن لمعاوية عن الخلافة حقنا لدماء المسلمين ، وكان الناس بعد استشهاد أبيه قد بايعوه بالخلافة ، وبقي فيها سبعة أشهر تمت بها ثلاثون سنة بعد انتقال رسول الله إلى الرفيق الأعلى ، وقد قال

صلوات الله وسلامه عليه : " الخلافة بعدى ثلاثون ثم تصير ملكا عضوضا " .

### معجزتان :

وقد تحققت بتنازل الإمام الحسن عن الخلافة معجزتان : الأولى : أن التنازل جاء بعد أن تمت مدة الخلافة ثلاثين سنة ، والثانية : أن الله أصلح بالإمام الحسن بين فئتين عظيمتين من المسلمين ، فقد روى البخارى بسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى شأن الإمام الحسن وهو طفل : " إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " وكان تسليم الأمر لمعاوية لخمس بقين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين هجرية وكان استشهاد الإمام على فى منتصف رمضان سنة أربعين هجرية .

وقد ساد الإمام الحسن بنى هاشم بعد استشهاد أبيه ، ثم مات رضى الله عنه مسموما ، ولما أحس بالسم لم يأخذ خصمه بالشبهة حين شكا لأخيه الإمام الحسين السم ، فقد قال له الإمام الحسين : أخبرنى من سقاك ، فقال لتقتله ؟ قال نعم ، قال : ما أنا بمخبرك ، إن يكن صاحبى الذى أظن فالله أشد نقمة ، وإلا فما أحب أن يقتل بى برئ .

فما أعظم الورع . . .

### خروج معاوية على شروط الصلح :

ولم يكن معاوية أمينا على الشروط التي شرطها الإمام الحسن فى الصلح الذى عقده مع معاوية ، بل خرج معاوية على تلك الشروط جملة وتفصيلا ، سرا وعلانية .

فقد مات الإمام الحسن مسموما ، وقيل إن ذلك كان بتدبير معاوية وقيل إنه بتدبير يزيد .

وقتل معاوية حجرا بن عدى الصحابى الجليل لا لذنوب إلا أنه كان يعترض على سب الإمام على ويوالى آل البيت الكرام . وقتل معاوية مع حجر عدة من أصحاب حجر .

ونبذ معاوية كذلك مبدأ الشورى فى الإسلام ، حين حمل الناس بسلطانه على بيعته ابنه يزيد ، وكان على خلاف ما يجب أن يتحلى به الخليفة من العقل والخلق وسلامة التدبير وكان على العكس من أهل المجون واللهو والشراب ، لا يرجى له صلاح ولا يرجى فيه إصلاح .

وبعد معاوية أبى أهل الحجاز بيعته يزيد ، فقاتل يزيد أهل المدينة فى واقعة الحرة ، وقد قتل فيها نحو عشرة آلاف نفس حتى ساخت الأقدام فى الدم ، ومن هؤلاء القتلى ألف وسبعمائة من المهاجرين والأنصار وأبيحت أعراض المدينة للجند ثلاثة أيام فهتكوا الأعراض وحمل من بقى من الصحابة على أن يقولوا قهرا إنهم عبيد لأمير المؤمنين يزيد .

رأى الإمام أحمد :

وقد نقل ابن الجوزى عن القاضى أبى يعلى بإسناده إلى صالح بن أحمد بن حنبل قال قلت لأبى أن قوما ينسبوننا إلى تولى يزيد ، فقال يا بنى وهل يتولى يزيد أحد يؤمن بالله ، ولم لا نلعن من لعنه الله فى كتابه ، فقلت وأين لعن الله يزيد فى كتابه ؟ فقال فى قوله تعالى : ( فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ) فهل يكون فساد أعظم من هذا القتل .

غزو الكعبة :

ثم غزا جيش يزيد الكعبة البيت الحرام ، فأحل حرمتها يزيد الذى أقامه معاوية وليا لعهدده ليقاتل فيها عبد الله بن الزبير الذى تمكن من حكم أكثر البلاد الإسلامية بعد موت معاوية .

ابن يزيد يقول الحق :

ومع هذه المخازى الأثمة من قتل الإمام الحسين ، وغزو المدينة المنورة ومكة المكرمة ، فإن خلافة يزيد بن معاوية لم تكمل أربعة أعوام ، فقد هلك وخلفه ابنة معاوية الثانى فبقى فى الحكم أربعين يوما وتركه بعد أن أعلن رأيه فى جده معاوية وفى أبيه فقال صادقا فى شهادته

:

" أيها الناس : إن جدى معاوية نازع الأمر أهله ، ومن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو على بن أبى طالب ، وركب بكم ماتعلمون ، حتى أتته منيته ، فصار فى قبره رهينا بذنوبه ، وأسيرا بخطاياها ، ثم قلد أبى الأمر فكان غير أهل لذلك ، ركب هواه ، وأخلفه الأمل وقصر عنه الأجل ، وصار فى قبره رهينا بذنوبه ، وأسيرا بجرمه ، وإن من أعظم الأمور علينا لسوء مصرعه وبئس منقلبه ، وقد قتل عتره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأباح الحرم ، وخرّب الكعبة وما أنا بالمتقلد ولا بالمتحمل تبعاتكم ، فشأنكم أمركم " .

الإمام الحسين رضى الله عنه

#### مولده:

ولد رضى الله عنه بعد ميلاد أخيه الحسن بنحو عام ، فقد ولد رضى الله عنه على الأصح لخمس خلون من شعبان سنة أربعة من الهجرة واستشهد فى موقعة كربلاء المشنومة فى ١٠ محرم سنة ٦١ هـ ، وكان عمره ٥٦ سنة وخمسة أشهر وستة أيام .

ولما ولد جاءت به أمه رضى الله عنها إلى جده المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فاستبشر به وسماه حسينا وعق عنه كبشا وختنه لسابعه ، واسم حسين من ابتكاره صلى الله عليه وسلم ولم يكن معروفا عند العرب .

#### كنيته وألقابه :

وكنيته رضى الله عنه كما أسلفنا أبو عبد الله لا غير ، أما ألقابه فكثيرة وهى : الرشيد ، والطيب ، والزكى ، والوفى ، والسيد ، والمبارك والتابع لمرضاة الله ، والسبط ، وأشهرها الزكى .

ويشير أمير الشعراء شوقى رحمه الله إلى بعض تلك الألقاب بقوله فى رواية مجنون ليلي :

هذا الزكى ابن الزكى                      الطيب ابن الطيب

هذا سنا جبينه                              ملء الوهاد والربى

قد جل حاديه                                  جلال القارئ المطرب

وأعلى الألقاب رتبة ما لقبه به جده رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله عنه وعن أخيه الحسن : " إنهما سيذا شباب أهل الجنة " ، وكذلك السبط فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " حسين سبط من الأسباط " والسبط فى اللغة ولد الولد ، والأسباط فى بنى إسرائيل تقابل القبائل عند العرب ، فكأنه صلى الله عليه وسلم بقول : حسين أمة وحده فى خصال الخير .

تاريخه: جاء فى ترجمته فى كتاب الإصابة :

أقام الحسين بالمدينة إلى أن خرج مع أبيه إلى الكوفة ، فشهد معه الجمل وصفين ، وبقى معه إلى أن قتل ، ثم بقي مع أخيه إلى أن سلم الأمر لمعاوية ، فتحول مع أخيه إلى المدينة ، واستمر بها إلى أن مات معاوية فخرج إلى مكة ، ثم أتته كتب أهل العراق بأنهم بايعوه بعد مقتل معاوية فأرسل إليهم ابن عمه مسلما بن عقيل فأخذ بيعتهم وأرسل إليه ، فتوجه وكان من قصة قتله ما كان .

إباء واستشهاد :

ويشهد صديقى الصاوى شعلان باستشهاد مولانا الحسين السبط رضى الله عنه فيقول :

ذكرى خلودك يا حسين صحيفة	بسوى الدماء حروفها لم تكتب
أنت الشهيد ابن الشهيد وهكذا	إرث المكارم منصبا عن منصب
أهدى جدودك للبرية زمزما	نروى الحجيج موارد لم تنضب
وعزفت عن شرب الفرات مرنقا	لما رأيت عليه ذل المشرب
والحر يؤثر أن يموت بعزمه أسد	دا ولا يحيا بمكر الثعلب
الله أكبر يا ابن فاتح خيبر	الله أكبر يا ابن قاتل مرحب

وتشير الأبيات المتقدمة إلى إباء الإمام الحسين حين أرادوه أن يبائع يزيد بن معاوية فأبى أن يضيع حقا شرعيا فى اختيار الخليفة

بالشورى ، فرضى بالقتل حتى لا يقر نظام الوراثة الملكى الذى ابتدعه معاوية لابنه يزيد بغير حق . ويقول العلامة العقاد تعقيبا على استشهاد الإمام الحسين :

" فالحسين رضى الله عنه قد طلب خلافة الراشدين ، حيث لا تتسنى خلافة الراشدين وكان الصراع بين الحسين ويزيد أول تجربة من قبلها بعد عهد النبوة وعهد الخلفاء الأولين ، وقد بذل الحسين فيها روحه ، وطبيعة الشهادة موكلة ببذل الحياة لما هو أدوم من الحياة ، فهو أبو الشهداء وينبوع شهادة متعاقبة لا يقرن بها ينبوع فى تاريخ البشر أجمعين " .

البطولة والشجاعة :

يصف العلامة العقاد شجاعة الإمام الحسين فى القتال فيقول :

" كان الحسين شبل على فى شجاعته الروحية والبدنية معا غاية الغايات ، وكان مضرب المثل بين الرعيل الأول من أشجع الشجعان فى أبناء آدم وحواء .

ملك جأشه وكل شئ من حوله يوهن الجأش ، ويحل عقدة العزم ، ويغرى بالدعة والمجارة .

ملك جأشه ومن حوله نساؤه فى نضارة العمر يجوعون ويظمأون ويتشبسون به ويكون ،

وملك جأشه روية وأناة ، ولم تملكه

وثبة واثب إلى الغضب أو هيجة مهتاج إلى الوغى ، فكان قبل القتال وفى حومة القتال قويا بصيرا ، ينفذ الضعف عن عزائمه كما ينفذ الأسد غبرات الحصباء عن لبدته . . . " .  
تحية الشاعر محمد جاد الرب :

ويحى صديقى الأديب الشاعر الأستاذ محمد جاد الرب الإمام الحسين فى رباعيته الرائعة  
 فيقول :

على الأعتاب يا آل النبى  
 نحى بالصلاة على الصفى  
 وقفنا بين أيديكم نحى  
 محمد النبى الهاشمى

\* \* \*

على الزهراء أم النيرين  
 على السبطين قرة كل عين  
 حبيبى روحنا ( حسن حسين )  
 على الأب فى معاليه على

\* \* \*

على أبوابكم بابا فبابا  
 أناديكم وأنتظر الجوابا  
 لأدخل بالرضا تلك الرحاب  
 فإن رضاءكم شبعى وربى

\* \* \*

بكم ( وبزينب ) طرزت شعرى  
 بكم ( وبزينب ) طرزت شعرى  
 وقفت عليكم شعرى ونثرى  
 فى حظ الفواصل والروى

\* \* \*

لقد باركتم الأقطار طرا      بمكة أو بطيبة أو بمصر  
مقامكمو بها قد طاب نشرا      فطاب الكون بالعرف الشدى

\* \* \*

نشأت وعشت محسوباً عليهم      وسوف أموت منسوباً إليهم  
فصل عليهمو ربى وسلم      وأسعدنى بقرب سرمدى

\* \* \*

حسين لقد كرمت أبا وأما      وجدا سيد الدنيا وعمما  
كما قد طببت نفسا طببت قوما      زكيا من زكى من زكى

\* \* \*

شهيد الحق إن الحق فيكم      وقد أورثتموه عن أبيكم  
له رب البرية يصطفىكم      ويمحق كل جبار شقى

\* \* \*

ألا يا يومه فى كربلاء      يموج فى كل كرب فى بلاء  
وينزف بالدموع وبالدماء      على هذا الدم الطهر الزكى

\* \* \*

أسبط المصطفى يبغى عليه      وتمتد اليد الحمقى إليه ؟ !  
ونور الله ممدود لديه      يدل على صراطهم السوى

\* \* \*

وعم الحزن آفاق البلاد      وفاض بلأوه فى كل واد

حسين السبط يقضى وهو صاد وتبكي الأرض من هول النعى ؟ !

\* \* \*

لعمر الحق ما مات الحسين وقول عذاته زور ومين  
يراه من له قلب وعين كضوء الشمس فى الصبح البهى

\* \* \*

ألا ياسيدى أنى فقير وفضل الله عندكمو كبير  
فمن مدد النبوة أستعير وذا حق الفقير على الغنى

\* \* \*

لقد ضاقت مذاهبنا فجئنا نلوذ ، فكن لنا لجأ وحصنا  
ونستجدى رضاؤكمو علينا فمن نرجو سوى آل النبى ؟ !

\* \* \*

حين بلغت غايات السعادة وفى الدارين أحرزت السيادة  
ومسك الختام دنياك الشهاده وهذا غاية الشرف العلى

ملك مروان وبنيه :

وآل الملك بعد معاوية الثانى إلى مروان وبنيه ، وقد قلت فى مقدمة كتابى " الإمام الحسين  
بن على " تعقيا على أيلولة الملك إلى مروان وبنيه :  
" وأكاد أجزم أنه لو كشف الغيب لمعاوية ورأى أن الملك الذى

أراد تأسيسه لبني سفيان ، سينتقل على عجل إلى مروان وبنيه ، لفضل بذكائه الحاد ،  
 ودهائه السياسى ، أن تبقى الخلافة شورى بين المسلمين كما كانت ، ولما راقته له فكرة  
 المغيرة بن شعبة فى اسنخلاف يزيد ، ولم يرد المغيرة بما أشار وجه الله ، فقد كان الحق  
 واضحا ، وقد رضى معاوية أن يخلفه الإمام الحسن السبط فى شروط الصلح بينهما ، ولكن  
 لم يطل عمر الإمام الحسن .

وإذا كان معاوية قد عزل مروان عن ولاية المدينة ، وولى مكانه سعيد بن العاص ، فلا أظنه  
 كان يحب أن يراه وارثا لملك يزيد ويورثه بنيه وذريتهم ، وخاصة أنه عارض فىبيعة يزيد  
 وقال : فأقم الأمر يا ابن سفيان ، واهدأ من تأميرك الصبيان ، واعلم أن لك فى قومك نظرا ،  
 وأن لهم على مناوأتك وزرا .

" كذلك ما كان يرضى معاوية لعبد الله بن الزبير أن يأخذ الخلافة قهرا من بنى أمية ، وما من  
 شك فى أن معاوية كان يرى الحق ، ولكنه رآه مغطى بحب الآباء الغريزي للأبناء ، فحجبت  
 الحقيقة عن عينه فكان ما كان ، وترتب على تلك البيعة بلايا ورزايا حاقت نكباتها بالمسلمين  
 ففرقت جمعهم وشتت شملهم فهم كذلك إلى اليوم بعد أن كانوا يدا واحدة وقلبا واحدا ، والغيب  
 لله ، والله غالب على امره " .

**التوابون :**

ونعود إلى متابعة الحوادث فنقول :

إن أهل الكوفة ندموا على خذلان الإمام الحسين ، ورأوا أن ذلك الجرم لا يغسله عنه إلا قتل من قتله أو القتل فيه ، فذهبوا إلى قبره في كربلاء وصاحوا طالبين التوبة والمغفرة من الله ، وسموا انفسهم التوابين ورأس حزب الشيعة هؤلاء سليمان بن صرد الخزاعي ، وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جليلا عابدا ، وشهد صفين مع الإمام على رضى الله عنه .

وقضى حزب التوابين الفترة بين ٦١ هـ و ٦٥ هـ ( وقد استشهد الإمام الحسين فى ١٠ محرم سنة ٦١ هـ ) فى الاستعداد للقتال ، وكتب سليمان بن صرد إلى شيعة المدائن وشيعة البصرة يستنهضهم للأخذ بثأر الحسين ، فأجابوه جميعا إلى ما دعاهم إليه .

وقد روى الطبرانى أنه عندما انتهى سليمان بن صرد وأتباعه إلى قبر الإمام الحسين ، نادوا فى صيحة واحدة :

" يارب ، إنا قد خذلنا ابن بنت نبينا . فاغفر لنا ما مضى منا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، وارحم حسينا وأصحابه الشهداء الصادقين ، وإنا نشهدك يارب أنا على مثل ما قتلوا عليه ، فإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين " .

التوابين وحيش بن زياد :

وتولى مروان بن الحكم الملك بعد معاوية الثانى بن يزيد ، ثم تولاه

من بعد مروان ابنه عبد الملك ، فأقر بن زياد على ما ولاه عليه أبوه مروان ، فالتقى التوابون بجيش زياد عند عين الوردة ، فطلب منهم ابن زياد أن يبايعوا لعبد الملك ، فرد عليه سليمان بن صرد طالبا تسليم نفسه ، وانتهت المعركة بمقتل سليمان ومعظم أصحابه .

#### المختار الثقفى :

وعادت فلول التوابين تبحث عن زعيم يجتمعون عليه بعد مقتل سليمان فوجدوا هذا الزعيم فى شخص المختار بن عبید الله الثقفى ، وكان يدعو إلى إقامة خلافة علوية ، وينشر بين الناس أنه وزير محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية .

ودانت العراق للمختار ، ودخل قصر الإمارة فى الكوفة ، وطلب البيعة من الناس وقال : بايعونى على كتاب الله وسنة نبيه ، والطلب بدماء أهل البيت ، وجهاد المحلين ، والدفع عن الضعفاء ، وقتال من قاتلنا ، وسلم من سالمنا ، والوفاء ببيعتنا لا نكيلكم ولا نستكيلكم . وقد سأل الشيعة محمد بن الحنفية فيما يدعيه المختار من أنه يدعو لخلافته ، فقال لهم : ما أحب إلينا ممن طلب بثأرنا ، وأخذ لنا بحقنا ، وقتل عدونا .

#### القصاص من الظالمين :

فالتفت الشيعة حول المختار ، وتمكنت جيوشه من شفاء الصدر

بقتل عبيد الله بن زياد ، وعمرو بن سعد ، وشمر بن ذى الجوشن ، والحصين بن نمير ،  
 وخولى بن يزيد ، ولم ينج من الانتقام واحد ممن حصيت عليهم ضربة أو كلمة معركة كربلاء  
 ، أو من مدوا أيديهم بالسلب أو المهانة إلى الموتى أو الأحياء .  
 وسلط الله المختار على الظالمين فقتل وأحرق ومزق ، وهدم الدور ، وتعقب الهاربين ، ومات  
 مئات من الرؤساء ، وألوف من جندهم مغرقين فى النهر و مطاردين إلى حيث لا مفر ولا  
 شفاعة ، وكان ما قال العلامة العقاد رحمه الله :  
 " فكان بلاؤهم بالمختار عدلا لا رحمة فيه ، وما تحسب قسوة بالآثمين سلمت من اللوم أو  
 بلغت من الغدر ما بلغته قسوة المختار " .  
 ثم طالت المصائب تلاحق بنى أمية من خروج المختار عليهم واستخلاف عبد الله بن الزبير ،  
 وما كادو ينتصرون ويستقرون كملوك يتوارثون الملك هرقلا بعد هرقلا ، حتى سلط الله عليهم  
 السفاح العباسى وأعمامه فنقموا منهم أحياء وأمواتا ، فقتلوا أحياءهم ، وهدموا دورهم ،  
 ونبشوا قبورهم ، وحرقوا أشلاءهم ، وجلدوا جثثهم .  
 وكان السفاح يقول :

ولا دماءهم جمعا تروينى

لو شربوا دمي لم يرو شاربهم

كما كان يقول :

فلن تبيد وللأبء أبناء

أحيا الضمائن آباء لنا سلفوا

الملك البائد :

وهكذا اقتص العدل الإلهي من بني أمية ، فأذاقهم شؤم أعمالهم ، ولم تعمر دولتهم لعد مقتل الإمام الحسين أكثر من ستين سنة لم تبلغ بهم ما أملوا من أن يؤسسوا ملكا باقيا على الزمان ، وسبحان من بيده الملك يؤتية من يشاء وينزعه عن من يشاء .  
ولقد أيد الله ما كان الإمام على قاله لهم حين قال : " فأقسم بالله يا بني أمية عما قليل نتعرفنها في أيدي غيركم ، وفي دار عدوكم " .

العباسيون والعلويون :

وآل ملكهم إلى بني العباس ، وقاتل الناس مع بني العباس على أن الخلافة ستكون للعلويين ، ولكن العباسيين استأثروا بها دون أبناء عمهم من العلويين ، وذاق العلويين على أيديهم القتل والتشريد ، وليس هنا موضع تفصيله ، وغالطوا في اغتصاب الخلافة ، كما غالط الأمويون قبلهم ، وقامت مغالطتهم على أنهم أحق بالخلافة لأنهم أبناء العباس ، والعباس عم النبي صلى اللع عليه وسلم ، بينما على بن أبي طالب ابن عمه ، والعم أولى بالميراث من ابن العم .

قالوا ذلك وتجاهلوا ما علموه أن العباس دخل مع أبي سفيان على الإمام على وهو إلى جوار جثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال

أبو سفيان للإمام علي : " يا أبا الحسن ، هذا محمد قد مضى إلى ربه وهذا تراثه لم يخرج عنكم ، فابسط يدك أبايعك " . وعندها قال العباس رضى الله عنه للإمام علي كرم الله وجهه : " يا ابن أخي ، هذا شيخ قريش قد أقبل ، فامدد يدك أبايعك وبيبايعك معي ، عبد مناف لم يختلف عليك قريش ، وإذا بايعتك قريش ، لم يختلف عليك بعدها أحد من العرب " . فأجاب الإمام علي : " لا والله يا عم ، إنى لأكره أن أبايع من وراء رتاج " . ويقول العلامة العقاد معقبا على ذلك الجواب الحكيم :

" آمن على بحقه فى الخلافة ، ولكنه أراد حقا يطلبه الناس ولا يسبقهم إلى طلبه ، ولم تمنعه البيعة إلى غيره إن يعينه بالرأى والسيف ، ويصدق العون لأبى بكر وعمر كأنه يعمل فى عون رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقيد الحياة " .

---

<sup>١</sup> - أى فى الخفاء .

## جهاد السبطين رضى الله عنهم وموقفهم السياسى

### جهاد السبطين :

حضر السبطان مع أبيهم رضى الله عنهم حروب : الجمل وصفين والنهروان .  
كما أن السبطين رضى الله عنهما كانا فى المدد الذى أرسله عثمان بن عفان رضى الله عنه  
فى سنة ٢٦ هـ لنجدة عبد الله بن أبى السرح وهو يغزو شمال أفريقيا .  
كما كانا رضوان الله عليهما فى الجند المقاتلين عندما غزا سعيد بن العاص طبرستان بأمر  
أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه سنة ٣٠ هـ وشارك الإمام الحسين أيضا فى غزو  
القسطنطينية سنة ٥١ هـ .

هذا عن الجهاد فى ساحة القتال وإعلاء كلمة الله ، أما جهاد العبادة فقد كان للسبطين فيه  
همة لا تبارى ، فكانا رضى الله عنهما يكثران من الصوم والصلاة والحج والصدقة ، وأفعال  
الخير جميعها ، وكانا يحجان ماشيان على الأقدام وإبلهم تقاد بين أيديهم ، حياء من الوفود  
إلى بيت الله راكبين ، وقد حج الإمام الحسن عشرين مرة ، والإمام الحسين خمسة وعشرين  
مرة والمسافة بين المدينة ومكة نحو ٥٠٠ كيلو .

كما أنهما ، رضى الله عنهما ، علما الناس من علمهما الواسع الغزير .

### مقارنة فى المواقف السياسية

#### بين الإمام على والسبطين

كان كل من الأئمة : على ، والحسن ، والحسين ، رضى الله عنهم ، حريصاً على نفع الأمة ، ضاناً بدم المسلمين ، إلا أن الناظر فى التاريخ بغير تدقيق قد يظن أن الإمام على حارب حيث سالم ابنه الحسن ، وأن الإمام الحسين قاتل حيث سالم أخوه الحسن .

ولبيان الحقيقة نقول :

إن الإمام علياً بن أبى طالب لم يلجأ لحرب خصومه إلا بعد أن بصرهم وأعذر إلى الله فى شأنهم ، فلما نازعوه سلطانه حاربهم صيانة لحقه الشرعى حتى لا تسود الفوضى بخروج الناس على صاحب السلطان دون حق ، فقد كانت بيعته منعقدة شرعاً ، ولم يكن لأحد الخروج على تلك البيعة .

وقد انتصر على خصومه فى واقعة الجمل ، وكاد أن ينتصر فى واقعة صفين ، لولا أن أصحابه تمردوا وحملوه على قبول التحكيم ، وكان من مهزلة التحكيم ما كان ، وانتصر على الخوارج فى موقعة النهروان .

ولأن التحكيم ضل طريق الحق ، ولم يقم على سند من كتاب أو سنة

بل قام على الخداع وهوى النفوس ، فقد عزم كرم الله وجهه أن يقاتل معاوية لكن وقع استشهاده قبل أن يتمكن من القتال .

وبويع بعده الإمام الحسن ، وجهاز جيشه ليلقى به معاوية ، لكن تبين له أن حقن دماء المسلمين أولى من الحرب ، خاصة وقد رأى بوادر الخيانة والخذلان من أنصاره حين اعتدى عليه بعضهم فطعنه ، وحين ترك ابن عمه عبيد الله بن العباس لواءه وانحاز إلى معاوية لقاء جعل من المال ، فسالم الإمام الحسن معاوية ولم يقصد مخالفة لنهج أبيه ، بل أعمل رأيه في ظرف يغاير ظرف أبيه ، فصالح معاوية كفا للفتنة ، وإبقاء على نفسه وأهله وشيعته الصادقين .

وقد رضى معاوية في شروط الصلح أن يكون الأمر للإمام الحسن من بعده ، ولكن جاء تفكيره في ابنه يزيد بعد موت الإمام الحسن بمشورة من المغيرة بن شعبة الذي كان معاوية قد هم بعزله من الولاية فتقرب بهذه المشورة فأبقاه .

وكان الإمام الحسين يعارض أخاه الحسن في تسليم الأمر لمعاوية ، وقال له : أعينك بالله أن تكذب عليا في قبره وتصدق معاوية ، فغضب الإمام الحسن ، ولما رأى أخوه الحسين غضبه أذعن لرأيه ، وقال في أدب رفيع : أنت أكبر ولد على ، وأنت خليفتي ، وأمرنا لأمرك تبع ، فافعل ما بدا لك .

موقف المعارضة :

وبعد موت الإمام الحسن ، اضطر الإمام الحسين أن يقف موقف المعارضة من معاوية حين مدح ابنه يزيد ، وأراد من الإمام الحسين وابن العباس أن يبايعاه بعد أن بايعه أهل الشام وأهل العراق ، فأطال الإمام الحسين في معارضته علانية ، وكان فيما قال وأطال وأجاد في معارضته :

(( هيهات هيهات يا معاوية ، فضح الصبح فحمه الدجى ، وبهرت الشمس أنوار السرج ، ولقد فضلت حتى أفرطت ، واستأثرت حتى أجدفت ، وجرت حتى جاوزت المدى . . . ))  
 (( . . . وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمة محمد ، تريد أن توهم الناس فى يزيد كأنك تصف محجوباً ، أو تنعت غائباً ، أو تخبر عما احتويته بعلم خاص ، وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه ، فخذ ليزيد ما أخذ هو به من استقرائه الكلاب المهارشة ، وضروب الملاهى تجده ناصراً ، ودع عنك ما تحاول ، فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقية . . . ))

الافتيات على حق الأمة :

وكان تحويل الخلافة من نظام الشورى والانتخاب إلى النظام الملكى ورأى أمراً جديداً فى الإسلام ، لم يقبله الإمام الحسين ، وسار إلى أهل

العراق الذين بايعوه على يد ابن عمه مسلم بن عقيل ، ولما جد الجد خذلوه ، وتخلوا عن نصرته ، وهو موقف يسجل عليهم العار إلى الأبد ، فاستشهد هو وخاصة أهله وبعض أحبائه ، مفضلاً جهاد الخليفة الفاسق الذى بوأه أبوه بقوة السلطان مركز الخلافة دون أن يكون أهلاً لها ، وقتل الإمام الحسين وكتب الله له بذلك الاستشهاد الخلود فى الدنيا والآخرة .  
 وكان قتله على يد الأمويين هو المعول الذى هدم بنيانهم ، وقوض أركانهم ، وأزال دولتهم إلى غير رجعة ، كما كان السبب فى فناء أحيائهم أخذاً بالثأر حتى لم يبق منهم ديار على وجه الأرض ، كما ترى فى غير هذا الموضع من الكتاب .

#### سلامة الموقف :

ويرى الدكتور طه حسين فى كتابه " على وبنوه " أن الإمام الحسين لم يكن مخطئاً فيما قدر ، فهو قد عرف غضب يزيد على عبد الله بن الزبير حين امتنع عن البيعة ، وأقسم ألا يرضى حتى يحمل إليه الزبير فى جامعة<sup>١</sup> يقاد كما يقاد الأسير .  
 ولم يخطئ الحسين رضى الله عنه حين أبى أن يترك أهل بيته بالحجاز فلم يكن يأمن أن يأخذهم يزيد بمسيره هو إلى العراق .

<sup>١</sup> أى قيد من حديد أو غيره .

ويرى كذلك أن الإمام الحسين لم يرفض البيعة عناداً أو ركوباً لرأسه ، وإنما كان يعلم أن يزيد سيأخذه بالبيعة أخذاً شديداً ، فإن بايع غش نفسه وخان ضميره وخالف عن دينه حيث كان يرى بيعة يزيد إثماً وإن لم يبايع صنع به يزيد ما يشاء .

أبناء السبطين رضى الله عنهم

أبناء الإمام الحسن :

كان للإمام الحسن من الأولاد السادة :

زيد ، والحسن ، والقاسم ، وأبو بكر ، وعبد الله ، وعمرو ، وعبد الرحمن ، والحسين ، ومحمد ، ويعقوب ، وإسماعيل .

وقال أصحاب السير : أن العقب الصحيح الموجود الآن من سلالة الحسن السبط إنما هو من ولديه السيدين " زيد الأبلج " و " الحسن المثنى " لا غير .

أبناء الإمام الحسين :

أما الذكور فهم السادة على الأكبر ، وعلى الأوسط زين العابدين ، وعلى الأصغر ، ومحمد ، وعبد الله ، وجعفر ، رضى الله عنهم أجمعين .

وأما البنات فهن السيدات زينب ، وسكينة ، وفاطمة .

وقد تزوجت فاطمة من ابن عمها الحسن بن الحسن " المثنى " ، وتزوجت سكينه من مصعب بن الزبير .

وجاء فى تاريخ الإمام على زين العابدين أنه تزوج من ابنة عمه فاطمة بنت الحسن بن على ، وهى التى خلفها من زوجته أم إسحق بنت طلحة .

ولم يبق بعد معركة كربلاء للإمام الحسين من الذكور سوى الإمام على زين العابدين ، وقد كان لعمته السيدة زينب الفضل فى حمايته من القتل حين هموا بقتله وهو مريض ، فقالت : والله لا يقتل أو أقتل دونه ، فأبقاه الله وأبقى به نسل الإمام الحسين فى الحياة ، فكل حسيني من نسله رضى الله عنه .

ومن آيات الله اليبينات أن الله تعالى بارك فى ذريته الطاهرة ، فوهب لسيدى موسى الكاظم ستين ولداً ولسيدى جعفر ( أخو أبى محمد الحسن العسكرى ) مائة وعشرين ولداً ، والله يضاعف لمن يشاء ، بينما أباد الله نسل الأمويين فلم يبق منهم باق كما تقدم .

السيدة زينب رضى الله عنها

نشأتها :

ولدت رضى الله عنها بالمدينة المنورة بعد أخويها السبطين الحسن والحسين فى شعبان من السنة الخامسة من الهجرة ( ٦٢٦ م ) وقد سر

رسول الله صلى الله عليه وسلم بمولدها وسماها باسم خالتها زينب التي كانت متزوجة من العاص بن الربيع وتوفيت قبل ذلك بقليل .

وكان من عادة أهل البيت أن يكرروا أسماء أبناء وبنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى كان للإمام على ثلاث بنات باسم زينب كبراهن هذه ولذلك قيل لها زينب الكبرى ولها شقيقة يقال لها زينب الوسط وهي المكناة بأم كلثوم ، وزينب الصغرى المعروفة برقية ، وهي غير شقيقة .

وحين انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، كانت سيدتنا زينب الكبرى في الخامسة من عمرها ، وبعد ذلك بستة أشهر فقدت أمها الزهراء ، فألقى موت أمها عليها في طفولتها الباكرة عبئاً أكبر من سنها ، لكن إدراكها الباكر جعلها ترعى أخويها السبطين وشقيقتيها أم كلثوم بعد أمهم الزهراء .

#### زواجها :

ولما بلغت السيدة زينب الكبرى سن الزواج ، تزوجت من ابن عمها عبد الله بن جعفر وهو ابن جعفر بن أبي طالب صاحب اللواء في مؤتة بعد زيد بن حارثة ، وجعفر هو الذي قطعت يمينه في المعركة فأمسك الراية بيده اليسرى فلما قطعت اليسرى قبض على الراية بذراعيه المقطوعين حتى أخذها عبد الله بن رواحة ، وقد استشهد أيضاً بعد جعفر رضى الله عن شهدائنا جميعاً .

جعفر الطيار :

وقد قال صلى الله عليه وسلم لأسماء بنت عميس زوجة جعفر : يا أسماء ألا أبشرك (( إن الله قد جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة )) ولذلك قيل له جعفر الطيار .

أول مولود في المهجر :

وكان عبد الله بن جعفر أول ولد للمسلمين في هجرة الحبشة ، وبايعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن سبع سنين ، وكان صلى الله عليه وسلم شديد العطف عليه ولقد مسح على رأسه وقال : (( اللهم أخلص جعفرًا في أهله وبارك لعبد الله في صفقة يمينه )) قالها ثلاثا ، وفيه (( وأنا وليهم في الدنيا والآخرة )) ، وكان عبد الله مشهوراً بسخائه حتى لقبوه قطب السخاء .

أبناء السيدة زينب :

وقد رزق الله السيدة زينب الكبرى من ابن عمها ثلاثة ذكور وبنيتين ، أما الذكور فهم محمد وعون وعلى ، وأما البنات فهما أم كلثوم وأم عبد الله ، وقد استشهد من الذكور اثنان في معركة كربلاء مع خالهما الإمام الحسين فقال عبد الله بن جعفر حين بلغه مقتل الإمام الحسين وهو بالمدينة : أعزز على بمصرع الحسين ، إلا تكن يدي آسته فقد آساه ولداى .

### موقف السيدة زينب من أهل الكوفة :

شهدت السيدة زينب معركة كربلاء المشؤومة ، ورأت أهلها صرعى حول خبائها ، وبعد المعركة ساق الظالمون الأثمون السيدة زينب أسيرة هي ومن معها من النساء والبنات وكان معها صبيان من أبناء الإمام الحسن استصغروهما فلم يقتلوها وأخ لهما ثالث كان جريحاً ، وعلى زين العابدين بن الحسين وكان مريضاً .

وجاز ركب الأسارى على ساحة الشهداء حيث الأشلاء مبعثرة فى العراء ، ملطخة بالدماء ، فصاحت السيدة زينب وقد رأت من أهوال المعركة ما يهد الجبال الرواسى :

(( يا محمداه ، صلى عليك ملائكة السماء ، هذا الحسين بالعراء ، مزمل بالدماء ، مقطوع الأعضاء ، يا محمداه ، هذه بناتك سبايا ، وذريتك مقطعة تسفى عليها الصبا )) .

ووقفت جموع الكوفة ، لتشهد الموقف الحزين ، فبكى نساء الكوفى كما بكى الناس على الكريمات المستذلات ، فقالت السيدة زينب موبخة لهم وقد خذلوا أباهم وأخويها من بعده :

(( أما بعد يا أهل الكوفة ، أتبكون ؟ فلا سكنت العبرة ، ولا هدأت الرنة ، إنما مثلكم كمثلكم التى نقضت غزليها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، ألا ساء ما تزررون .

(( أى والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً ، فقد ذهبتم بعارها وشنارها ، فلن ترخصوها بغسل أبداً ، وكيف ترخصون قتل سبط خاتم النبوة ، ومعدن الرسالة ، ومدار حجتكم ، ومنار محجتكم ، وهو سيد شباب أهل الجنة ؟ !

(( لقد أتيتم بها خرقاء شوهاء ، أتعجبون لو أمطرت دما ؟ ! ألا ساء ما سولت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفى العذاب أنتم خالدون ، أتدرون أى كبد فريتم ؟ وأى دم سفكتم ؟ وأى كريمة أبرزتم ، لقد جئتم شيئاً إدا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا )) .

وقد قال من سمعها حينئذ : فلم أر والله خفرة أنطق منها ، كأنما كانت تنزع من أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فما أتمت حديثها حتى ضج الناس وذهلوا وسقط ما فى أيديهم من هول تلك المحنة الدهماء .

موقف السيدة زينب من ابن زياد :

وانظر ماذا جرى بينها وبين اللعين عبيد الله بن زياد والى الكوفة من قبل يزيد بن معاوية ، والذى شرط على قائد الجيش أن يبايع الإمام الحسين يزيد أو يقتل ، فقد دخلت رضى الله عنها القاعة التى كان يجلس فيها ذلك اللعين الطاغية ، فانتحت ناحية مع إمائها ومن معها من النساء

فى عزة المؤمنة الصابرة على مر القضاء ، فتساءل ابن زياد : من هذه المنحازة وحدها ومعها نساؤها وهى شامخة الرأس عاليتها ، فقال بعض إمامها : هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت الإمام على كرم الله وجهه ، فقال متشفياً فيها : الحمد لله الذى فضحك وقتلكم وأكذب أجدوتكم .

فردت عليه فى إباء وشمم :

الحمد لله الذى أكرمنا بنبيه صلى الله عليه وسلم وطهرنا من الرجس تطهيراً ، إنما يفتضح الفاجر ويكذب الفاسق وهو غيرنا .

فلم يصبر اللعين على قولها ، بل رد عليها قائلاً :

كيف رأيت صنع الله فى أهل بيتك وأخيك ؟

فأجابت فى إيمان عميق ويقين مكين :

ما رأيت إلا خيراً ، هؤلاء قوم كتب عليهم القتال فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم ، فانظر لمن الفلج<sup>١</sup> يومئذ ، ثكلتك أمك يا ابن مرجانة .

فقال اللعين وهو فى أشد غيظه :

لقد شفى الله قلبى من طاغيتك الحسين والعصاة المردة من أهل بيتك .

فقالت له :

<sup>١</sup> الفلج : الظفر .

لعمري لقد قتلت كهلى ، وقطعت فرعى ، واجتثت أصلى ، فإن كان فى هذا شفاؤك فقد اشتفيت .

شيل الأسد :

فانبرى على زين العابدين ، وكان ناشئاً صغيراً لم يبلغ الحلم ، وقال لذلك اللعين :  
إلى كم تهتك عمى بين من يعرفها ومن لا يعرفها ؟

فالتفت إليه اللعين وقال له : من أنت ؟

فقال فى ربطة جأش : أنا على بن الحسين .

قال اللعين : أليس الله قتل علياً بن الحسين ؟

قال : كان لى أخ يسمى علياً قتله الناس بأسيافهم .

فقال ابن زياد : بل قتله الله .

فأجابه فى عزة هاشمية وشجاعة علوية وقوة يقين :

الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها .

فقال اللعين ابن زياد : أو بك جرأة على جوابى وفيك بقية للرد ، وصاح بغلمانه أن يذهبوا به

فيضربوا عنقه .

فتعلقت به عمته السيدة زينب رضى الله عنها وقالت :

يا ابن زياد حسبك من دماننا ما ارتويت وسفكت ، وهل أبقيت أحداً غير هذا ؟ والله لا أفارقه

فإن قتله فاقتلنى معه .

وهنا قال على زين العابدين : اسكتى يا عمّة حتى أكلمه ، والتفت إليه قائلاً :  
 أباقتل تهددنى ، أما علمت أن القتل لنا عادة ، وكرامتنا من الله الشهادة .  
 فنظر إليهما ابن زيادة فترة ثم قال : عجباً للرحم ، والله إنى لأظنها ودت أنى قتلتها معه ،  
 دعوه فإنى أراه لما به مشغولا .

موقف السيدة زينب من يزيد :

كان ذلك فى الكوفة ، فانظر ماذا كان موقفها الجريء فى دمشق على الرغم من حزنها المضى  
 ، فقد سيق الأسرى إلى يزيد فى دمشق ، وأرسلوا إليه برؤوس الشهداء ، فأخذ يعبث بقضيب  
 بنشاي الإمام الحسين رضى الله عنه ويقول :

ليت أشياخى ببدر شهدوا                      جزع الخرج من وقع الأسل<sup>١</sup>

لأهلوا واستهلوا فرحا                      ثم قالوا يا زيد لا تشل

فبكت نساء بنى هاشم إلا السيدة زينب ، فإنها أنبرت تزأر فى وجه يزيد وعلى مسمعه فى  
 بلاغتها العلوية الهاشمية :

(( صدق الله يا يزيد ) ثم كان عاقبة الذين أساءوا السواى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها  
 يستهزئون ) .

<sup>١</sup> الأسل : الرماح .

أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض أو أكناف السماء ، فأصبحنا نساق كما يساق الأسارى ، أن بنا هوان على الله ، وأن بك عليه كرامة ، وتوهمت أن هذا لعظيم خطرك ، فشمخت بأنفك ، ونظرت فى عطفك جذلان فرحاً ، حين رأيت الدنيا مستوثقة لك ، والأمور متسقة عليك ، إن الله إن أمهلك فهو قوله : ( ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ) .

(( أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك بناتك وإمائك ، وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم كالأسارى ، قد هتكت ستورهن ، وأصلحت أصواتهن ، مكتئبات تجرى بهن الأباعر ، وتحداوا بهن الأعادى من بلد إلى بلد ، لا يراقبن ولا يؤوين ، يتشوفهن القريب والبعيد ، ليس معهن قريب من رجالهن ؟ ؟

(( أتقول : ليت أشياخى ببدر شهدوا ؟ غير متأثم ولا مستعظم ، وأنت تنكت ثنايا أبى عبد عبد الله بمخصرتك ، ولم لا وقد نكأت القرحة ، واستأصلت الشأفة بإهراقك هذه الدماء الطاهرة ، دماء نجوم الأرض من آل عبد المطلب ، ولتردن على الله وشيكا موردهم ، وعند ذلك تود لو كنت أبكم أعمى .

(( أيزيد والله ما فريت إلا فى جلدك ، ولا حزرت إلا فى لحمك ، وسترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم برغمك ، ولتجدن عترته ولحمته

من حوله فى حظيرة القدس ، يوم يجمع الله شملهم من الشعث ( ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ) . وستعلم أنت ومن بوأك ومكنك من رقاب المؤمنين إذا كان الحكم ربنا والخصم جدنا وجوارحك شاهدة عليك أينما شر مكانا وأضعف جدنا .

" فلئن اتخذتنا فى هذه الدنيا مغرماً ، حين لا تجد إلا ما قدمت يداك ، تستصرخ باين مرجانة عبيد الله بن زياد ، ويستصرخ بك ، وتتعاوى وأتباعك عند الميزان ، قد وجدت أفضل زاد تزودت به قتل ذرية محمد صلى الله عليه وسلم .

" فوالله ما اتقيت غير الله ، وما شكوت إلا الله ، فكذ كيدك واسع سعيك وناصب جهدك ، فوالله لا يرخص عنك عار ما أتيت إلينا أبدا "

وسكتت السيدة زينب رضى الله عنها ، فسكت يزيد وأطرق كل من معه .

بين زين العابدين ويزيد :

وأدخل على زين العابدين ابن أخيها ، على يزيد مثقلاً بالأغلال ، فأمر يزيد بفك أغلاله وقال له :

إيه يا ابن الحسين . . . أبوك قطع رحمى ، وجهل حقى ، ونازعى سلطانى ، فصنع الله به ما رأيت .

فأجابه سيدى زين العابدين ، وكان لم يبلغ الحلم بعد قائلا :

( ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير \* لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ) .

قالوا : وأما نساء يزيد فواسين السيدة زينب ومن معها .

المدينة المنورة ترتج من الحزن :

ثم سير يزيد السيدة زينب ومن معها إلى المدينة ، فما كاد الركب الزينبى يصل إلى المدينة المنورة حتى اريجت جنباتها بالحزن والبكاء والعيويل فلم تبقى سيدة مخدرة فى المدينة إلا خرجت من خدرها نائحة معولة ، وخرجت زينب بنت عقيل بن أبى طالب حاسرة فى نساءها وتقول :

ماذا تقولون إن قال النبى لكم

ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم ؟

بعترتى وبأهلى بعد مفتردى

منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم

ما كان هذا جزائى إذ نصحت لكم

أن تخلفوتى بسوء فى ذوى رحمى

الأمويون يرهبون السيدة زينب :

وكان وجود السيدة زينب بنت على رضى الله عنها بالمدينة المنورة

كافيا لأن يلهب الحزن على استشهاد الإمام الحسين ومن معه ، فكتب والى المدينة إلى يزيد يقول له : إن وجودها بين أهل المدينة يهيج الخواطر وإنها فصيحة عاقلة لبيبة ، وقد عزمت هى ومن معها على القيام للأخذ بثأر الحسين ، فأمره يزيد أن يفرق البقية الباقية من آل البيت على مختلف الأقطار والأمصار .

فطلب الوالى إلى السيدة زينب على أن تخرج من المدينة ، فتقيم حيث تشاء ، فقالت وهى غاضبة :

" قد علم الله ما صار إلينا ، قتل خيرنا ، وسيق الباقون كما تساق الأنعام ، وحملنا على الأقتاب ، فوالله لا خرجنا ولو أريقت دماؤنا " .

ولكن نساء بنى هاشم أشفقن عليها من مناوأة الوالى ، فأخذن فى تهوين الخروج عليها ، وقالت لها ابنت عمها زينب بنت عقيل :

" يا ابنة عمى ، قد صدقنا الله وعده ، وأورثنا الأرض نتبوا منها حيث نشاء ، وسيجزى الله الشاكرين ، ارحلى إلى بلد آمن " .

السيدة زينب ترحل إلى مصر :

فاختارت رضى الله عنها أن ترحل إلى مصر ، فوصلت إليها فى غرة شعبان سنة ٦١ هـ ، وكانت وفاتها فى ١٤ رجب سنة ٦٢ هـ ، فدفنت فى قبرها المعروف بالميدان المسمى باسمها بالقاهرة ، وشرف مثواها مصر وأهلها وباركها وباركهم ، ويقول شاعر قديم فى ذلك الشرف :

لما رجعت من الشام ليثرب  
 من بعد فاجعة الإمام الحسين  
 طلبوا إليك الظعن للبلد الذي  
 تستوطنيه خارج الحرمين  
 فاخترت مصر فرحبت بك  
 وانثنت من شرف على الكونين  
 ويقول صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان مد الله فى عمره فى تحية السيدة زينب رضى  
 الله عنها :

أشقيقة السبطين حيا الله صاحبة المقام  
 أخت الحسين مقامكم فى المجد شأو لا يرام  
 هذا الرحاب بساطة ظل من البيت الحرام  
 ومن الملائك موكب معنا يؤدون السلام  
 لم لا ونور المصطفى لما قمت هنا أقام

ثورة المدينة المنورة :

ولم يهتم الأمويون بحزن المدينة المنورة ، وأهمهم ولاء أهل المدينة ليزيد ، فحملوا إلى  
 دمشق وفدا من كبار المدينة ليحملوهم على الولاء ، فعاد الوفد بغير ما أرادوا .  
 عاد الوفد ساخطا على يزيد وحكمه ، وراحوا يقولون لأهل المدينة :

" إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين ، ويشرب الخمر ، ويضرب بالطنابير ويعزف عنده القيان<sup>١</sup> ، ويلعب بالكلاب " .

وقال رئيس الوفد - وهو عبد الله بن حنظلة الأنصاري - وكان صالحا زاهدا موثوقا به :  
لو لم أجد إلا بنى هؤلاء - وكان له ثمانية أبناء - لجاهدت بهم ، وقد أعطاني ( يزيد ) وما  
قبلت عطاءه إلا لأتقوى به .

وهبت المدينة بالثورة ، فأخرج أهلها والى يزيد وجميع من بالمدينة من الأمويين ومواليهم  
وأعلنوا خلعهم للبيعة .

وصدق ابن حنظلة الأنصاري ما عاهد الله عليه ، فقتل أبناؤه واحدا بعد واحد حين سلط يزيد  
اللعين مسلم بن عقبة المري - وهو لا يقل دناءة ولا خسة عن ابن زياد - فقتل في واقعة  
الحرّة المشنومة من المهاجرين والأنصار وأهل بدر وذريتهم ألفا وسبعمائة ، حتى لم يبق  
واحدا من أهل بدر ، وقتل من سائر الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان ، واستباح  
أعراض المدينة ثلاث أيام للجند .

وقد هلك ذلك القائد اللعين ، وهو في طريقه إلى مكة المكرمة ، لينتقم منها هي الأخرى ،  
ودفن على الطريق ، فنبش الموتورون قبره وأحرقوه ، ونار جهنم أشد حرا .

<sup>١</sup> - جمع قبنة، وهي الجارية المغنية .

وقد اشترك في هذا البغى مع مسلم بن عقبة مروان بن الحكم الذى نكث بعهد الله بعد أن كان أقسم لأهل المدينة عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يظاهر على أهل المدينة عدوا ، ولكنه ظاهر جيش الشام فى عدوانه على المدينة المنورة ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، والغدر والفجور طبيعة عهدناها فى بنى أمية ، إلا من عصم الله منهم وهو : عثمان بن عفان ، والسيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وعمر بن عبد العزيز ، وقليل ما هم .  
وقد رأى القارئ الكريم كيف اقتص العدل الإلهى من بنى أمية على يد المختار الثقفى والعباسيين بالمشرق ، وعلى يد الفاطميين وبنى حمود بالمغرب : ( إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ) .

السيدة أم كلثوم بنت الإمام على

زواجها من أمير المؤمنين عنر :

روى ابن أبى حديد بسنده عن الزبير بن بكار قال : خطب عمر بن اتلخطاب أم كلثوم بنت على عليه السلام ، فقال : إنها صغيرة ، فقال : زوجنيها يا أبا الحسن فإنى أرصد من كرامتها ما لا يرصده أحد .

فقال : أنا أبعثها إليك فإن رضيتها زوجتكها . . .

فبعثها إليه ببرد وقال لها قولى : هذا البرد الذى ذكرته لك ، فقالت

له ذلك ، فقال لها قولى له رضينيه ، ورضى الله عنك .

ومن سرور أمير المؤمنين عمر بهذا الزواج الذى ربطه نسبا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه جاء إلى مجلس المهاجرين الأولون فقال لهم رفثونى ( هنتونى ) قالوا : بماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال تزوجت أم كلثوم بنت على بن أبى طالب ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " كل سبب ونسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا سببى ونسبى وصهرى " .  
ثم أن أمير المؤمنين عمر أكرمها إكراما زائدا ، وقد ولدت له ، رضى الله عنه ، ابنه زيد .  
وبعد أن استشهد أمير المؤمنين عمر تزوجت السيدة أم كلثوم ابن عمها عون بن جعفر ، فمات عنها ، فتزوجها أخوه محمد فمات عنها ، فتزوجها أخوهما عبد الله بن جعفر فماتت عنده ( وقد كان عبد الله تزوج بأختها السيدة زينب بنت على وماتت عنده أيضا ) .

#### عطف الحسن والحسين على أم كلثوم :

وقد جاء فى أسد الغابة عن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب أنه قال : لما تأيمت أم كلثوم من عمر بن الخطاب ، دخل عليها حسن وحسين أخوها فقالا :  
إنك من عرفت سيدة نساء المسلمين وبنت سيدتهن ، وإنك والله إن

مكنت عليا من رقبتك لينكحك بعض أيتامه ، وأن أردت أن تصبى بنفسك مالا عظيما لتصيبه

قال : فوالله ما قاما حتى طلع يتكى على عصاه ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر منزلتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : قد عرفتم منزلتكم عندي يا بني فاطمة ، على سائر ولدى لمكانكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقالوا : صدقت ، رحمك الله ، فجزاك الله عنا خيرا . .

فقال : أى بنية ، إن الله عز وجل قد جعل أمرك بيدك ، فأنا أحب أن تجعليه بيدي . . .

فقالت - رضى الله عنها - : أى أبت ، إني امرأة أرغب فيما يرغب فيه النساء ، وأحب أن أصيب مما تصيب النساء من الدنيا ، وأنا أريد أن أنظر فى أمر نفسى . .

فقال : لا والله يا بنية ، ما هذا من رأيك ، ما هو إلا رأى هذين ( أى الحسن والحسين ) فانظر كيف كان نكاؤه .

ثم قام فقال : والله لا أكلم رجلا منهما أو تفعلنى . .

فأخذ الحسن والحسين بثيابه فقالا : اجلس يا أبت ، فوالله ما على هجرتك من صبر ، أجعلى أمرك بيده ، فقالت : فعلت .

قال : فإنى زوجتك من عون بن جعفر ، وبعث لها بأربعة آلاف درهم .

ويقول العلامة العقاد فى تعقيبه على ذلك :

" هذه المؤامرة المحببة بين أخوين وأختهما ليسعدها بزواج أرغد من الزواج الذى يختاره أبوهما تنتهى بطاعة الحب للأب الذى لا يصبر على غضبه ، وتدل فى سرها وعلايتها على أجمل ما يكون بين الأخوة والأباء من عطف وتوقير " .

### الدولة الفاطمية

استأثر العباسيون بالحكم بحجة الأنتساب إلى النبى صلى الله عليه وسلم من جانب عمه العباس أقرب من جانب على ابن عمه أبى طالب وهى ذريعة تذرعوها بها وساندهم سلطانهم بغير حق ، فقد رأيت ما كان من العباس مع الإمام على فى أمر البيعة ، وبقي أن تعرف أنه لم يطلب الخلافة أحد من بنى العباس حين طلبها الحسن ثم الحسين .

عبد الله بن العباس والسبطين :

وقد كان عبد الله بن العباس على علمه وفضله يقدم الحسن والحسين ويجلهم ويعترف بسيادتهم على بنى هاشم ، وقد آزر ابن العباس أباهما فى خلافته وعمل تحت رايته واليا على البصرة ، وكان الإمام على يثق فيه كل الثقة ، وقد أراد كما مر عليك أن يمثله فى التحكيم ليقابل له عمرا بن العاص الذى كان يمثل معاوية ، فأبى جيش الإمام إلا أن يكون أبو موسى .

أبو موسى الأشعري ممثلاً للإمام فى التحكيم ، وكان عبد الله بن عباس صاحب لواء تحت إمرة الإمام الحسن حين سار بجيشه للقاء معاوية .

وقد دخل ابن عباس على معاوية بعد موت الإمام الحسن ، فأراد معاوية أن يغرر بابن عباس ويفرق بينه وبين الإمام الحسين رضى الله عنه ، فقال معاوية لابن عباس : أنت اليوم سيد بنى هاشم ، فأجاب ابن عباس : أما وأبو عبد الله حى فلا ( أبو عبد الله كنية الإمام الحسين رضى الله عنه ) .

أبو جعفر ومحمد بن عبد الله :

ثم إن أبا جعفر المنصور كان قد بايع بنفسه بمكة فى المسجد الحرام محمدا بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ، ولما خرج محمد من المسجد الحرام أمسك أبو جعفر الركاب وقال : أما إنه أفضى إليك الأمر قضيت هذا الموقف ، وبايعه مرة أخرى بالأبواء ، وبايع معه صالح بن على بن عبد الله بن عباس وإبراهيم بن محمد بن على بن عباس ، وقبل أن يبايعوه فى الأبواء وهم يتشاورون من يبايعون من رهط بنى هاشم قال أبو جعفر لهم : علام تخذعون انفسكم ، فوالله لقد علمتم ما الناس إلى أحد أطول أعناقاً ولا أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى أى محمد بن عبد الله .

فلما ظهرت الدعوة لبني العباس وملكوا ، حرص السفاح والمنصور

على الظفر بمحمد لما فى أعناقهم من البيعة له ، فتوارى مع أخيه إبراهيم حتى ظهرها وقتلا رضوان الله عليهم .

وكان محمد بن عبد الله ذا فضل عظيم ويقال له صريح قريش ، وكان يدعى النفس الزكية لعبادته ونسكه وعلمه ، وشاع بين الناس أنه المهدي المنتظر .

وكان عبد الله بن الحسن شيخ بنى هاشم والمقدم فيهم حتى كان مصعب بن الزبير يقول : انتهى كل حسن إلى عبد الله بن الحسن ، ويقال : من أفضل الناس ؟ فيقال : عبد الله بن الحسن ، ويقال من أقوم الناس ؟ فيقال : عبد الله بن الحسن .

أبو جعفر وعبد الله بن الحسن :

ومع كل هذه الفضائل فقد حبسه أبو جعفر المنصور مع رهط من فضلاء السادة الحسينيين حتى ماتوا فى السجن ، وكان قد حملهم من المدينة المنورة إلى الكوفة على أكتاب الإبل مكبلين فى الحديد والقيود والثقال ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

### كيف تأسست الدولة الفاطمية :

فضل الفاطميون الانتماء إلى السيدة فاطمة الزهراء لأنهم يقيمون حقهم في الخلافة على أنهم أسباط النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنهم أبناء الوصي على بن أبي طالب ، ولا يستطيع العباسيون أن ينسبوا أنفسهم إلى الزهراء ، أو ينفوا عن الفاطميين نسبتهم إليها .

وكل أبناء السيدة فاطمة الزهراء فاطميون ، إلا أن اسم الفاطميين في تاريخ الدول إنما يطلق على أبناء إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق ، ويقال لهم من أجل ذلك : الإسماعيليون ، وبهذا الاسم يتميزون عن غيرهم من أبناء السيدة فاطمة رضى الله عنها .

وكان الإمام جعفر الصادق وصى بالإمامة بعده لابنه الأكبر إسماعيل ، وقد مات إسماعيل في حياة أبيه فانتقلت الإمامة بعده لابنه محمد ، وارتحل محمد من الحجاز إلى الرى<sup>٢</sup> ، لأنه آثر الانزواء والتستر ، ودفع الأذى من جانب العباسيين ، وقد لقب بالإمام المكتوم لأنه لم يعلن دعوته وأخذ في بثها خفية وهو ينتقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر كلما تنبعت إليه العيون ولاحقته الظنون .

ضاق المشرق بأحد أحفاده وخلفائه وهو عبيد الله ، فهجر المشرق

<sup>٢</sup> - مكان بالعراق .

إلى المغرب ، وأسس الدولة الفاطمية ونودي له بالخلافة ، وقد وطد أركانها ومد سلطانها إلى الشرق حفيده المعز لدين الله الفاطمي ، فكان لها من الشأن ما كان .

#### عبيد الله المهدي :

ونسب عبيد الله - ولقب بالمهدي - هو عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل الثاني بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ، وأمه فاطمة الزهراء ، وقد قيل في قوة بنيته : إنه كان بقوة عشر رجال ، وقد تمتع كثير من بني هاشم بهذه القوة ، وكان جده الأكبر الإمام علي محتفظا بقواه البدنية إلى ما بعد الستين فكان إذا أمسك رجلا لا يكاد يتنفس من شدة إمساكه ، وكان محمد ابن الحنفية ابن الإمام علي يلوى الحديد فلا يقيمه غيره .

وتتفق الروايات على أن عبيد الله جاء إلى مصر وانتقل منها إلى المغرب كان مطاردا من الخليفة العباسي ، وجعل لمن يأتي به حيا أو ميتا جعل مجزئ ، وتتفق الروايات كذلك أن الذي مهد له في المغرب واحد من شيعته هو عبيد الله الصنعاني من اليمن ، واسمه الكامل هو الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا ، وكان من ولاية الحسبة في بغداد ، وقد وصفوه فقالوا : إنه كان ذا فهم وفصاحة وجدال ومعرفة .

وكان ذلك الصنعاني قد التقى فى الحج بقوم من أهل المغرب فخالطهم ، وكانوا عشرة رجال من قبيلة كتامة ، وكانوا ملتفين حول شيخ منهم ، وقد جاء معهم إلى مصر بحجة أنه من أهل العراق ، وكان يخدم السلطان ، ثم رأى أن خدمته ليست من أعمال البر فتركها ، وجاء إلى مصر لتعليم القرآن ، فعرضوا عليه أن يصحبهم إلى المغرب فاستمهلهم حتى يتبين حاله بمصر ، ثم وافقهم على أن يصحبهم إلى المغرب ، وهناك بث دعايته واستمال إليه قبيلة كتامة بعددها وشجاعة رجالها ، ثم جرد السيف وهزم بهم الأغالبة أعوان العباسيين وضمن لمولاه عبيد الله المهدي النجاح فاستقدمه فوصل إلى جبال الأطلس سنة ٢٩٦ هـ ، وبويع له بالخلافة وهو فى نحو الأربعين ( اختلف فى تاريخ ميلاده بين ٢٥٥ هـ ، ٢٦٠ هـ ) ، ودام ملك المهدي فى المغرب ٢٤ سنة إلى أن توفى فى سنة ٣٢٢ هـ .

#### مزايا المهدي :

وقد وصفوه فقالوا : اتصف عبيد الله المهدي بقوة البنية وجمال السمات والهيبة ، كما اتصف باليقظة مع سعة الحيلة ورباطة الجأش ، وعرف بالحزم وأصالة الرأي وشدة المراسم ، واجتمع له حسن التصريف ، فلم يفته قط أن يختار الوقت الملائم والرجل الملائم للعمل المطلوب ، كما كان يحب العمارة والتنظيم ، فوجدت الدولة منه مؤسساً قليل النظراء ، ويشيد أمير الشعراء شوقي بفضل المهدي مؤسس الدولة الفاطمية فيقول :

من جبل المغرب مطلع الضحى      وسخر البربر جندا للمهدى  
 وصرف الأيام حتى أحدثت      ما كان فى الأحلام أحلام الكرى  
 وأظفر الصابر بالنجح فىا      هزيمة اليأس ويا فوز الرجا  
 سبحان الملك إليه وله      يؤتية أو ينزعه ممن يشاء  
 اضطلع المهدي بالأمر فما قصر فى أمر العباد عن الهدى  
 وحمل الناس على الدين وما يأمر من رشد وينهى من عمى  
 انتظمت دولته إفريقيا      وارفة الظل خصيبة الذرى

#### العباسيون ونسب الفاطميين :

وكان قيام الدولة الفاطمية فى المغرب نذيرا بزلزلة عروش العباسيين فى بغداد ، والإخشيذ فى مصر ، والأغالبة فى أفريقيا الشمالية ، والأمويين فى الأندلس ، فلم يجد العباسيون بدا من إنكار نسب الفاطميين فادعوا أنهم ينتسبون إلى ميمون القداح بن ديسان الثنوى القائل بالهين اثنين ، وقد تلقف التهمة كل خائف من قيام الدولة الفاطمية ، وأشاعوا أن المهدي الفاطمى لم يكن يسمى عبيد الله ، وأن اسمه الصحيح هو سعيد بن أحمد بن عبد الله القداح بن ميمون بن ديسان . وقد اختلفوا فى نسبه تارة إلى المجوس ، وتارة إلى اليهود .

ويهدم المقرئى طعن العباسيين فى نسب الفاطميين فيقول بحق :  
 " إن العلويين على غاية من وفور العدد وجلال القدر عند الشيعة ،

فما الحامل لشيعتهم على الإعراض عنهم والدعاء لابن مجوسى أو لابن يهودى ، هذا ما لا يفعله مخلوق ، ولو بلغ الغية فى الجهل أو السخف " .

ويقول العلامة العقاد هادما طعن العباسيين فى نسب الفاطميين :

" وقد عاصر المهدي مؤرخ أندلسى - هو عريب بن سعد - وكان ممن يوالون الأمويين ، فلم يقدح فى نسب الرجل ، ولم يسمع من أمرا ، أمية فى الأندلس قدحا فيه .

" وغاية ما ننتهى إليه فى هذه المسألة - مسألة النسب الفاطمى - أن المطاعن لم تمسه بدليل واحد يعول عليه ، وإن مطاردة عبيد الله عند اتجاهه إلى المغرب دليل على أن العباسيين أنفسهم كانوا يخشون دعوته وأن مبايعة الشيعة لأبنائه سواء شيعة الديلم فى بغداد ، أو شيعة الزيديين خاصة فى اليمن ، ترجح صدق انتسابهم إلى السيدة فاطمة الزهراء إن لم نؤكد كل التأكيد " .

هذا ولم يكتف العباسيون بالطعن فى نسب الفاطميين ، بل أصدروا بيانا ضموا فيه إلى قولهم إنهم خوارج لا نسب لهم فى ولد على بن أبى طالب ، وقولهم إنهم كفار فساق زنادقة ملحدون معطلون وللإسلام جاحدون ، أباحوا الفروج ، وأحلوا الخمر ، وسبوا الأنبياء ، وادعوا الربوبية .

ويهدم العلامة العقاد الدعوى الباطلة فيقول :

" ولو كان نشر الدعوة الفاطمية يتولاها دعاة العصيان والمعاصى

لكان أولى البلاد أن تظهر فيه طوائف الإباحة هي بلاد المغرب حيث دان القوم لخلافة الفاطميين ، أى كما ظهر فى المشرق القرامطة الذين ظهروا فى البحرين واليمن وفارس وبعض بقاع الشام ، وكانوا يجهرون بالمعاصى ، ويجتزون على مناسك الحج ، ويمثلون بالحجاج من الرجال والنساء .

" وقد دعا القرامطة للفاطميين - كنا دعا عبد الله بن سبأ للإمام على - فأنكرهم الخليفة الفاطمى حين خرجوا على الدين ، وأغاروا على الحجاز واعتدوا على الحجاج ، وكتب الخليفة القائم وهو بالمغرب إلى داعية القرامطة يقول له :

" العجب من كتبك إلينا ممتنا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها ، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر الذى هو يمين الله فى الأرض يصفاح به عباده ، وحملته إلى أرضك ، ورجوت أن أشركك فلعنك الله ثم لعنك ، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده " .

وحين تكلم العلامة العقاد عن خلافة المهدي قال :

" ولم يعرف عنه طوال أيامه بالمغرب حاكما أو غير حاكم أنه فرغ لمناعم نفسه أو غفل يوما عن سياسة ملكه ، وكانت له زوجة واحدة ، وانقضت حياته وفى سيرته رد بلسان الحال لا بلسان المقال على الذين

رموه بالانتماء إلى أعداء الدين ، بل أعداء الأديان ، وأنه نواظراً سرا مع رسل الفساد والغواية لاستباحة المحرمات والإغراء بالفجور .

" ولو لم يكن كذلك لما أبقى بعده ملكاً مؤسساً يغالب عوادي الدهر من أول القرن الرابع إلى نهاية القرن السادس ، أو يغالب بآثاره الباقية إلى اليوم " .

#### خلفاء المهدي :

وخلف المهدي ابنه القائم ، وخلف القائم ابنه المنصور ، وخلف المنصور ابنه المعز الذي تولى الخلافة في سنة ٣٤١ هـ .

#### فتح مصر :

شاء الله أن تفتح مصر أيام خلافة المعز لدين الله الفاطمي فانتقلت من خلافة العباسيين إلى خلافته في سنة ٣٥٦ هـ ، وكان فتحها على يد قائده جوهر الصقلي الذي وصلها في ٣٥٨ هـ .

وتمشيا مع سياسة الدولة في التعمير أسس جوهر الجامع الأزهر في مدينة القاهرة التي وضع جوهر أساسها ليستغنى بها عن مدينة القطائع عاصمة الدولة الطولونية ، وعن الفسطاط ومسجدها العتيق ، وسمى الجامع الأزهر اشتقاقاً من اسم الزهراء في أرجح الأقوال .

وقد قدم الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر في سنة ٣٦٢ هـ ونقلت الخلافة إلى القاهرة ، واتسع سلطان الدولة حتى شمل الشام واليمن والحجاز مما دعا أمير الشعراء شوقي رحمه الله أن يقول :

إن يك في مصر العزيزانه من المحيط ملكه إلى سبا

فضل الأزهر :

وقد صار لمصر بالأزهر المعمور مركز خاص إلى اليوم بين البلاد الإسلامية في المشارق والمغرب ، فإن طلاب العلم يقصدونه من كل فج عميق منذ ألف سنة أو يزيد ، ثم يعودون إلى بلادهم بعلوم الدين واللغة العربية ، ويتزود بالعلم فيه في وقتنا الحاضر من المسلمين نحو ستين جنسا من عرب وعجم ، وتوفر لهم حكومتنا في سخاء مشكور أسباب السكن والمطعم والنفقة حتى إنها أقامت لهم مدينة البعوث الإسلامية على أحدث طراز ، وزودتها بجميع أسباب الراحة .

وقد التقيت في موسم الحج بمنى العام الفائت بشاب من مدينة الكاب بجنوب أفريقيا ، وكنت في زيارة صديقي الدكتور عبد المنعم غنيمة الأستاذ بكلية الهندسة ، وكان يجمعه به السكن ، فما كاد يسمعي أتحدث إلى بعض المصريين شارحا حديثا نبويا شريفا حتى استأذن في الاستماع معهم ثم رجاني أن أكتب له ذلك الحديث ليترجمه إلى قومه باللغة الساحلية مع الشرح الذي فهمه مني ، وكان يكلمني باللغة العربية

الفصحى ، فسألته عما إذا كان قد تلقى العلم بالأزهر الشريف ، وهو ما رجحته حين سمعت كلامه ، فأجابنى بأنه متخرج فى كلية الشريعة بالأزهر من سنوات ، وعندئذ أهديته نسخة من كتاب لى فى فقه الإمام مالك ، فاستأذنى فى ترجمته إلى اللغة الساحلية ، وكم كان سرورى بلاقائه عندما تفضل وزارنى بمنزلى بالقاهرة ، وهو فى طريق عودته بالطائرة إلى بلده وكنا قد سبقناه إلى مصر .

والإسلام يفخر بقيام الأخوة الإسلامية فيما بين المسلمين دون تفرقة من لون أو لغة أو جنس أو وطن ، لأنه يجمع المسلمين فى المشارق والمغارب على دين التوحيد الخالص والإيمان بالرسالة المحمدية ، وبالיום الآخر ، واللغة العربية وعلوم الدين سبيل لتقوية الروابط والتفاهم بين العرب والعجم ، وتلك رسالة الأزهر الشريف الذى أسسته الدولة الفاطمية منذ أكثر من عشرة قرون فشح نوره فى الخافقين وعم المشارق والمغارب قال أمير الشعراء شوقى رحمه الله

:

قم فى فم الدنيا وحى الأزهرا	وانثر على سمع الزمان الجواهر
واخشع ملها وأقض حق أئمة	طلعوا به زهرا وماجوا أبحرا
يا معهدا أفنى القرون جداره	وطوى الليالى ركنه والأعصرا
ومشى على يبس المشارق نور	وأضاء أبيض لجها والأحمرا
فى الفاطميين انتمى ينبوعه عذب	الأصول كجدهم متفجرا
حنى ظننا الشافعى ومالكا	وأبا حنيفة وابن حنبل حضرا

### نهاية الدولة الفاطمية :

و شاء الله أن تضعف الدولة الفاطمية بعد قوة ، حين تولى الخلافة بعض الخلفاء وهم فى سن الطفولة ، وجنح بعض الخلفاء إلى عيشة الترف وتركوا التصرف للوزراء ورؤساء الدواوين . ثم كانت المجاعة من الداخل ، وهجوم الصليبيين وغير الصليبيين من الخارج ، وكانوا بنوا أيوب قد أخذوا بزمام السلطان فى مصر قبيل انتهاء الدولة الفاطمية ، ومات العاضد آخر خلفاء الفاطميين سنة ٥٦٧ هـ بعد أن عمرت دولتهم ٢٧٠ سنة .

### حضارة الدولة الفاطمية :

ولئن كانت الدولة الفاطمية قد انتهت فى سنة ٥٦٧ هـ ، فإن حضارتها لم تمت بل بقيت ناطقة بمجدهم كما تشهد آثارها القائمة إلى يومنا هذا ، تلك الحضارة التى يصفها العلامة العقاد فيقول :

"إذا استثنينا الحضارة المصرية الأولى فى أيام الفراعنة ، جاز أن يقال إن حضارة مصر فى عهد الفاطميين لم يعرف لها نظير بعد الميلاد ، ولا استثناء لعهد البطالسة ، لأنه عهد غلبت فيها الصبغة الأجنبية على الصبغة الوطنية ، خلافا للحضارة فى أيام الفاطميين ، فإن صبغتها المصرية كانت غالبية على كل صبغة ، ومن ثم لم تتكرر فى وطن آخر على هذه

الصورة ، وبقيت مصر على مذهبها الدينى الذى كانت عليه قبل قيام الدولة بين ربوعها .  
 " وتصدق كلمة الحضارة هنا على كل حضارة تقاس بمقياس الثقافة أو مقياس الصناعة أو  
 مقياس الثروة أو مقياس الشؤون الاجتماعية .

" فلم توجد فى مكتبة بعد مكتبة الاسكندرية خزائن للكتب كالخزائن التى وجدت فى القصر  
 الشرقى ، وتفاوتت تقديرها بين ستمائة ألف مجلد ومليونين حسب اختلاف التقدير على ما  
 يظهر بين عدد الكتب وعدد النسخ ، وقد كان فيها لبعض الكتب عشرات من النسخ للاعارة أو  
 للاطلاع .

" وتنافست القصور فى اقتناء الكتب النادرة ، فكان فى كل قصر مكتبة تحوى عشرات الألوف  
 من كتب الفقه والأدب والرياضة والطب وسائر العلوم .

" وكان الخليفة يزور المكتبة العامة من حين إلى حين ، فيترجل ويخلع نعليه ، وتعرض عليه  
 الكتب الواردة ليأذن بوضعها فى الرفوف .

" وأنشئت دار الحكمة ودار العلوم ، هذه للمتعلمين ، وتلك للمسلمين ، وفتحت فيها مجالس  
 للمناظرة أحيانا وتنقل المناظرة أحيانا إلى قصر الخليفة ، فيشترك فيها أو يشرف عليها ،  
 ويأذن لكل ذى رأى أن يدلى برأيه فيها ، وإن خالف به إجماع الآراء .

" . . . وفى عهدهم أصلحت الدواوين ، ونظمت وسائل الري وأعيدت مساحة الأرض ، وفكروا فى بناء الخزان عند أسوان .

" تقدمت الفنون والصناعات ، وتنافس الفنانون والصناع فى هندسة البناء ، وفى النقش على الجدران ، والحفر على الحجارة الكريمة ، وشوهدت رسوم على النسيج تحكى اللوحات الفنية فى دقة التصوير وجمال التلوين .

" . . . وكانت التجارة مددا للصناعة لا ينقطع ، تأتى السفن من بحار المغرب ومن بحار الهند والصين بالخامات ، وتعود ببدايع المصنوعات .

" . . . فما من رحالة أنجبه العالم الإسلامى لم يتخذ من مصر مقاما أو قرارا فى تلك الأيام ، وما من قصر من قصور الملك فى المشرق والمغرب عمر فى ذلك العصر بمثل ما عمرت به القصور الفاطمية من الشعراء والأدباء .

" إن تاريخ الدولة الفاطمية جدير أن تفرد له المجلدات الضخام لأنه تاريخ يغنى عن التواريخ . . . فهى الدولة التى قامت بين ست دول أو أكثر من ست دول إسلامية وأجنبية تحاربها وتخشى عاقبة قيامها ، وأسست حقها على دعوة بتألب الخصوم من حولها على إنكارها ، واعتمدت فى العودة على وسائل لم يسبقها إليها سابق ولم يلحقها نظير لها فى تلك الوسائل إلى هذا القرن العشرين ، فمن تلك الوسائل فن التخذيل

أو " الطابور الخامس " كما يسمى فى العصر الحديث ، ومنها تسخير العلم والفن والفلسفة والقصص فى نشر الدعوة الظاهرة والخفية .

" ومنها الاستعانة بالجماعات السرية وتلايب الأدوار المنتظمة لأنفذ سياسة بعد أخرى ، ومنها المواكب والمراسم والمحافل والأعياد والعادات الاجتماعية ، وكانت تشير على الدعوة ولا تهمل معها أركان الملك من تشييد المدن ، وتنظيم الدواوين ، وترتيب الرتب ، وتدريب الجيوش ، وبناء الأساطيل ، وفتح المدارس والجامعات ، وتزويدها بالمكتبات ، وتشويق الناس إليها بمجالس المحاضرة والمناظرة فى أيام محدودة يشهدها الرجال والنساء .

ويؤيد العلامة العقاد فيما قرره أمير الشعراء شوقى رحمه الله فيقول :

فيا جزى الله بنى فاطمة	عن مصر خير ما أثناب وجزى
وأخذ الله لهم من حاسد	فى النسب الطاهر قال ولغا
كم مدن بنوا ودور شيذوا	للصالحات هاهنا وما هنا
هم رفعوا الإصلاح مصباحا فما	من مصلح إلا بنورهم مشى
والكرم المصرى مما رسموا	بمصر من بر وسنوا من قرى

## خاتمة الكتاب

يقول العلامة الغقادي : " إن السيدة فاطمة الزهراء أخذت مكانها الرفيع بين أعلام النساء في التاريخ لأنها بنت النبي صلى الله عليه وسلم ، وزوجة الإمام علي ، وأم الشهداء ، ولكن لم يتضح أنها تأخذ مكانها هذا بحقها الشخصي أو بصفاتها التي كانت لها أثر في حوادث التاريخ "

ويستطرد رحمه الله فيقول :

" فهي أصل قوى من أصول الدعوة التي ثبتت في مجرى الزمان أجيالا طويلا ، ولم تزل لها أثرها في عصرنا هذا ، وفيما يلي من العصور "

ويضيف طيب الله ثراه قائلا :

" لم يعرف التاريخ نظيرا لثبات بنى علي وفاطمة علي حقهم في الإمامة أو الخلافة .  
 " حوربوا فيها زما ، وتولاها من لا شك عندهم ولا عند الناس في فضلهم عليه كيزيد بن معاوية ، فأنفوا أن يتركوها استخذاء وخضوعا ، وحاربوا فيها كما حوربوا ، وصمدوا للطلب الحثيث طالبين ومطلوبين مائة سنة ، ثم مائتين ، ثم ثلاثمائة سنة ، حتى دانت لهم الخلافة باسمهم في عهد الدولة الفاطمية .

" لولا خصال فيهم تعين على هذا النضال لما ثبتوا عليه هذا الثبات ، ولا استطاعوا أن يصمدوا للعسف والعنت من بنى أمية ، ثم من

بنى العباس ، ومعهم من المشرق والمغرب أعوان وأتباع ، وقد جدوا غاية الجد فى نكالهم بأبناء على وفاطمة فى كل مكان ، وصنعوا بهم ما كان خليقاً أن يستئصلهم استئصالاً أو يرغمهم على اليأس والتسليم .

(( لولا خصال فيهم لما كان هذا منهم .

(( فإذا كان مرجع هذه الخصال إلى وراثة ، ولا بدلها من نصيب من الوراثة ، فقد ورثوها عن فاطمة كما ورثوها عن على ، بل هى إلى ميراثهم من الزهراء أقرب منها إلى ميراثهم من الإمام .

(( . . . فى خلائق السيدة فاطمة مدد صالح للثبات على الحق الذى يعتقده صاحبه ، أو يذاد عنه فلا ينكص عنه على رغم .

(( كانت شديدة الاعتزاز بانتسابها إلى أبيها ، وكانت مفضولة على يقين التدين ، وكانت ذات إرادة لا تهمل فى حساب شأن من شؤونها . وكانت فطرة التدين فيها وراثة من أبوين . .

(( . . . وذكر غير واحد من الصحابة ، وذكرت السيدة عائشة : أنها كانت أشبه الناس بأبيها فى مشيتها وحديثها وكلامها ، وزادت عائشة فقالت : ما رأيت أفضل من فاطمة غير أبيها .

(( . . . أما إنها رضى الله عنها كانت ذات إرادة لا تهمل ، فقد بدا

ذلك فى أمر زواجها ، وفى حاجتها لزواجها ، وم حاجتها لأبى بكر وعمر ، وفيما كان يتوخاه على فى مرضاتها بصدد المبايعة قبل وفاتها .

(( . . . ولا ننسى أن الزهراء قد غوضرت وهى فى الثلاثين أو قبل الثلاثين ، فإذا ظهر منها هذا الجد ، وهذا اليقين ، وهذه العزة ، وهذه الإرادة ، وهى فى تلك السن الباكرة ، فذاك ولا شك دليل على قوة كامنة يرجع إليها حين يفسر المفسرون خلائق بنيتها وما عساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين )) .

أقول : وهذا الرصيد من المفاخرة العلية الفاطمية الذى كشف عنه العلامة العقاد بعبقريته فى سيرة السيدة فاطمة الزهراء وبنيتها يجب أن يضمه كل باحث إلى مفاخر أم المؤمنين السيدة خديجة الكبرى التى أنجبت الزهراء وأرضعتها بلباها الطاهرة النقية التى لم تدنسها شوائب الأخلاق الدنية ، وسبحان ربي القائل : ( إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ) .

فما أعظم أم المؤمنين السيدة خديجة الكبرى ، وما أجل نكراها ، والحمد لله أولاً وأخيراً .

تم بحمد الله

## مراجع الكتاب

	القرآن الكريم
	كتب السنة
	السيرة
: لابن هشام	السيرة النبوية
: للإمام ابن كثير	مواكب ربيع
: للعارف أحمد الحلواني	النصائح الكافية
: للشريف ابن عقيل العلوي	شرح نهج البلاغة
: لابن أبي حديد	دول العرب وعظماء الإسلام
: للأمير الشعراء أحمد شوقي	فاطمة الزهراء
: للعلامة عباس العقاد	أبو الشهداء
: للعلامة عباس العقاد	على وبنوه
: للدكتور طه حسين	نساء النبي
: للدكتورة بنت الشاطئ	بنات النبي
: للدكتورة بنت الشاطئ	خديجة
: للمرحوم الكاتب طه عبد الباقي	الإمام الحسن بن علي
: للمؤلف	الإمام الحسين بن علي
: للمؤلف	الصوفية في إلهامهم
: للمؤلف	

## محتويات الكتاب

صفحة	
٢	مقدمة .
١٤	مقدمة الطبعة الثانية . . . . .
١٩	السيدة خديجة رضى الله عنها . . . . .
١٠٥	أولاد السيدة خديجة من رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . . .
١٠٨	السيدة زينب بنت الرسول رضى الله عنها . . . . .
١٢٩	السيدة رقية بنت الرسول رضى الله عنها . . . . .
١٤٢	السيدة أم كلثوم بنت الرسول رضى الله عنها . . . . .
١٤٩	السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول رضى الله عنها . . . . .
١٩٦	الخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم . . . . .
١٩٧	استخلاف أبى بكر رضى الله عنه . . . . .
٢٠٢	استخلاف عمر بن الخطاب رضى الله عنه . . . . .
٢٠٢	استخلاف عثمان بن عفان رضى الله عنه . . . . .
٢٠٥	بيعة الإمام على كرم الله وجهه بالخلافة . . . . .
٢١٢	كيد معاوية للإمام على . . . . .
٢١٣	أبناء فاطمة الزهراء . . . . .
٢٥٨	الإمام الحسن رضى الله عنه . . . . .

